

بالحق عارفاً

تأملات في زيارة الأربعين

يا حسين

الشيخ طلال الجبري



بحق عارفنا

تأملات في زيارته الأربعين

الشيخ طلال الجبري





بحقّه عارفاً.....





اِسْلَامُ عَلٰی حُسَيْنٍ وَعَلٰى اَبْنِ الْحُسَيْنِ
وَعَلٰى اَوْلَادِ الْحُسَيْنِ وَعَلٰى صَحَابَةِ الْحُسَيْنِ





بحقّه عارفاً.....





إهداء

إلى سيّدي ومولاي الإمام أبي عبد الله الحسين (عليه السلام)

لم يكن هذا الكتاب ليُكتب لولا أنّ اسمك يسكن في أعماق الروح
سكون اليقين، ولا كان للقلم أن يتحرّك لولا أنّ حبّك يوقظه كلما همد،
ويستنهضه كلما ثاقل. فها أنا أقف على بابك، لا أحمل من زادي إلا
شوقًا متراكمًا، وولاءً تعلّم أن ينحني حين يُذكر الحسين، ويعلو حين
يُنَادى باسمه.

يا سيدي، ما كتبتُ حرفًا إلا وأنا أستشعر أنّي أقترّب من مقامٍ لا تبلغه
العبارات، ولا تُحيط به اللغات، ولكنها المحبة حين تفيض، تُكره
الحروف على أن تسير، ولو كانت تعلم عجزها. فكان هذا الكتاب
المتواضع محاولة قلبٍ أن يتكلم، لا دعوى علمٍ أن يُحكم، وكان رجاءً
أن أكون في جملة من طرق بابك، ولو بكلمة، ولو بدمعةٍ مستترة بين
السطور.

يا أبا عبد الله، إنّ اليقين بك ليس فكرة تُقال، بل حالة تُعاش، تتغلغل
في النفس حتى تصير معيارًا للحق، وميزانًا للمواقف، وسراجًا يُهتدى به
في دروب الحياة. ومن هنا، لم تكن زيارتك مسيرًا إلى أرض، بل صعودًا
إلى معنى، ولا كانت الأربعين موعدًا زمنيًا فحسب، بل تجديدًا للعهد لا
ينقطع، أن نبقى حيث كنت، ومع ما خرجت له، وعلى ما استشهدت
من أجله.



ولعلّ هذا الكتاب، يا مولاي، ليس إلا امتدادًا لذلك المسير الذي أتشرف به في كل عام نحوك في الأربعين؛ فهو خطواتٌ كُتبت حروفًا، وأنفاسٌ تحوّلت إلى عبارات، ومسافةٌ بيني وبينك اختُصرت على صفحاتٍ تُحاول أن تبقى في دربك وإن عجزت عن بلوغ مقامك. وكما أسألك القبول في كل مسير، أسأل الله بك وإليك ألا يحرمني من هذه الزيارة، وأن يبقى اسمي مكتوبًا في سجلّ السائرين الزائرين إليك، ما دامت في نبضة تهتف: يا حسين.

وإن كان لهذا العمل من قيمة، فهي أنّه كُتب على أعتابك، بروح تحاول أن تتعلّم كيف تكون لك، لا كيف تكتب عنك؛ روح تدرك أنّ “المعرفة بحقك” ليست لفظًا يُردّد، بل انتماء يُثبت، وولاءٌ يُختبر، ويقينٌ لا يتزعزع مهما اشتدّت الفتن وتكاثرت الظلمات.

سيدي، إنّي أهديك هذا الكتاب، لا لأنك تحتاج إلى إهداء، فأنت الغنيّ إلا عن الله، ولكن لأني أحتاج أن أثبت لنفسي أنّ لي نصيبًا في خدمتك، وأن لي حظًا في الوقوف على بابك. فإن قُبِل، فذلك من فيض كرمك، وإن رُدّ، فحسبي أنني قصدتك، ومن قصدك لم يرجع خائبًا.





فاجعل، يا مولاي، هذا الجهد شاهداً لي لا عليّ، وارزقني فيه صدق النية، وثبات الولاء، ونور المعرفة، واكتبني في زمرة من عرفوا بك، فعرفوا الله، وساروا إليك، فوصلوا.

يا حسين... ما عرفك من جهل قلبه، ولا أحبّك من تردّد في ولايتك، فاجعلنا ممن عرفوك حق المعرفة، وأحبّوك حق المحبة، وثبتوا معك حق الثبات، ولا تحرمنّا لذّة زيارتك، ولا تُبعدنا عن ساحتك.

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أبا عَبْدِ اللَّهِ
وَعَلَى الْأَرْوَاحِ الَّتِي حَلَّتْ بِفِنَائِكَ وَأَنَاخَتْ بِرَحْلِكَ،
عَلَيْكُمْ مِنِّي سَلَامُ اللَّهِ أَبَدًا مَا بَقِيََتْ وَبَقِيَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ،
وَلَا جَعَلَهُ اللَّهُ آخِرَ الْعَهْدِ مِنِّي لِزِيَارَتِكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ،
السَّلَامُ عَلَى الْحُسَيْنِ،
وَعَلَى عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ،
وَعَلَى أَوْلَادِ الْحُسَيْنِ،
وَعَلَى أَصْحَابِ الْحُسَيْنِ.

أبو يقين نور الزهراء





مقدمہ عامہ





مقدمة عامة

الحمدُ لله الذي اصطفى من الأرضِ مواضعَ جعلها مرايا لفيضه، أبواباً لرحمته، فشرَّفها بآثار أوليائه، وأودع فيها سرَّ القرب لمن قصده بقلبٍ حاضرٍ وروحٍ متطلّعة، فجعل منها منازلَ للذكر، ومواطنَ للتزكية، ومعارضَ للعارفين. والحمدُ له إذ اختصَّ أرضَ كربلاء المقدسة بخصوصيةٍ ليست لسواها، فغدت في وجدان المؤمنين قبلَةً لا تُقاس بالاتجاه، بل تُقاس بالانجذاب، ومهوى أفئدةٍ لا تحرّكها المسافات، بل تُسيرها المحبة، وتستنهضها المعرفة، وتعيد تشكيلها حرارة الولاء.

والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ المصطفى، الذي أرسى قواعد الهداية، وأقام معالم الحق، وعلى آله الطاهرين، مصاييح الدجى، وسفن النجاة، لا سيما سبطه وريحانته، سيّد الشهداء الإمام أبي عبد الله الحسين (عليه السلام)، الذي لم يكن حدثاً في التاريخ، بل معياراً للتاريخ؛ به يُوزن الصدق من الزيف، ويُعرف الحق من الباطل، ومنه يُؤتى سبيل النجاة، لا بمعنى الطريق اللفظي، بل بمعنى المنهج الذي يُحيي في الإنسان إنسانيته، ويوقظ فيه ضميره، ويُعيدُه إلى الله سبحانه وتعالى عبر بوابة التضحية والوعي والالتزام.





إنّ الحديث عن الإمام الحسين (عليه السلام) ليس حديثاً عن شخصية عابرة، ولا عن واقعة منقضية، بل هو حديثٌ عن حضورٍ دائمٍ يتجدّد في ضمير الأمة، وعن مدرسةٍ مفتوحةٍ لا تُغلق أبوابها، وعن مشروعٍ إلهيٍّ ما زال يُخاطب الإنسان في كل عصر: كيف يكون عبداً لله في زمن الفتنة؟ وكيف يُحسن التمييز حين تختلط الرايات؟ وكيف يقف مع الحقّ حين يصبح الوقوف كلفةً لا يقوى عليها إلا من صفا قلبه، واستيقظت بصيرته؟

إنّ كربلاء ليست جغرافياً تُزار فحسب، بل حقيقةٌ تُعاش، ومعنى يُستحضر، وموقفٌ يُعاد إنتاجه في كل لحظة اختبار. هي لحظة انكشافٍ كبرى، تجرّدت فيها القيم من الزخارف، وظهرت فيها الحقائق بلا أقنعة، فكان الإمام الحسين عليه السلام تجسيدا للحقّ في أعلى مراتبه، وكان الوقوف معه انحيازاً للحقيقة في أنقى صورها. ومن هنا، لم تعد زيارته مجرد قصدٍ لمكان، بل صارت دخولاً في أفقه، واصطفافاً في خندقه، واستعداداً لتحمل تبعات هذا الاصطفاف.

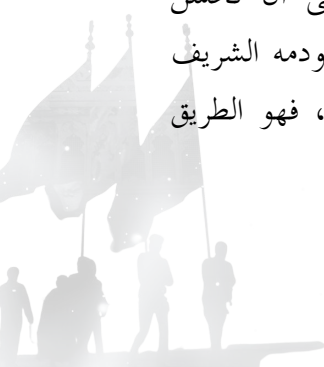
ولذلك، فإنّ هذا الكتاب لا ينطلق من رؤيةٍ تتقف عند حدود العاطفة على جلالها ولا عند حدود السرد التاريخي على أهميته بل يسعى إلى مقاربةٍ تجمع بين النصّ وتحليله، وبين الرواية ودلالاتها، وبين التجربة الروحية وعمقها. إنّه محاولةٌ لقراءة الزيارة الحسينية بوصفها فعلاً معرفياً وروحياً في آنٍ واحد: كيف تتشكّل دلالاتها في ضوء النصوص؟ وكيف تُنفهم لغتها ضمن قواعد البلاغة؟ ثم كيف تُعاش في باطن الإنسان كحالة حضورٍ، ووعيٍ، وتحولٍ؟



وسيجد القارئ في هذه الصفحات المتواضعة الآتية مسارًا متدرجًا مختصرًا: من تصنيف بعض الروايات إلى تحليلها اللغوي والدلالي، إلى فهم أساليبها التحفيزية، ثم إلى استكشاف أبعادها، حيث تتحوّل الزيارة من فعلٍ خارجي إلى حالٍ داخلي، ومن عادةٍ متكرّرة إلى موقفٍ مُلزم. وليس المقصود من هذا المسار أن يضيف معلوماتٍ فحسب، بل أن يُعيد ترتيب العلاقة مع الإمام الحسين عليه السلام: من الإعجاب إلى الاتّباع، ومن الحضور الموسمي إلى الحضور الدائم، ومن الدموع التي تُسكب إلى القيم التي تُبنى.

إنّنا، حين نقف على أعتاب كربلاء، لا نقف أمام ضريحٍ فحسب، بل نقف أمام سؤالٍ مفتوح: ماذا تعني أن تكون مع الإمام الحسين عليه السلام؟ هل هي كلمة تُقال، أم طريقٌ يُسلك؟ هل هي دمعَةٌ عابرة، أم وعيٌ يُغيّر؟ وهل الزيارة نهايةُ الشوق، أم بدايته؟

ومن هنا، كانت هذه المقدّمة دعوةً لأن نقرأ الإمام الحسين صلوات الله عليه قراءةً تُشبهه: قراءةً صادقة، عميقة، مسؤولة؛ تُنصف النص، وتُحسن فهمه، وتُحسن العيش به. فالإمام الحسين عليه السلام لا يحتاج إلى أن نُكثّر الحديث عنه بقدر ما يحتاج إلى أن نُحسن الإصغاء إليه؛ إذ لا تزال كلماته تُقال، ومواقفه تُدرّس، ودمه الشريف يكتب بمداده الخالد: أنّ طريق الحقّ وإن قلّ سالكوه، فهو الطريق الذي يُوصل إلى الله سبحانه وتعالى.





فنسأل الله جل وعلا أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه، نافعًا لعباده،
وأن يرزقنا زيارة الإمام الحسين عليه السلام حضورًا ومعرفةً، وأن
يكتبنا من السائرين على نهجه، العاملين بوصاياه، حتى نلقاه على ما
يحب ويرضى.





مقدمة الكتاب





الحمدُ لله الذي جعل لأوليائه في الأرض آثراً تُهتدى بها، ومواضع تُزار فتُرَكِّي القلوب، وتُعِيد للإنسان وجهته حين تتكاثر عليه الطرق. والحمد له إذ اختصَّ كربلاء بسِرٍّ من أسرارهِ، فغدَت ليست أرضاً تُقصد، بل معنى يُقصد، ومحراباً تتلاقى عنده دموع العاشقين مع وعي العارفين، فتنبثق منهما سيرةٌ حيَّةٌ لا تنطفئ.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطاهرين، سيما سيد الشهداء الإمام أبي عبد الله الحسين (عليه السلام)، الذي به تُقاس المواقف، وعليه تُعرض الضمائر، ومن نهجه يُستضاء السبيل حين تتلبس الفتنة بلباس الحق.

فحين يُذكر الإمام الحسين (عليه السلام)، لا تُستدعى واقعةٌ مؤرَّخة، ولا تُستحضر صفحاتٌ من الماضي فحسب، بل يُستدعى عهدٌ ممتدٌّ بين السماء والأرض؛ عهدٌ صيغ بالدم الطاهر، وحُفظ بمداد الدموع، وتوارثته القلوب جيلاً بعد جيل حتى صار الأربعين موعداً لا تخلفه القلوب قبل الأقدام. هناك، حيث تتقدّم النيات على الخطى، وتسبق الأشواق المسافات، تتكشف حقيقة الزيارة: ليست انتقالاً إلى مكان، بل رجوعٌ إلى الإمام الحسين صلوات الله وسلامه عليه؛ رجوعٌ إلى ميزان الحق الذي أقامه بدمه، واصطفاه في معسكره، وتجديده ببيعةٍ لا تنقطع بمرور الزمن، لأنها بيعَةٌ للحقِّ ذاته.





ومن بين ما ورد عن أهل البيت (عليهم السلام)، يظلّ الحديث الشريف: «من زار الحسين عارفاً بحقه» مفتاحاً تفسيرياً لهذا المشهد كلّهُ، وميزاناً دقيقاً يفرّق بين صورتين: صورةٍ من بلغ الضريح الشريف بقدميه، وصورةٍ من بلغ الإمام الحسين عليه السلام بقلبه ووعيه وولائه.

فـ“المعرفة بحقه” ليست معرفة اسمٍ ونسب، ولا مجرد إقرارٍ تاريخيّ بمظلوميته على جلالته ذلك بل هي وعيٌ مُلزم يُعيد ترتيب الداخل: ولاءٌ واعٍ، وانتماءٌ صادق، وتسليمٌ لمقامٍ جعله الله سبحانه وتعالى حُجَّةً على خلقه، وباباً من أبواب رحمته، وسراجاً لا يخبو لمن أراد أن يرى.

إنّ الإمام الحسين (عليه السلام) ليس ذكرى تُزار ثم تُودّع، بل إمامٌ يُتبع، ونهجٌ يُسلك، وصوتٌ إلهيّ ما زال يدوي في ضمير الأمة: «ألا من ناصرٍ ينصرنا». وهذه الصيحة ليست صدى ماضٍ، بل نداءٌ حاضرٍ يتجدّد كلّما وُجد ظلمٌ يُقاوم، وباطلٌ يُكشَف، وقلبٌ يستيقظ. ومن هنا، فإن زيارة الأربعين ليست مسيراً نحو ضريحٍ فحسب، بل مسيرٌ نحو الموقف؛ نحو أن يكون الزائر حسينياً رسالياً في وعيه، وفي حُلّقه، وفي اصطفاؤه مع الحقّ مهما كلف، بحيث تتحوّل الخطوة إلى شهادة، والتعب إلى قربى، والدمعة إلى بيعة.





وهذا الكتاب، (بحقه عارفاً)، إنما هي محاولة ليُكتب بروح الولاء قبل
حبر الكلمات، وبهمّ الفهم قبل زخرف العبارة؛ ليكون محاولةً للوقوف
على معاني هذه الزيارة في ضوء روايات أهل البيت عليهم السلام، لا
بوصفها خصوصاً تُروى فحسب، بل أنواراً تُهتدى بها، ومفاتيح تُفتح
بها مغاليق الطريق إلى الإمام الحسين صلوات الله وسلامه عليه. فهو
يسعى محاولاً كل جده إلى تقريب معنى “العارف بحقه”؛ ذلك الذي
لا يقف عند حدّ التأثر، بل يتجاوز إلى التحوّل، فيحمل قضيته، ويعيش
همّه، ويجعل من زيارته عهداً متجدّداً مع الله سبحانه وتعالى على
نصرة الحق ورفض الباطل.

وفي ثنايا هذا الكتاب، نقف مع بعض الروايات لا لنحصى أعداد
الثواب، بل لنقرأ تحوّلات الوجدان التي تعدّ بها؛ كيف تُعيد الزيارة
تشكيل الإنسان على ضوء الإمام الحسين (عليه السلام)، وكيف تُنشئ
في داخله توازناً بين العاطفة والوعي، وبين الرجاء والمسؤولية. ونقف
كذلك عند آداب الزيارة، حيث يتجلّى الأدب مع الإمام الحسين عليه
السلام بوصفه امتداداً للأدب مع الله جل وعلا؛ فلا يُقصد وليّ الله إلا
بقلبٍ خاشع، ونيةٍ صادقة، وسلوكٍ يليق بالمقام. ثم نعرّج على
مقدماتها، تلك التهيئة الباطنية والظاهرية التي تجعل من كل خطوة نحو
كربلاء خطوةً نحو الله سبحانه وتعالى، ومن كل مشقّة سلماً للترقيّ،
ومن كل دمعَةٍ ختمًا على وثيقة الولاء.





أما الأربعين، بما تحمله من زحفٍ مليونيّ يتجاوز حدود اللغة والأرقام، فليست ظاهرةً تُفسَّر بالإحصاء، بل سرٌّ من أسرار البقاء الحسيني؛ حيث يثبت الإمام الحسين (عليه السلام) أنّه ما زال حيًّا في القلوب، قائداً للمسيرة، حاضراً في الوعي، وأنّ دمه لم يكن خاتمةً، بل بداية طريقٍ لا ينتهي. هناك تتجلّى وحدة المقصد رغم اختلاف الألسن، وتلتقي الخطى على كلمةٍ واحدة: أنّ الحقَّ يُعرف بالإمام الحسين صلوات الله عليه، وأنّ السير إليه هو سيرٌ إلى الله سبحانه وتعالى.

وهنا ينبثق السؤال الذي لا يليق أن يُوجَل:

هل أنا ممّن زار الإمام الحسين عليه السلام عارفاً بحقه، أم ممّن مرّ به مروراً؟

سؤالٌ لا يُجاب عنه باللسان، بل تُجيب عنه السيرة: في اختيارك حين تستخدم الخيارات، وفي صدقك حين تُغريك المنافع، وفي ثباتك حين تشتدّ الكلفة.

إنّ هذه المقدّمة ليست تمهيداً لكتابٍ فحسب، بل دعوةٌ لقراءة زيارة الإمام الحسين عليه السلام: قراءةٌ صادقة، عميقة، مسؤولة؛ تُنصف النص، وتُحسن فهمه، وتُحسن العيش به. فالإمام الحسين (عليه السلام) لا يحتاج إلى كثرة القول عنه بقدر ما يحتاج إلى صدق الاتّباع، ولا إلى حضورٍ موسميٍّ بقدر ما يحتاج إلى حضورٍ دائمٍ في القرار والموقف.



فنسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه، وأن يرزقنا زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) حضورًا ومعرفةً، وأن يكتبنا من السائرين على نهجه، العاملين بوصاياه، حتى نلقاه ونحن على العهد الذي لا ينقطع: عهد "بحقه عارفاً".





نہجِ نبیؐ





تمهيد الكتاب

في عالمٍ تتكاثر فيه الشعائر، وتتنوّع فيه مظاهر التّعبد، وتشعّب فيه طرائق الاقتراب إلى الله سبحانه وتعالى، تبقى بعض الأعمال على جلالها محتاجةً إلى إعادة اكتشافٍ في باطنها لا في ظاهرها، وإلى إحياء معناها قبل إحياء صورتها.

ذلك لأنّ الخطر لا يكمن في غياب الشعيرة، بل في تحوّلها إلى عادةٍ بلا روح، وإلى حركةٍ بلا وعي، وإلى حضورٍ لا يُنتج أثرًا. ومن بين هذه الشعائر العظيمة، تبرز زيارة الأربعين للإمام الحسين (عليه السلام) بوصفها ظاهرةً دينيةً فريدة، اجتمع فيها الامتداد التاريخي العميق مع الحضور الإنساني المتجدّد، وامتزج فيها الزحف الجماهيري الهائل بشراءٍ روحيٍّ لا ينضب، حتى غدت حدثًا يتجاوز حدود الزمان والمكان، ليكون لغةً عالميةً للانتماء إلى الحق كما يصفها البعض.

غير أنّ هذه الزيارة، على عظمتها الظاهرة، ليست مجرّد انتقال جسدٍ نحو كربلاء، ولا مجرّد التقاءٍ في زمانٍ مخصوص، بل هي في حقيقتها مسارٌ معرفيٌّ ووجوديٌّ، يُمتحن فيه الإنسان بقدر ما يحمل من وعي، ويُقاس فيه بميزان ما يختزن من إدراكٍ لجوهر القضية الحسينية. فليست الخطى وحدها هي التي تُقَرَّب، بل البصيرة هي التي تُوصِل، وليست المسافة هي المعيار، بل المعنى هو المعيار.



وهنا يتجلى المفتاح الذي انطلقت منه فكرة هذا الكتاب، والمتمثل في الحديث الشريف: من زاره عارفاً بحقه ... حيث تُنزع عن الزيارة قيمتها الحقيقية إن هي انفصلت عن المعرفة، ويُعاد تأسيسها على قاعدة واحدة: أن تكون زيارةً واعيةً بالحق الذي لأجله قام الإمام الحسين (عليه السلام).

إنّ هذا القيد الوارد في الرواية (عارفاً بحقه) ليس تفصيلاً عابراً يمكن تجاوزه، بل هو لبّ القضية ومحورها، إذ ينقل الزيارة من كونها فعلاً طقوسياً إلى كونها موقفاً عقائدياً، ووعياً رسالياً، ومسؤوليةً عمليةً لا تقف عند حدود اللحظة، بل تمتدّ لتعيد تشكيل الإنسان في مسيرته كلّها. فالمعرفة هنا ليست معلومة تُحفظ، بل بوصلةٌ تُحدّد الاتجاه، وليست إدراكاً نظرياً، بل انحيازٌ عمليّ يظهر في السلوك، ويُختبر في المواقف، ويتجلى حين تتعارض المصالح مع المبادئ.

ومن هنا، فإنّ هذا الكتاب لا يقف عند توصيف الزيارة بوصفها شعيرةً عظيمةً فحسب، بل يسعى في محاولة إلى الغوص في أعماقها، كاشفاً عن أبعادها المتعدّدة، ومحاولاً الإجابة عن السؤال الجوهرى الذي يفرض نفسه بالبحاح: ما هو "حقّ الحسين عليه السلام" الذي ينبغي أن نعرفه؟ أهو حقٌّ تاريخيٌّ يُقرّ به العقل؟ أم حقٌّ عقائديٌّ يُسلّم به القلب؟ أم حقٌّ رساليٌّ يُترجم في الواقع؟ أم هو مجموع ذلك كلّ في صورةٍ واحدةٍ متكاملة؟



ينطلق هذا الجهد المتواضع أمام عظمة المسألة بوصفه محاولةً للوقوف على الجذور التأصيلية لزيارة الأربعين، مستعرضًا امتدادها في التراث الشيعي، ومكانتها في الوعي الجمعي، ثم ينتقل إلى استحضار شخصية الإمام الحسين (عليه السلام) لا بوصفه رمزًا تاريخيًا فحسب، بل بوصفه صاحب مشروعٍ إلهيٍّ إصلاحيّ لا ينحصر في زمنٍ ولا في جغرافيا، بل يمتدّ ليكون خطابًا دائمًا للإنسان حيثما كان. وبعد ذلك، يتناول نصّ الرواية محلّ البحث، تحليلًا وتوثيقًا وشرحًا، ليؤسّس أرضيةً علميةً رصينةً لفهمها، تجمع بين المنهجية والعمق الدلالي بحسب ما نوفق إليه ببركة الحسين صلوات الله وسلامه عليه.

غير أنّ القلب النابض لهذا الكتاب يتمركز في تفكيك مفهوم “الحق” إلى مستوياته المتعدّدة:

- مستوى عقائديّ يرتبط بالإمامة والولاية،
- ومستوى رساليّ يتّصل بأهداف النهضة الحسينية،
- ومستوى معرفيّ يُعيد بناء الوعي،
- ومستوى عمليّ يُترجم هذا الوعي إلى التزام وسلوك.

وذلك في محاولةٍ واعيةٍ لردم الفجوة بين المعرفة والعمل، وبين الإدراك والالتزام، بحيث لا تبقى الزيارة تجربةً وجدانيةً عابرة، بل تتحوّل إلى منهج حياة.





كما يتناول الكتاب الفارق الدقيق بين الزيارة الشكلية التي تقف عند حدود الأداء، والزيارة الواعية التي تُعيد تشكيل الإنسان، لِيُبين كيف يمكن للشعيرة أن تتحوّل من عادةٍ متكرّرة إلى تجربةٍ تغييرٍ حقيقية، تُبدّل في الداخل قبل الخارج، وتُعيد ترتيب القيم قبل أن تُضيف إلى الرصيد العاطفي.

ويمتدّ البحث ليشمل الأبعاد الروحية العميقة لهذه الزيارة، حيث تتجلى المعاناة الجسدية بوصفها جسراً إلى السموّ الروحي، ويتحوّل التعب إلى قربى، والمسير إلى مجاهدة، والدمعة إلى شهادة انتماء. كما يقف عند أبعادها الاجتماعية والإنسانية، تلك التي جعلت من الأربعين ظاهرةً عالميةً فريدة، تتجلى فيها قيم التكافل، والتضامن، ووحدة المقصد، بحيث يغدو الطريق إلى كربلاء مدرسةً حيّةً للأخلاق قبل أن يكون طريقاً للزيارة.

ثم يحاول هذا الكتاب أن يقرأ مفهوم “عارفاً بحقه” في ظلّ التحدّيات الفكرية المعاصرة، حيث تتداخل المفاهيم، بل وتُغلط وتستبدل تعمداً للتضليل في الوعي العام، وتتعدّد القراءات، ليصل إلى بيان الثمرات التي يجنيها الزائر كما في الروايات الشريفة حين تتحقّق فيه هذه المعرفة: ثمراتٍ في الوعي، وفي السلوك، وفي القدرة على التمييز، وفي الثبات على الحق.





إنّ هذا الكتاب ليس عرضٍ علمي، بل هو دعوةٌ واعيةٌ وعميقةٌ لإعادة النظر في علاقتنا بالإمام الحسين (عليه السلام)، لا بوصفه ذكرى تُستحضر في موسم، بل بوصفه قيمةً تُعاش، ومشروعاً يُتبع، ومنهجاً يُحتكم إليه في لحظات الاختبار.

دعوةٌ إلى أن نرتقي بزيارتنا:
من الحضور الجسدي إلى الحضور الواعي،
ومن الانفعال العاطفي إلى الالتزام الرسالي،
ومن العادة إلى التحوّل.

فليس المقصود أن نزور الإمام الحسين عليه السلام فحسب...
بل أن نصل إليه،
وليس أن نصل إليه جسداً...
بل أن نصل إليه فهماً، وولاءً، وسلوكاً.

وهنا عند هذا الحدّ الفاصل بين الشكل والجوهر يبدأ الطريق الحقيقي:
أن تزوره... عارفاً بحقه..



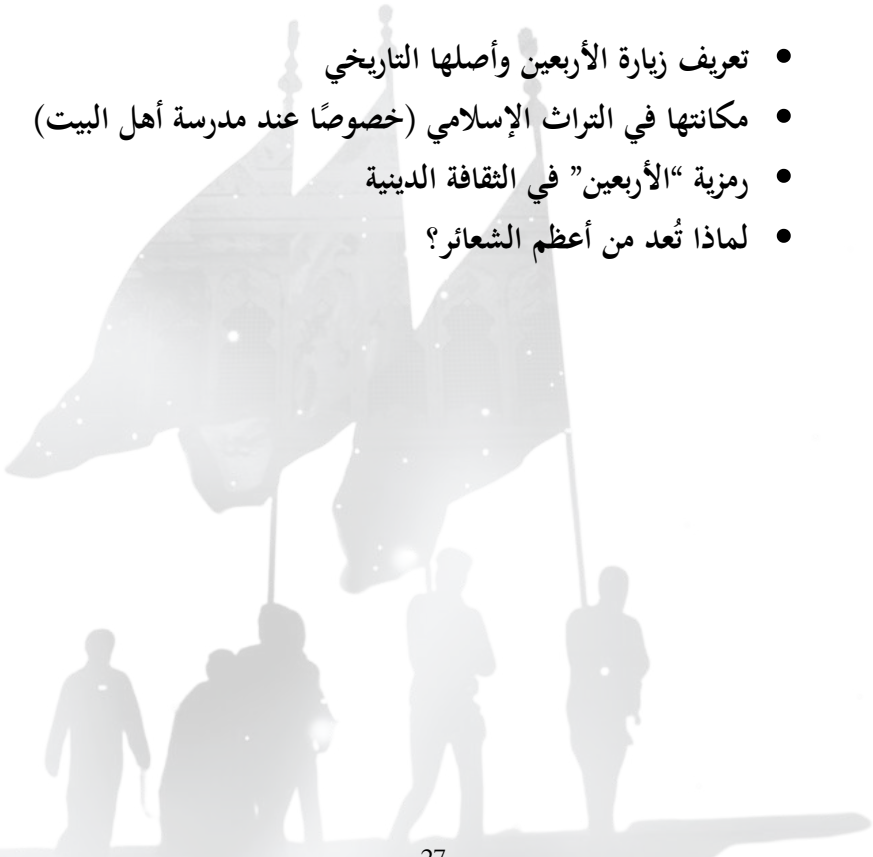


المكحول الأول



مدخل إلى زيارة الأربعين

- تعريف زيارة الأربعين وأصلها التاريخي
- مكانتها في التراث الإسلامي (خصوصًا عند مدرسة أهل البيت)
- رمزية “الأربعين” في الثقافة الدينية
- لماذا تُعد من أعظم الشعائر؟





مقدمة المحور الأول

حين يُذكر الإمام الحسين عليه السلام، يُفتح أفقٌ ممتدٌ من المعنى، تتقاطع فيه العقيدة مع الوجدان، ويتعانق فيه التاريخ مع الحاضر، ويمتزج فيه الدم بالرسالة امتزاجاً لا ينفصم. فالإمام الحسين عليه السلام ليس لحظةً زمنيةً عابرة، بل هو حقيقةٌ ممتدة، ومعيّارٌ تُقاس به المواقف، وميزانٌ تُوزن به القيم، بحيث يصبح ذكره استدعاءً لوعيٍ كامل، لا لمعلومةٍ مجردة، واستنهاضاً لضميرٍ حيٍّ، لا لمجرد عاطفةٍ مؤقتة.

ومن بين أبرز تجليات هذا الامتداد الحيّ، تبرز زيارة الأربعين بوصفها ظاهرةً تتجاوز حدود الزمان والمكان، لتغدو مشهداً إنسانياً مركّباً، يلتقي فيه التاريخ بالعقيدة، والذاكرة بالفعل، والولاء بالسلوك.

فهي ليست مجرد تجمعٍ بشريٍّ هائل، ولا مسيرٍ طويلٍ تُقاس عظمتُهُ بالأعداد، بل هي لغةٌ حيّةٌ للوفاء، وبيانٌ عمليٌّ لانتماءٍ لا يخبو، تتجدد فيه البيعة للإمام الحسين عليه السلام لا بوصفه شهيداً يُكى عليه فحسب، بل بوصفه إماماً يُتبع، ونهجاً يُسلك، وقضيةً تُعاش.





إنّ هذا الحضور المليونى المتدفّق نحو كربلاء المقدسة، على امتداد الطرق، ليس ظاهرةً يمكن تفسيرها بمقاييس الاجتماع وحدها، ولا بمفاهيم الحشد الجماهيري المألوفة، بل هو تعبيرٌ عن قوّة الجذب المعنوي التي يمارسها الإمام الحسين (عليه السلام) في عمق الوجدان الإنساني، حيث تتحوّل الخطوة إلى معنى، والتعب إلى قربى، والمسير إلى موقف. هناك، في تلك الرحلة التي تبدأ من قرارٍ داخلي قبل أن تبدأ من موضعٍ خارجي، يتكشف أنّ الزيارة ليست انتقالاً في المكان، بل تحوّل في الإنسان.

ومن هنا، فإنّ زيارة الأربعين لا يمكن قراءتها قراءةً سطحية تقف عند ظاهرها، بل تحتاج إلى وعيٍ ينفذ إلى باطنها، ليدرك أنّها ليست مجرد تذكيرٍ بالمأساة، بل إحياءٍ للرسالة التي استشهد من أجلها الإمام الحسين (عليه السلام). فهي تجديدٌ للعهد مع القيم التي خرج لأجلها: إقامة الحق، ومواجهة الباطل، وإحياء الضمير الإنساني حين يوشك أن يخبو تحت وطأة المصالح والانحرافات.

ولعلّ سرّ خلود هذه الزيارة واستمرارها، يكمن في أنّها لم تُحصر في إطارٍ شعائريٍّ جامد، بل بقيت مفتوحةً على الأبعاد المعرفية والروحية والاجتماعية، بحيث يجد فيها كلّ إنسانٍ طريقاً إلى نفسه، وفرصةً لإعادة تعريف موقعه من الحق. فهي في آنٍ واحد: تجربةٌ روحية تُطهّر القلب، ومدرسةٌ أخلاقية تُهدّب السلوك، ومنبرٌ عمليٌّ يُجسّد قيم العطاء والتكافل والوحدة، كما أنّها عبادة يتقرب بها العبد أولاً وبالذات وإنما ما يأتي هو آثار العرض.



غير أنّ هذا كلّهُ، على عظمتِهِ، يضع أمام الإنسان سؤالاً لا يمكن تجاوزه:

هل أنا حاضرٌ في هذه الزيارة حضوراً حقيقياً، أم مجرد جزءٍ من مشهدها الخارجي؟

وهل ارتبطتُ بالإمام الحسين (عليه السلام) ارتباطاً واعياً يُترجم في موقفِي وسلوكِي، أم أنّه ارتباطٌ عاطفيٌّ ينتهي بانتهاء الموسم؟

إنّ الإجابة عن هذا السؤال هي التي تُحدّد قيمة الزيارة، وهي التي تنقلها من كونها حدثاً يُعاش إلى كونها تحوُّلاً يُحدث، ومن كونها ذكرى تُستحضر إلى كونها مشروعاً يُبنى. فالإمام الحسين (عليه السلام) لا يُراد له أن يبقى في حدود الذاكرة، بل أن ينتقل إلى دائرة التأثير، حيث يصبح معياراً في القرار، ونبراساً في الطريق، وصوتاً يُذكر الإنسان، كلّما تردّد، بأنّ الحقَّ يُعرف، وأنّ له ثمناً، وأنّ الوقوف معه هو جوهر الانتماء الحقيقي.

ومن هنا، تأتي هذه المقدّمة بوصفها مدخلاً لفهم هذه الظاهرة في عمقها، لا في ظاهرها، ودعوةً لإعادة قراءة زيارة الأربعين قراءةً تُنصف معناها، وتُعيد وصلها بجذورها الرسالية، لتكون كما أرادها الإمام الحسين (عليه السلام) طريقاً إلى الله سبحانه وتعالى عبر الوعي، لا عبر العادة، وعبر الالتزام، لا عبر الانفعال العابر.



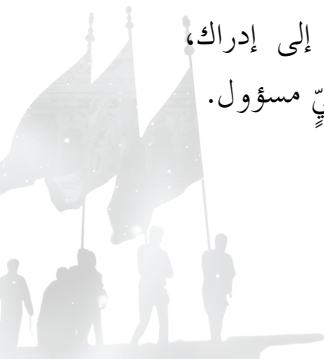


اولاً: تعريف زيارة الأربعين وأصلها التاريخي

زيارة الأربعين، في ظاهرها القريب، هي التوجّه إلى مرقد الإمام الحسين (عليه السلام) في اليوم العشرين من شهر صفر، أي بعد مرور أربعين يوماً على واقعة عاشوراء الأليمة.

غير أنّ هذا التعريف على بساطته لا يحيط بحقيقة هذا الحدث، ولا يكشف عن عمقه المركّب؛ إذ إنّ “الأربعين” هنا لا يُفهم بوصفه رقماً زمنياً جامداً، بل بوصفه محطةً زمنيةً ذات دلالةٍ رمزيةٍ وروحية، تستعيد فيها الأمة الحدث لا كتاريخٍ مضى، بل كقضيةٍ حاضرة، وكأنّ الذاكرة الإسلامية، عبر هذا التوقيت، تعيد بناء كربلاء في الضمير، وتستحضرها بوصفها واقعةً حيّةً لا تنطفئ بكل دروسها وعبرها ومواقفها.

من جهة العدد “أربعون” في الوجدان الديني ليس عدداً عابراً، بل هو رقمٌ يرتبط في الثقافة القرآنية والروحية بمراحل الاكتمال والنضج والتحوّل؛ ومن هنا، فإن بلوغ كربلاء يومها الأربعين يُمثّل انتقالاً من الصدمة إلى الوعي، ومن الحزن إلى الرسالة، ومن الفاجعة إلى الموقف. إنّ الزمن الذي تتكتّف فيه الذكرى لتتحوّل إلى إدراك، ويتحوّل الألم فيه من مجرد انفعالٍ وجداني إلى وعيٍ رساليٍّ مسؤول.





أما من حيث الأصل التاريخي، فقد ارتبطت زيارة الأربعين ببدايات مبكرة تعود إلى صدر الإسلام، حيث تُشير الروايات إلى أنّ الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري رضوان الله تعالى عليه كان أوّل من قصد قبر الإمام الحسين (عليه السلام) في هذا اليوم، قادمًا من المدينة المنورة، وقد أثقله العمر، وأضعف بصره، لكن لم تُضعف بصيرته، فقادته روحه إلى كربلاء، لا ليؤدّي زيارةً عابرة، بل ليعلن موقفًا، ويُسجّل شهادة حضورٍ في أوّل مشهدٍ من مشاهد الوفاء بعد الفاجعة. وكل ذلك يتزامن مع وصول الركب الحسيني في هذا اليوم المعهود.

وتنقل المصادر أنّ جابر رضوان الله تعالى عليه، حين بلغ أرض كربلاء، وقف عند القبر الشريف، وخطب الإمام الحسين (عليه السلام) خطاب العارفين، مستحضراً عظمة المصاب، ومؤكّداً استمرار العهد، ليكون بذلك نواةً أولى لتحويل الزيارة من ردّة فعلٍ عاطفية إلى شعيرة ذات مضمونٍ واعٍ.

ولم تكن هذه المبادرة فعلاً فردياً معزولاً، بل كانت تعبيراً عن وعيٍ مبكّرٍ بأنّ كربلاء لا ينبغي أن تُترك للنسيان، بل يجب أن تُستعاد وتُزار وتُحيى، وهذا من ضمن أهداف إصرار الركب الحسيني على المرور بكربلاء في هذا اليوم التأسيسي.





كما تُروى في سياق الأصل التاريخي عودة سبايا أهل البيت (عليهم السلام) إلى كربلاء في يوم الأربعاء، بعد رحلة الألم من كربلاء إلى الكوفة فالشام، ثم العودة. وهذه العودة تحمل دلالة عميقة، إذ تمثل اكتمال دائرة الحدث:

من المأساة إلى الشهادة، ومن الأسر إلى الوعي، ومن الألم إلى إعادة تثبيت القضية في الوجدان.

فوجود أهل البيت (عليهم السلام) في كربلاء في هذا اليوم بحسب هذه الروايات الشريفة ليس مجرد عودة جغرافية، بل هو إعادة تقديم للرسالة، وترسيخ لمعنى أنّ الإمام الحسين (عليه السلام) لم يُقتل ليُنسى، بل ليُحيا في ضمير الأمة.

ومن هنا، يمكن القول إنّ زيارة الأربعين لم تكن وليدة تطوّر شعائريّ لاحق، ولا نتاج تراكم تاريخيّ منفصل عن أصل الحدث، بل هي امتداد طبيعيّ لنبض كربلاء نفسها؛ إذ ما إن وقعت الفاجعة حتى بدأ مسار الزيارة، وكأنّ الإمام الحسين (عليه السلام) استشهد ليُزار، لا بمعنى الزيارة الشكلية، بل بمعنى أن يبقى محورًا للحركة والوعي والانتماء والرسالة الرسالية.





وهكذا، تحوّلت الأربعين عبر هذا الامتداد من مجرد توقيتٍ زمني إلى رمزٍ متجدّدٍ للوفاء، ومن ذكرى تُستحضر إلى موقفٍ يُعاد إنتاجه في كل جيل، حيث يتلاقى الزائر مع الإمام الحسين (عليه السلام) لا عند حدود القبر الشريف، بل عند حدود القضية.

هناك، لا يكون الحزن غاية، بل بداية، ولا تكون الزيارة نهاية، بل عهدًا مفتوحًا يربط الماضي بالحاضر، ويجعل من كل خطوة نحو كربلاء خطوةً نحو تثبيت الحق، وإحياء الرسالة، وتجديد الانتماء.

ثانيًا: مكانتها في التراث الإسلامي (خصوصًا عند مدرسة أهل البيت صلوات الله وسلامه عليهم)

في مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)، لا تُقاس الأعمال بظواهرها ولا بكثرتها، بل بعمقها الدلالي، وبما تخزنه من وعيٍ، وبما تُنتجه من أثرٍ في النفس والمجتمع. ومن هذا المنطلق، لم تكن زيارة الأربعين مجرد شعيرةٍ تُمارَس، بل علامةً كاشفةً عن هويةٍ إيمانيةٍ متجدّرة، ولهذا حازت منزلةً رفيعةً في النصوص الروائية، حتى بلغت حدًّا أن تُدرج ضمن معايير تعريف المؤمن.





فقد ورد في الحديث الشريف عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام: علامات المؤمن خمس: صلاة الإحدى والخمسين، وزيارة الأربعين...، وهو نصٌّ لا يضع الزيارة في سياق الاستحباب العابر، ولا يقدّمها بوصفها عملاً إضافياً يمكن الاستغناء عنه، بل يربطها ببنية الهوية الإيمانية نفسها، حتى لتغدو تعبيراً عملياً عن الانتماء، ومؤشراً على الارتباط الواعي الرسالي بخطّ الإمام الحسين (عليه السلام).

إنّ إدراج زيارة الأربعين ضمن "علامات المؤمن" يكشف عن بُعدٍ عميق في فهم الشعائر؛ إذ تتحوّل من أفعالٍ منفصلة إلى رموزٍ دالة، تحمل في طيّاتها منظومةً من القيم والمواقف. فليست العلامة هنا شكلاً، بل دلالة: دلالة على الوعي، وعلى الولاء، وعلى الاستعداد لتحمل تبعات هذا الولاء في واقع الحياة. ومن هنا، فإنّ زيارة الأربعين في هذا السياق ليست حدثاً موسميّاً، بل امتداداً مستمرّاً للانتماء الحسيني بل واستكمالاً للنهضة المباركة.

ولقد تعاطى أئمة أهل البيت (عليهم السلام) مع زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) عموماً وزيارة الأربعين خصوصاً بوصفها أداةً لحفظ الرسالة من الذوبان، في أزمنةٍ اشتدّت فيها محاولات التعتيم على واقعة كربلاء، وطمس معالمها، وإفراغها من مضمونها الرسالي. فكانت الزيارة، في هذا الإطار، ليست مجرد تعبيرٍ عن الحزن، بل فعلٌ مقاومةٍ ثقافيةٍ وروحيةٍ ورسالية، يُبقي القضية حيّةً، ويمنعها من التحوّل إلى مجرد ذكرى باهتة في صفحات التاريخ، أو كشعيرة ظاهرية.



ومن هنا، تكاثرت النصوص التي تحتّ على زيارة الإمام الحسين (عليه السلام)، وتؤكد فضلها، وتربطها بالثواب العظيم، لكنّ هذا الثواب في حقيقته لا يُراد به مجرّد الترغيب، بل يُراد به إبراز خطورة الدور الذي تؤدّيه الزيارة في بناء الوعي الجماعي. فهي ليست عبادةً فرديةً تنتهي بانتهاء فعلها، بل هي موقفٌ جماعيّ يعيد إنتاج الوعي الحسيني في كل جيل، ويُرسّخ في الأمة قيمًا أساسية: كرفض الظلم، ونصرة الحق، والثبات على المبدأ.

إنّ الزيارة بهذا المعنى تتحوّل إلى ذاكرةٍ حيّةٍ متجدّدة، تُقاوم النسيان، وتُحافظ على نقاء القضية، وتمنعها من التشويه أو التوظيف المنحرف. فهي لا تُعيد استحضار الحدث فحسب، بل تُعيد صياغة الإنسان على ضوء الحدث، بحيث يصبح الإمام الحسين (عليه السلام) معيارًا حيًا في الضمير، لا مجرّد شخصيةٍ تاريخية.

ولهذا، لم يكن تأكيد الأئمة (عليهم السلام) على الزيارة مجرّد توجيهٍ تعبّدي، بل كان استراتيجيةً تربويّةً واعية، تهدف إلى بناء إنسانٍ حسينيٍّ في وعيه، وفي موقفه، وفي سلوكه. إنسانٍ لا يكتفي بالبكاء على الإمام الحسين عليه السلام، بل يحمل قضيته، ويجعل من زيارته عهدًا دائمًا مع الله سبحانه وتعالى على أن يكون حيث يكون الحق، وأن يقف حيث وقف الإمام الحسين (عليه السلام).





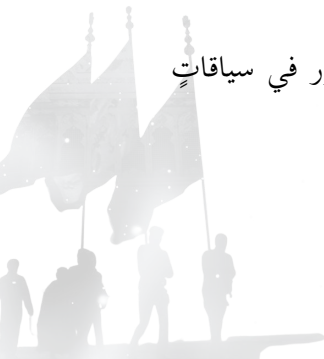
وعليه، فإنّ مكانة زيارة الأربعين في التراث الإسلامي في مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) لا يمكن فهمها بمعزلٍ عن هذا البعد الرسالي العميق؛ فهي ليست مجرد شعيرة من شعائر الذكر، بل ركنٌ من أركان الوعي الحسيني، وعلامةٌ على حياة القلب، واستمراؤه للعهد الذي بدأ في كربلاء، ولا يزال يتجدّد في كلّ أربعين، وفي كلّ قلبٍ يعرف الإمام الحسين صلوات الله عليه... فيسير إليه، عارفاً بحقه.

ثالثاً: رمزية “الأربعين” في الثقافة الدينية

إنّ التأمّل في رمزية العدد “أربعين” في الثقافة الدينية لا يقف عند حدود التكرار العددي في النصوص، بل يتجاوز ذلك إلى الكشف عن نسقٍ معنويٍّ عميق، يكاد يشكّل قانوناً من قوانين التحوّل الروحي والوجودي في التجربة الإنسانية المؤمنة.

فالأربعون، في الوعي الديني، ليست رقماً عابراً، بل هي زمنٌ مكتمل الدائرة، تُختتم فيه مرحلة، وتُفتح على إثره مرحلة أخرى أكثر رسوخاً ونضجاً ووعياً.

وحين نُقارب هذا العدد في النص القرآني، نجد أنّه يتكرّر في سياقاتٍ تشير إلى بلوغ الغاية بعد مسارٍ من التهيئة والتدرّج.





فموسى (عليه السلام) يُواعد ربّه أربعين ليلة، لا بوصفها مدّة زمنية محايدة، بل باعتبارها زمن التخلّي عن شواغل الأرض، والتجرّد للقاء السماء، حتى تنهّأ النفس لتحمل ثقل الرسالة. وكذلك الإنسان، حين يبلغ الأربعين من عمره، كما تشير الآية الكريمة، يكون قد بلغ أشدّه واكتملت قواه العقلية والنفسية، وكأنّ الأربعين هنا تمثّل ذروة النضج الإنساني، حيث تتقاطع التجربة مع الحكمة، ويهدأ اندفاع الشباب ليُفسح المجال لبصيرة أكثر توازنًا وعمقًا.

هذا الامتداد الرمزي للعدد “أربعين” يُهيئ الذهن لفهم حضوره في السياق الحسيني، لا كعادة شعائرية فحسب، بل كدلالة زمنية على اكتمال الوعي بالمأساة وتحولها من حدثٍ تاريخي إلى مشروعٍ رسالي. فالفاجعة في لحظتها الأولى تكون صدمةً عنيفة، تزلزل الوجدان، وتغمر النفس بحالة من الانكسار والذهول، حيث يطغى الألم على القدرة على الفهم، ويغلب التأثير العاطفي على التحليل الواعي. غير أنّ الزمن، حين يمتدّ أربعين يومًا، لا يمرّ مرورًا عابرًا، بل يعمل في عمق النفس، فيحوّل الانفعال إلى تأمل، والدمعة إلى فكرة، واللوعة إلى موقف.

وهنا تتجلّى عظمة “الأربعين الحسيني” بوصفه لحظة انتقال نوعي في الوعي الجمعي للأمة. فبعد أربعين يومًا من عاشوراء، لم تعد كربلاء مجرد واقعةٍ مأساوية تُستحضر للبكاء، بل تحوّلت إلى قضية تُفهم، وتُحلّل، وتُستثمر في بناء الموقف.



إنّها النقطة التي يبدأ فيها الدم الحسيني الشريف بالتحوّل إلى خطاب، ويغدو الألم مدرسة، وتحوّل التضحية إلى معيارٍ يُقاس به الحق والباطل.

ولعلّ من أعمق ما يُفهم في هذا السياق أنّ الأربعين يمثّل زمن “استقرار المعنى” بعد اضطرابه. ففي الأيام الأولى، يكون الحدث أكبر من قدرة الوعي على استيعابه، فتشتت الدلالات، وتبقى الصورة مكسورة في الذهن. أمّا بعد مرور أربعين يومًا، فإنّ تلك الصورة تبدأ بالالتئام، وتتجمّع أجزاؤها لتُنتج رؤيةً متكاملة، تُدرك من خلالها الأمة أنّ ما جرى في كربلاء لم يكن حادثةً عابرة، بل كان مشروعًا إلهيًا لإحياء الدين، وإعادة تعريف العلاقة بين الإنسان والحق.

ومن هنا، فإنّ زيارة الأربعين تكتسب معناها العميق بوصفها فعل وعيٍ لا مجرد طقس. فالزائر، وهو يشقّ طريقه نحو قبر الإمام الحسين (عليه السلام)، لا يذهب ليستعيد الحزن في صورته المجردة، بل ليعلن أنّه قد عبر مرحلة الانفعال إلى مرحلة الالتزام؛ أنّه لم يعد متلقّيًا للمأساة، بل صار شريكًا في حمل رسالتها. إنّها زيارة تُعبّر عن نضج العلاقة مع الإمام الحسين صلوات الله عليه، حيث يتحوّل الحبّ إلى وعي، والولاء إلى موقف، والدмعة إلى عهد.





وفي هذا الإطار، يمكن القول إنّ الأربعين الحسيني هو “زمن التأسيس الثاني” لكربلاء؛ فالتأسيس الأول كان بالدم في عاشوراء، أمّا التأسيس الثاني فهو بالوعي في الأربعين.

وإذا كان الإمام الحسين (عليه السلام) قد خطّ بدمه معالم النهضة، فإنّ الأربعين هو اللحظة التي تُقرأ فيها هذه المعالم قراءةً واعية، فتتحوّل من حدثٍ ماضٍ إلى مشروعٍ مستمر.

وهكذا، لا يعود الأربعين مجرد محطةٍ زمنية، بل يصبح مقياساً لعمق التفاعل مع القضية الحسينية.

فكلّما كان الوعي أكثر نضجاً، كانت زيارة الأربعين أكثر صدقاً، وأقرب إلى روحها الحقيقية.

إنّها ليست نهاية الحزن، بل بدايته الواعية؛ وليست ختام الذكرى، بل افتتاح المسيرة. وفي هذا يكمن سرّ خلودها، وسرّ قدرتها على أن تبقى حيّةً في ضمير الأمة، جيلاً بعد جيل، بوصفها لحظة التحوّل من الألم إلى الرسالة، ومن الفاجعة إلى النهضة.





رابعًا: لماذا تُعد من أعظم الشعائر؟

ليست زيارة الأربعين مجرد موعدٍ زمنيٍّ يتكرّر في الذاكرة، ولا هي حركة أقدامٍ نحو قبرٍ شريفٍ فحسب، بل هي في عمقها استجابةٌ لنداءٍ ممتدٍّ من قلب الطفِّ إلى ضمير الإنسان عبر العصور.

إنّها لحظة التقاءٍ بين التاريخ والعقيدة، بين الألم والوعي، بين الدمة والبصيرة. ولهذا كانت من أعظم الشعائر، لأنّها لا تُختزل في فعلٍ تعبديٍّ محدود، بل تتسع لتكون مشروعًا روحيًا وحضاريًا متكاملًا.

حين نقف عند الأربعين، فإنّنا لا نقف عند رقمٍ عابر، بل عند اكتمال دورة الألم في الوجدان الإنساني. الأربعون في الوعي الديني تمثّل نضج الحزن وتحويله من انفعالٍ عاطفيٍّ إلى موقفٍ رساليٍّ واعٍ. وكأنّ دم الإمام الحسين (عليه السلام) لم يُرد أن يبقى صرخةً لحظةً، بل أراد أن يتحوّل إلى وعيٍّ دائم، إلى عهدٍ يُستعاد كلّ عام.

ومن هنا، تصبح زيارة الأربعين إعلانًا متجددًا بأنّ تلك الفاجعة لم تنته، لأنّ رسالتها لم تُستوفَ بعد في واقع البشر.

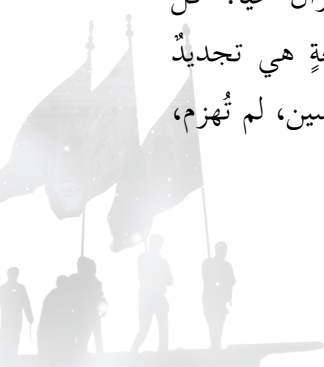




ثم إنّ هذه الزيارة ليست مجرد تذكّر لمظلوميّة، بل هي إعادة تموضع أخلاقيّ. الزائر لا يأتي ليبكي فقط، بل ليحدّد موقعه: مع من يقف؟ مع الإمام الحسين عليه السلام أم مع قتلته؟ وهنا تكمن الخطورة والعظمة معاً؛ لأنّ الزيارة تُحوّل التاريخ إلى سؤالٍ حاضر، وتجعل من كلّ إنسانٍ معنيّاً بالإجابة. ولهذا كانت من أعظم الشعائر، لأنّها تُخرج الإنسان من حيّاه القتال، وتدفعه إلى الانحياز الواعي للحقّ.

وفي بعدها الاجتماعيّ، تتجلّى الأربعين كأعظم مشهدٍ للوحدة الإيمانية الحيّة. ملايين القلوب تسير، لا بدافع القهر، بل بدافع الحبّ والولاء. لا لغة تجمعهم، ولا قوميّة توحدهم، ولا مصلحة دنيويّة تحرّكهم، ومع ذلك يسرون كأنّهم جسدٌ واحد. إنّها صورة نادرة في التاريخ الإنسانيّ، حيث تتحوّل العقيدة إلى طاقة حركة، ويتحوّل الحبّ إلى نظام اجتماعيّ متكامل. هنا، لا تُقاس الشعيرة بعدد المشاركين فقط، بل بقدرتها على صناعة هذا النسيج الروحيّ العجيب.

ومن جهةٍ أعمق، فإنّ زيارة الأربعين تُعيد إحياء فلسفة الشهادة نفسها. فالإمام الحسين (عليه السلام) لم يخرج ليُقتل، بل خرج ليُحيي. وزيارته في الأربعين تعني أنّ مشروع الإحياء هذا ما زال حيّاً. كلّ خطوةٍ نحو كربلاء هي امتدادٌ لتلك النهضة، وكلّ دمةٍ هي تجديدٌ لذلك العهد. وكأنّ الزائر يقول بقدمه قبل لسانه: “يا حسين، لم تُهزم، لأنّنا ما زلنا نسير”.





ولا يمكن إغفال البُعد التربوي العميق لهذه الشعيرة. فالمسير إلى الإمام الحسين عليه السلام مدرسةٌ مفتوحة، يتعلّم فيها الإنسان الصبر، والتضحية، وخدمة الآخرين، والتواضع، والانضباط. إنّه تدريبٌ عمليٌّ على القيم التي نادى بها الإمام الحسين (عليه السلام).

ولهذا، فإنّ الأربعين لا تُنتج زائراً فقط، بل تُنتج إنساناً مختلّفاً، إنساناً أقرب إلى المعنى الذي أراده الله سبحانه وتعالى للإنسان.

ثمّ تأتي الخصوصية الروائية التي جعلت هذه الزيارة علامةً فارقة في هوية المؤمن. فقد ورد عن الأئمة (عليهم السلام) أنّ زيارة الأربعين من علامات المؤمن، وهذا وحده كافٍ ليكشف عن عمق موقعها في البناء العقدي. إنّها ليست مستحبّاً عابراً، بل هي علامة انتماء، بصمة هوية، تعبيرٌ عن الارتباط الحيّ بخطّ الإمامة.

وإذا أردنا أن نلخص سرّ عظمتها، فإنّه يكمن في كونها تجمع بين البكاء والفهم، بين العاطفة والالتزام، بين الفرد والمجتمع، بين الماضي والحاضر. إنّها شعيرة تُخاطب كلّ طبقات الإنسان: قلبه وعقله وسلوكه. ولهذا بقيت حيّة، بل متنامية، رغم كلّ محاولات الطمس والمنع.





ولا يمكن إغفال البُعد التربوي العميق لهذه الشعيرة. فالمسير إلى الإمام الحسين عليه السلام مدرسةٌ مفتوحة، يتعلّم فيها الإنسان الصبر، والتضحية، وخدمة الآخرين، والتواضع، والانضباط. إنّه تدريبٌ عمليٌّ على القيم التي نادى بها الإمام الحسين (عليه السلام). ولهذا، فإنّ الأربعين لا تُنتج زائرًا فقط، بل تُنتج إنسانًا مختلفًا، إنسانًا أقرب إلى المعنى الذي أراده الله سبحانه وتعالى للإنسان.

ثم تأتي الخصوصية الروائية التي جعلت هذه الزيارة علامةً فارقة في هوية المؤمن. فقد ورد عن الأئمة (عليهم السلام) أنّ زيارة الأربعين من علامات المؤمن، وهذا وحده كافٍ ليكشف عن عمق موقعها في البناء العقدي. إنّها ليست مستحبةً عابرةً، بل هي علامة انتماء، بصمة هوية، تعبيرٌ عن الارتباط الحيّ بخطّ الإمامة.

وإذا أردنا أن نلخص سرّ عظمتها، فإنّه يكمن في كونها تجمع بين البكاء والفهم، بين العاطفة والالتزام، بين الفرد والمجتمع، بين الماضي والحاضر. إنّها شعيرة تُخاطب كلّ طبقات الإنسان: قلبه وعقله وسلوكه. ولهذا بقيت حيّة، بل متنامية، رغم كلّ محاولات الطمس والمنع.

إنّ زيارة الأربعين ليست طريقًا إلى كربلاء فقط، بل هي طريقٌ إلى إعادة اكتشاف الذات، إلى إعادة تعريف العلاقة مع الحقّ، إلى إعادة كتابة الموقف من الحياة. ومن هنا، كانت من أعظم الشعائر، لأنّها لا تُحيي ذكرى الإمام الحسين (عليه السلام) فحسب، بل تُحيي الإنسان نفسه.

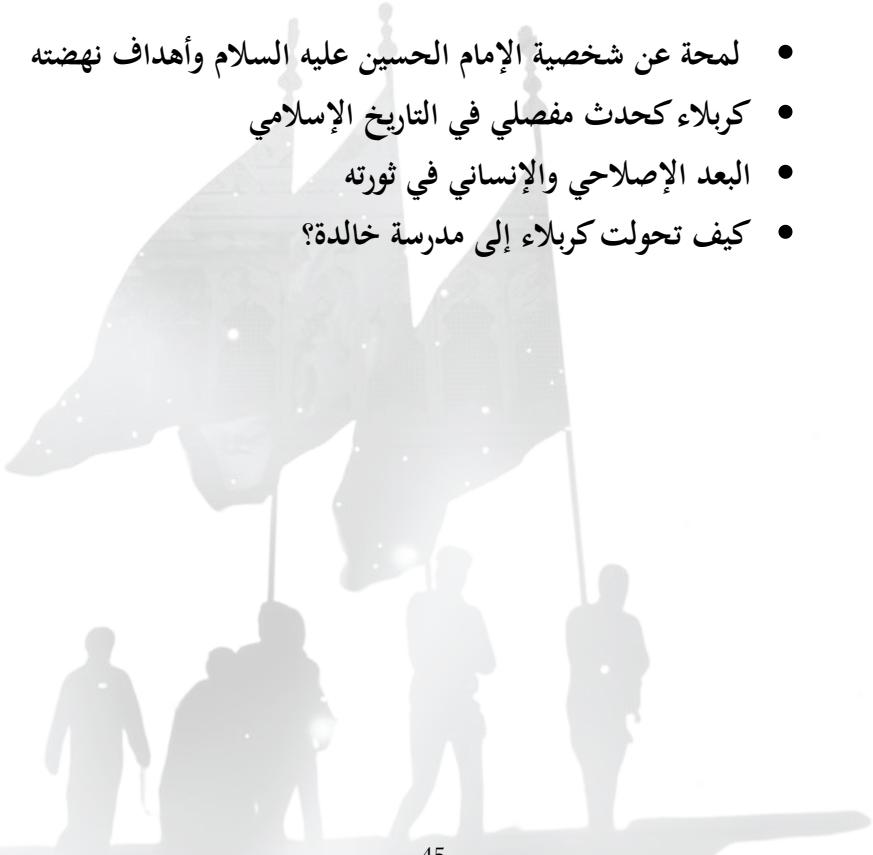


المحور الثاني



الإمام الحسين عليه السلام - القضية والرسالة

- لمحة عن شخصية الإمام الحسين عليه السلام وأهداف نهضته
- كربلاء كحدث مفصلي في التاريخ الإسلامي
- البعد الإصلاحي والإنساني في ثورته
- كيف تحولت كربلاء إلى مدرسة خالدة؟





أولاً: لمحة عن شخصية الإمام الحسين عليه السلام وأهداف نهضته

إنّ الوقوف عند شخصية الإمام الحسين (عليه السلام) لا يُشبه الوقوف عند سائر الشخصيات التاريخية، لأننا هنا لا نقرأ سيرة فردٍ ضمن سياقٍ زمنيٍّ محدود، بل نتأمل في نموذجٍ إنسانيٍّ متكامل، صيغ في مدرسة الوحي، وتشرب من منابع النبوة، حتى غداً مرآةً صافيةً تعكس روح الإسلام المحمدي العلوي في أنقى تجلياته. فالحسين صلوات الله وسلامه عليه ليس امتداداً نسبياً لرسول الله صلى الله عليه وآله فحسب، بل هو امتدادٌ رساليّ، يحمل في وعيه ووجوده وظيفة الحفاظ على جوهر الدين الحق حين يتعرّض للتشويه.

لقد نشأ الإمام الحسين صلوات الله عليه في بيئةٍ لا تُنتج إلا العظماء؛ في بيتٍ كان القرآن فيه حياً ناطقاً، وكانت القيم فيه واقعاً معاشاً لا شعاراتٍ مرفوعة. في كنف النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، تعلّم الإمام الحسين صلوات الله عليه معنى الرحمة الإلهية، وفي مدرسة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) تشرب روح العدالة والصلابة في الحق، ومن السيدة العظيمة صاحبة الأسرار فاطمة الزهراء (عليها السلام) أخذ صفاء الروح ونقاء الموقف.

فاجتمعت في شخصيته عناصر متوازنة: رهافة الإحساس، وعمق الفكر، وصلابة الإرادة، ووضوح الرؤية، وعمق البصيرة.





ومن هنا، فإنّ شخصية الإمام الحسين (عليه السلام) لم تكن لتتحرك بدافع الانفعال أو ردّة الفعل، بل كانت محكومةً بعوي رساليّ دقيق، يُدرك طبيعة المرحلة، ويستشرف مآلاتها. لقد كان يرى بوضوح أنّ الانحراف الذي بدأ يتسلّل إلى جسد الأمة بعد رحيل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لم يعد انحرافاً جزئياً يمكن احتواؤه، بل تحوّل إلى مسارٍ يهدّد بتحويل الدين من رسالة هادية إلى أداة بيد السلطة. وهذا الإدراك هو الذي جعل موقفه يتجاوز حدود المعارضة السياسية، ليصبح موقفاً وجودياً يتعلّق بحفظ أصل الدين.

وحين أعلن الإمام الحسين (عليه السلام) خروجه، لم يقدّمه بوصفه حركة تمرّد أو نزاعٍ على الحكم، بل صاغه ضمن إطارٍ أخلاقيّ ورساليّ واضح، حين قال: إني لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي. هذه الكلمات ليست مجرد بيانٍ سياسي، بل هي مفتاح لفهم طبيعة نهضته؛ إذ تختزل رؤيته لنفسه، وتحدّد موقع حركته ضمن مشروعٍ إصلاحيّ شامل، يستهدف إعادة التوازن إلى الأمة، بعد أن اختلّت موازينها.

إنّ الهدف الأول في نهضة الإمام الحسين (عليه السلام) يتمثّل في إعادة الدين إلى صفائه الأول، ذلك الصفاء الذي بدأ يُحجّب تحت ركام المصالح السياسية والتأويلات المصلحية. لقد أراد أن يُعيد للإسلام روحه، لا شكله؛ أن يُعيد له مضمونه القيمي، لا مظاهره الخارجية فحسب.



فالدين، في نظر الإمام الحسين عليه السلام، ليس طقوسًا تُؤدَّى في ظلّ الظلم، بل منظومةٌ تُقاوم الظلم وتفضّحه.

ومن أهداف نهضته كذلك، رفض شرعنة الباطل، وهي من أخطر المراحل التي يمكن أن يصل إليها أي انحراف؛ إذ لا يكتفي الظلم فيها بأن يكون واقعًا مفروضًا، بل يسعى إلى أن يلبس نفسه لباس الشرعية الدينية. وهنا كان موقف الإمام الحسين صلوات الله عليه حاسمًا؛ فقد أدرك أنّ مبايعته تعني إعطاء الغطاء الشرعي لذلك الانحراف، وبالتالي تحويله من حالةٍ مفروضة إلى حالةٍ مقبولة في وعي الأمة.

ومن هنا جاء رفضه، لا بوصفه موقفًا شخصيًا، بل بوصفه حمايةً لوعي الأمة من التضليل.

كما هدفت نهضته إلى إيقاظ الضمير الإنساني داخل الأمة، ذلك الضمير الذي خدرته العادة، وأثقلته المصالح، حتى كاد يفقد حساسيته تجاه الظلم. لقد أراد الإمام الحسين (عليه السلام) أن يهزّ هذا الضمير هزًّا عنيفًا، أن يُعيد إليه قدرته على التمييز بين الحق والباطل، ولو كان الثمن صدمةً كبرى بحجم كربلاء. فبعض التحولات الكبرى لا تتحقّق إلا عبر أحداثٍ تُزلزل الوجدان، وتُجبر الإنسان على إعادة النظر في مسلّماته.



ولم يكن الإمام الحسين (عليه السلام) غافلاً عن حجم الثمن الذي قد يتطلبه هذا الموقف؛ بل كان واعياً منذ البداية أنّ الطريق الذي يسلكه طريقٌ ينتهي بالشهادة. غير أنّه رأى في هذا الثمن ضرورةً لا بدّ منها، لأنّ حفظ الدين، في لحظات الانعطاف الحاد، قد لا يتحقّق إلا عبر التضحية القصوى. وهنا تتجلّى ذروة وعيه الرسالي؛ إذ لم يكن يبحث عن نصرٍ عسكريٍّ آني، بل عن انتصارٍ قيميٍّ طويل الأمد، يعيد رسم معايير الحق في وجدان الأمة. وهنا قال كلمته التي تنسب إليه صلوات الله عليه إن كان دين محمد لن يستقم ألا بقتلي فيا سيوف خذيبي.

ومن خلال هذا كلّه، يمكن القول إنّ نهضة الإمام الحسين (عليه السلام) لم تكن حدثاً ينتمي إلى الماضي، بل مشروعاً مفتوحاً على المستقبل. فهي تُقدّم للأمة معياراً دائماً تُقاس به المواقف: أين يقف الإنسان حين يتقاطع الحق مع المصلحة؟ وكيف يتصرّف حين يُطلب منه أن يُساوم على قناعاته؟ إنّها مدرسة تُعلّم أنّ الصمت ليس حياداً حين يكون الحق مهدوراً، وأنّ الوقوف مع الحق، وإن كان مكلفاً، هو الطريق الوحيد للحفاظ على كرامة الإنسان ودينه.

وهكذا، تتجلّى شخصية الإمام الحسين (عليه السلام) بوصفها شخصيةً رساليةً بامتياز؛ لا تتحرّك ضمن حدود اللحظة، بل تُعيد تشكيل اللحظة على ضوء القيم. وتغدو نهضته، في ضوء ذلك، إعلاناً دائماً بأنّ الدين لا يُحفظ بالسكوت، ولا يُصان بالمجاملة، بل يُحفظ بمواقف تُجسّد الحق، ولو كُتبت بمداد الدم.





ثانيًا: كربلاء كحدث مفصلي في التاريخ الإسلامي

إنَّ كربلاء، حين تُقرأ قراءةً واعية، لا تبدو مجرد واقعةٍ دامية في سجلّ التاريخ، بل تظهر بوصفها لحظةً مفصلية أعادت تعريف العلاقة بين الدين والسلطة، وبين الإيمان والموقف، وبين الانتماء والالتزام. فهي ليست حادثة تُضاف إلى سلسلة الأحداث، بل هي نقطة انعطافٍ حادة غيّرت مسار الوعي الإسلامي، وفرضت على الأمة أن تُعيد النظر في معاييرها، وأن تُميّز بين ما هو دينيٌّ أصيل، وما هو توظيفٌ سياسيٌّ للدين.

لقد جاءت كربلاء في سياقٍ كانت فيه ملامح الانحراف قد بدأت تتشكّل بوضوح، ولكنها لم تكن قد انكشفت على حقيقتها الكاملة بعد.

كان هناك تداخلٌ بين الشعارات الدينية والممارسات السلطوية، حتى بات من الصعب على كثيرين أن يدركوا حجم الخلل. وهنا جاءت كربلاء لا لتضيف حدثًا جديدًا، بل لتكشف المستور، وتُسقط الأقنعة، وتُظهر التناقض الصارخ بين خطٍّ يستمدّ شرعيته من القيم الإلهية، وخطٍّ آخر يوظّف تلك القيم لتثبيت نفوذه وطغيانه.





وفي هذا السياق، لم يكن الصراع الذي تجسّد في كربلاء صراعاً سياسياً تقليدياً بين طرفين متنافسين على الحكم، بل كان صراعاً بين رؤيتين متقابلتين للوجود والدين. رؤية ترى في الإسلام رسالةً تهدف إلى بناء الإنسان الحرّ العادل، ورؤية أخرى تختزل الدين في أداة لإدارة السلطة، وتبرير الواقع القائم. ومن هنا، فإنّ المواجهة بين الإمام الحسين (عليه السلام) ويزيد بن معاوية عليه ما عليه لم تكن مواجهة أشخاص، بل مواجهة مشروعين: مشروع الرسالة، ومشروع الانحراف.

وتكمن مفصلية كربلاء في أنّها حسمت هذا الاشتباك على مستوى الوعي، حتى وإن لم تُحسم عسكرياً في ميدان القتال. فقد انتصر السيف لحظته، لكنّ الدم هو الذي انتصر في التاريخ. لقد أراد الإمام الحسين (عليه السلام) أن ينقل الصراع من دائرة الغموض إلى دائرة الوضوح، وأن يضع الأمة أمام حقيقة لا لبس فيها: إمّا أن تكون مع الحق بما يمثله من قيمٍ وتضحيات، أو أن تكون مع الباطل مهما تزيّن بشعارات الدين.

وهنا يظهر البعد الأخلاقي العميق لكربلاء؛ فهي لم تترك للإنسان مساحةً واسعة للمراوغة، بل دفعته إلى تحديد موقعه بوضوح. لم يعد ممكناً بعد كربلاء أن يختبئ المرء خلف الحياد، أو أن يبرّر صمته بحججٍ واهية. لقد أصبحت كربلاء مرآةً يُرى فيها الموقف الحقيقي للإنسان: أين يقف حين يتعارض الحق مع المصلحة؟ وكيف يتصرّف حين يُختبر ضميره؟



إنَّ ما أنتجته كربلاء من وعيٍ يتجاوز حدود زمانها ومكانها؛ فهي لم تكن رسالةً لجيلٍ بعينه، بل خطابًا مفتوحًا لكلِّ الأجيال. لقد أعادت تعريف مفاهيم أساسية في الحياة الإسلامية: أعادت تعريف النصر، فلم يعد النصر مرتبطًا بالغلبة المادية، بل بالثبات على المبدأ؛ وأعادت تعريف الخسارة، فلم تعد الخسارة في فقدان الحياة، بل في فقدان القيم. وبهذا المعنى، قدّم الإمام الحسين (عليه السلام) نموذجًا جديدًا للانتصار، انتصارًا يُقاس بمدى بقاء الرسالة حيّة، لا بمدى بقاء الجسد.

ومن هنا، أصبحت كربلاء معيارًا تاريخيًا وأخلاقيًا في آنٍ واحد؛ معيارًا يُقاس به صدق الانتماء، ومُحكّمًا تُختبر به المواقف. فكلّ موقفٍ في التاريخ يمكن أن يُقرأ على ضوء كربلاء: هل هو امتدادٌ لذلك الخطّ الذي وقف مع الإمام الحسين (عليه السلام)، أم هو استمرارٌ لذلك الخطّ الذي واجهه؟ إنها ليست حادثة تُروى، بل ميزانٌ يُوزن به الحاضر.

ولعلّ من أعمق آثار كربلاء أنّها أثبتت أنّ التاريخ لا يُصنع بالقوة وحدها، بل يُصنع بالموقف. فكم من قوىٍ عسكرية انتصرت ثم اندثرت، وكم من مواقف صادقةٍ كُتبت بالدم، فبقيت حيّةً تُحرّك الوجدان عبر القرون. لقد تحوّل دم الإمام الحسين (عليه السلام) إلى طاقةٍ معنويةٍ هائلة، أعادت إحياء روح المقاومة في الأمة، وعلمتها أنّ القدرة على قول “لا” في وجه الظلم قد تكون أعظم من أيّ انتصارٍ عسكري.



وهكذا، فإنّ كربلاء لا يمكن اختزالها في كونها مأساة مؤلمة، رغم عمق ألمها، بل ينبغي أن تُفهم بوصفها لحظة تأسيسٍ لوعيٍ جديد؛ ووعيٌ يُدرك أنّ الدين مسؤولية، وأنّ الحقّ يحتاج إلى من يدافع عنه، وأنّ الصمت في لحظات الانحراف الكبرى ليس حياداً، بل انحيازٌ غير مباشر.

وفي هذا تكمن مفصليتها الحقيقية: أنّها لم تتغيّر مجرى حدثٍ فحسب، بل غيّرت طريقة فهم الأحداث، وأعادت صياغة العلاقة بين الإنسان وقيمه، لتبقى حيّة في كلّ زمن، تستنطق الضمائر، وتعيد طرح السؤال ذاته: مع من تكون؟ ولماذا؟

ثالثاً: البعد الإصلاحي والإنساني في ثورته

إنّ قراءة ثورة الإمام الحسين (عليه السلام) من زاوية البعد الإصلاحي والإنساني تفتح أفقاً أوسع من أيّ تأطيرٍ مذهبيٍّ أو سياسيٍّ ضيق، لأنّنا حينها لا نتعامل مع حدثٍ محليٍّ محدود، بل مع مشروعٍ رساليٍّ يعيد تعريف الإنسان في علاقته بالقيم، ويؤسّس لمنظومة أخلاقية قابلةً للامتداد عبر الأزمنة والثقافات، وهذه هي رسالة السماء بذاتها.





فالإصلاح، في وعي الإمام الحسين (عليه السلام)، لم يكن مجرد استجابة ظرفية لخللٍ طارئ، بل كان مشروعاً جذرياً يستهدف إعادة بناء البنية الداخلية للإنسان قبل أيّ بنية خارجية. ذلك أنّ كلّ انحرافٍ سياسي أو اجتماعي، في نظره، هو انعكاسٌ لانحرافٍ أعمق في الضمير، حيث تبهت القيم، وتفقد المعايير وضوحها، ويتحوّل الحقّ إلى خيارٍ قابلٍ للمساومة. ومن هنا، فإنّ نهضته جاءت لتعيد تثبيت هذه المعايير، لا عبر التنظير، بل عبر تجسيدها في موقفٍ عمليٍّ بلغ ذروته في كربلاء.

إنّ قوله (عليه السلام): «إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدّي» لا يُفهم بوصفه شعاراً عاماً، بل بوصفه إعلاناً عن طبيعة مشروع يسعى إلى ترميم ما تهدّم في الداخل الإنساني للأمة. فالإصلاح عنده يبدأ من إعادة الاعتبار لقيمٍ أساسية: العدل بوصفه ميزان العلاقات، والكرامة بوصفها جوهر الوجود الإنساني، والحرية بوصفها شرط الاختيار المسؤول، والصدق بوصفه أساس الثقة بين الإنسان وربّه وبين الإنسان ومجتمعه. وهذه القيم، حين تتآكل، لا يبقى للدين إلا شكله، ولا يبقى للمجتمع إلا قشرته.

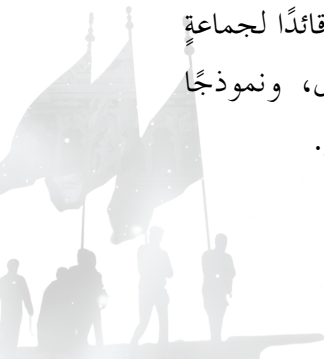
ومن هنا، فإنّ الإمام الحسين (عليه السلام) لم يتحرّك ليُسقط سلطةً فحسب، بل ليمنع تحوّل الانحراف إلى “نموذجٍ مقبول”، لأنّ أخطر ما يهدّد المجتمعات ليس وجود الظلم، بل التكيّف معه، ومن ثمّ تبريره. لقد أدرك أنّ السكوت في تلك اللحظة المفصلية يعني منح الشرعية لانحرافٍ سيُعاد إنتاجه جيلاً بعد جيل، ولذلك كان لا بدّ من موقفٍ يكسر هذا المسار، ولو كان الثمن باهظاً.



أما البعد الإنساني في ثورته، فهو ما يمنحها طابعها العالمي، ويجعلها قادرةً على مخاطبة الإنسان بما هو إنسان، لا بما هو منتمٍ إلى دينٍ أو جماعة أو مذهب. إنّ خطاب الإمام الحسين عليه السلام لم يكن منغلّقًا داخل دائرةٍ خاصة، بل كان مفتوحًا على الفطرة الإنسانية في أعمق تجلياتها. وحين قال: «إن لم يكن لكم دين، وكنتم لا تخافون المعاد، فكونوا أحرارًا في دنياكم»، فإنّه لم يكن يطرح دعوةً ظرفية، بل كان يؤسّس لقاعدةٍ أخلاقيةٍ كبرى: أنّ الحرية قيمةٌ أصيلةٌ في الإنسان، وأنّ رفض الظلم ليس شأنًا دينيًا فحسب، بل هو شأنٌ إنسانيّ عام.

بهذا المعنى، تتجاوز ثورة الإمام الحسين عليه السلام حدود الانتماء، لتغدو لغةً مشتركة بين البشر، تُخاطب فيهم ضميرهم قبل عقيدتهم. فهي تُعلّم أنّ الإنسان، أيًّا كان موقعه، لا يمكن أن يكون محايدًا أمام الظلم دون أن يفقد شيئًا من إنسانيته، وأنّ الكرامة ليست ترفًا أخلاقيًا، بل ضرورة وجودية لا يستقيم بدونها معنى الحياة.

ومن هنا، نفهم كيف استطاعت كربلاء أن تتحوّل إلى مصدر إلهامٍ عالمي، يستلهم منها الأحرار معاني الصمود، ويستمدّ منها المصلحون روح التغيير. فالإمام الحسين (عليه السلام) لم يقدّم نفسه قائدًا لجماعةٍ مغلقة، بل قدّم نفسه شاهدًا على الحق، وصوتًا للعدل، ونموذجًا للإنسان الذي يرفض أن يساوم على قيمه، مهما كان الثمن.





ولعلّ من أعمق ما يكشف عن إنسانيّة ثورته أنّه لم يُلغِ الآخر، ولم يُجرّده من إنسانيته، بل خاطبه، ووعظه، وفتح له باب الرجوع حتى آخر لحظة. وهذا بحدّ ذاته تجلّ راقٍ لفهم الإصلاح، الذي لا يقوم على الإقصاء، بل على محاولة إنقاذ الإنسان من سقوطه، قبل أن يكون الحكم عليه.

وهكذا، تتجلّى ثورة الإمام الحسين (عليه السلام) بوصفها مشروعًا إصلاحيًا وإنسانيًا ورساليًا في آنٍ واحد؛ إصلاحيًا لأنّه يعيد بناء القيم في داخل الإنسان، وإنسانيًا لأنّه يخاطب هذا الإنسان في أعمق ما فيه من فطرة وضمير. ومن هذا التلاقي بين الإصلاح والإنسانية، اكتسبت الثورة خلودها، وبقيت حيّة تتجاوز حدود الزمان والمكان، لتقول في كلّ عصر: إنّ الحق لا يُقاس بالكثرة، وإنّ الكرامة لا تُشتري، وإنّ الإنسان الحقيقي هو من يقف مع الحق، لا من يقف حيث تقف المصلحة.

رابعًا: كيف تحولت كربلاء إلى مدرسة خالدة؟

إنّ السؤال عن تحوّل كربلاء إلى مدرسة خالدة، ليس سؤالًا عن البقاء الزمني فحسب، بل هو سؤالٌ عن القدرة على إنتاج المعنى، وعن سرّ الامتداد في الوجدان الإنساني عبر العصور. فكم من أحداثٍ عظيمةٍ في ظاهرها انطفأت بانطفاء لحظتها، وكم من وقائع محدودة في عدّتها تحوّلت إلى منابع لا تنضب من الإلهام؛ وكربلاء من هذا الصنف الثاني، بل هي في ذروته.



إنَّ أول ما يلفت النظر في هذا التحوّل هو أنّ كربلاء لم تكن حدثًا صامتًا يُختزل في صورةٍ مأساوية، بل كانت خطابًا مفتوحًا، ناطقًا بلغة القيم.

لقد حملت في جوهرها رسالةً واضحة المعالم، غير قابلةٍ للاحتكار أو الانغلاق: رسالة الحق في مواجهة الباطل، والكرامة في وجه الذل، والوعي في مقابل التضليل. وهذه الرسالة، بما أنّها متجذّرة في الفطرة الإنسانية، ظلّت قابلةً للفهم في كلّ زمان، مهما اختلفت السياقات والظروف.

ثم إنّ الإمام الحسين (عليه السلام) لم يكتفِ بطرح هذه القيم نظريًا، بل صاغها في نموذجٍ عمليٍّ متكامل، تجسّد في موقفه، وفي اختياراته، وفي توضيحته القصوى. لقد تحوّلت القيم في كربلاء من مفاهيم مجردة إلى وقائع حيّة: فالإيثار لم يعد فكرة، بل صار صورةً تُرى في مواقف أصحابه، والوفاء لم يعد شعارًا، بل أصبح دمًا يُبذل دون تردّد، والثبات لم يعد أمنية، بل صار حقيقةً تتجلّى في وجه الموت. وهذا التحويل من “المعنى” إلى “النموذج” هو ما يمنح أيّ حدثٍ قابلية الخلود، لأنّ الإنسان يتعلّم بالمثال أكثر ممّا يتعلّم بالكلام.

غير أنّ كربلاء، على عظمتها في يوم عاشوراء، ما كانت لتحوّل إلى مدرسةٍ خالدة لولا الامتداد الرسالي الذي أعقبها.





وهنا يتجلّى الدور المحوري للإمام زين العابدين صلوات الله وسلامه عليه والسيدة زينب بنت علي عليهما السلام، اللذين حملا عبء تحويل الدم إلى خطاب، والمأساة إلى وعيٍ متحرّك. لقد أدركا أنّ المعركة لم تنته بسقوط الأجساد، بل بدأت مرحلة جديدة عنوانها “حفظ المعنى من الضياع”. فكانت خطب الكوفة والشام، وكانت مواقف التعرية السياسية والأخلاقية، التي كشفت حقيقة ما جرى، ومنعت السلطة من أن تعيد صياغة الحدث وفق روايتها.

في هذا التحوّل من السيف إلى الكلمة، ومن المواجهة العسكرية إلى المواجهة الوعّية، تكمن إحدى أعمدة خلود كربلاء. فالأحداث قد تُقمع بالقوة، لكنّها لا تُمحي إذا تحوّلت إلى وعيٍ جماعي. وقد نجحت المدرسة الحسينية، منذ لحظتها الأولى، في ترسيخ هذا الوعي، بحيث لم تعد كربلاء مجرد ذكرى، بل أصبحت قضية حيّة تُعاد قراءتها في كلّ جيل.

ثم جاء دور الزمن ليُراكم هذا الحضور، لا يُضعفه. فالشعائر، والزيارات، والمجالس، لم تكن مجرد طقوس عاطفية، بل كانت أدوات ثقافية عميقة لحفظ الذاكرة الجماعية، وإعادة إنتاج المعنى. إنّها آليات “تذكير دائم” تمنع النسيان، وتُبقي القضية حيّة في الضمير، بحيث ينشأ الفرد وهو يحمل كربلاء في وجدانه، لا كقصّة تُروى، بل كمعيارٍ يُحتكم إليه.



وهنا تحديداً تتجلى كربلاء بوصفها “مدرسة” لا “حادثة”. فالمدرسة تُنتج أجيالاً، وتبني وعياً، وتُقدّم منهجاً قابلاً للتطبيق. وهذا ما فعلته كربلاء؛ إذ لم تكتفِ بأن تُلهم، بل علّمت: علّمت كيف يُتخذ الموقف، وكيف تُحفظ القيم، وكيف يُدفع الثمن دون تردّد حين يكون الحق على المحك. لقد أصبحت مرجعاً أخلاقياً يُعاد الرجوع إليه كلّما اشتبهت الطرق، واختلطت المعايير.

وعليه، فإنّ كربلاء لم تبقى لأنّها مأساة عظيمة فحسب، بل لأنّها امتلكت عناصر التحوّل إلى منهج: رسالة واضحة، نموذج مجسّد، امتداد واعٍ، وذاكرة حيّة. ومن هذا التفاعل بين هذه العناصر، وُلدت “المدرسة الحسينية” بوصفها فضاءً تربوياً وأخلاقياً ورسالياً مفتوحاً، يُخرّج الإنسان الذي يعرف أين يقف، ولماذا يقف، وكيف يدفع ثمن موقفه.

وهكذا، لا يعود الإمام الحسين (عليه السلام) مجرد شهيد في الماضي، بل يغدو معلّماً للحاضر، وهادياً للمستقبل؛ لأنّه لم يورث الأمة حدثاً، بل ورثها وعياً، ولم يترك لها ذكرى، بل ترك لها طريقاً. ومن أراد أن يسير، فالباب ما زال مفتوحاً، والمدرسة ما زالت قائمة، والدعوة والرسالة ما زالت تتردّد في أعماق الضمير: أن كن مع الحق، مهما كان الثمن.



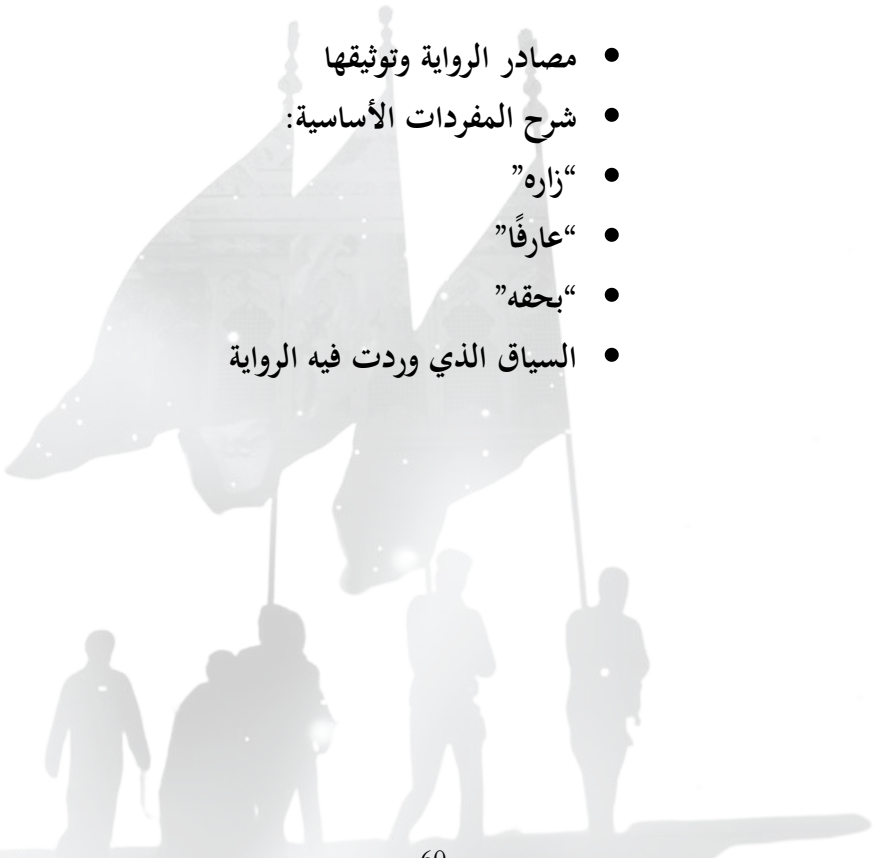


المكهور الثالث



نص حديث: «من زاره عارفاً بحقه...»

- مصادر الرواية وتوثيقها
- شرح المفردات الأساسية:
- “زاره”
- “عارفاً”
- “بحقه”
- السياق الذي وردت فيه الرواية





المحور الثالث: نص الرواية وتحليلها

أولاً: نص حديث «من زاره عارفاً بحقه...»

إنّ حديث «من زاره عارفاً بحقه...» يُعدّ من النصوص المفصلية التي لا تُقرأ بوصفها وعداً بالثواب فحسب، بل بوصفها بناءً معرفياً دقيقاً يُعيد تعريف الزيارة من ظاهرٍ شعائري إلى فعلٍ وعيٍ رسالي. فالنص، على اختلاف ألفاظه وتعدّد طرقه، لا يركّز على “الزيارة” بما هي حركةٌ جسدية، بل على “المعرفة” بما هي روح تلك الحركة، ومصدر قيمتها، وميزان قبولها.

إنّ تعدّد صيغ الحديث بين «كمن زار الله في عرشه»، أو «غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر»، أو «كتب الله له أجراً عظيماً» لا ينبغي أن يُفهم بوصفه اختلافاً في المضمون، بل هو تنوّع في البيان، يُسلّط الضوء على أبعادٍ متعدّدة لنتيجةٍ واحدة: أنّ الزيارة، حين تقترن بالمعرفة، تتحوّل إلى فعلٍ استثنائي يتجاوز حدوده الظاهرة، ليتّصل بأفقٍ إلهيّ عالٍ.

وكأنّ النص يريد أن يقول إنّ القيمة ليست في “المسافة المقطوعة”، بل في “البصيرة المحمولة”.





وهنا يتجلى القيد المحوري في الحديث: «عارفاً بحقه». فهذا القيد ليس تفصيلاً إضافياً، بل هو جوهر الرواية ومحورها الذي تدور عليه. فالمعرفة هنا لا تُراد بمعناها السطحي، أي مجرد العلم بالاسم أو النسب، بل تُراد بمعناها العميق الذي يشمل إدراك المقام، وفهم الدور، واستيعاب الرسالة التي جسدها الإمام الحسين (عليه السلام). إنها معرفةٌ تتداخل فيها العقيدة مع الوعي التاريخي، والبصيرة الأخلاقية مع الالتزام العملي.

فإن تكون “عارفاً بحقه” يعني أن تُدرك أنّ الإمام الحسين صلوات الله عليه ليس شخصيةً تاريخية تُزار، بل هو إمامٌ مفترض الطاعة، ووحجةٌ إلهية، ومشروعٌ إصلاح متجسد. ويعني أن تفهم أنّ نهضته لم تكن حدثاً عابراً، بل كانت موقفاً تأسيسياً لحفظ الدين من الانحراف. ويعني كذلك أن تستوعب أنّ العلاقة به ليست علاقة تعاطفٍ عاطفيٍّ فحسب، بل علاقة اقتداءٍ وامتداد، تُترجم في الموقف والسلوك.

ومن هنا، فإنّ الزيارة التي تُبنى على هذه المعرفة تتحوّل إلى فعلٍ مركّب: فهي في ظاهرها حضورٌ عند القبر، ولكنها في باطنها حضورٌ في خطّ الإمام الحسين عليه السلام. الزائر، في هذه الحالة، لا يكتفي بأن يقف عند الضريح الشريف، بل يقف مع القضية؛ لا يكتفي بأن يقرأ الزيارة، بل يقرأ ذاته في ضوء الإمام الحسين عليه السلام، ويُعيد مساءلة مواقفه، ويُقوّم انحيازاته.





وهذا ما يُفسّر الوعود العظيمة التي حملها الحديث؛ إذ إنّ الغفران، أو نيل الأجر العظيم، أو التشبيه بزيارة الله سبحانه وتعالى في عرشه، ليست نتائج تُمنح لمجرّد الفعل الشكلي، بل لما يُحدثه هذا الفعل، حين يكون واعياً، من تحوّل في داخل الإنسان.

فالمعرفة هنا تُنتج تغييراً، والتغيير يُفضي إلى القرب، والقرب هو جوهر تلك الوعود.

كما أنّ هذا القيد يُعيد ضبط العلاقة بين “الكثرة” و”القيمة”. فقد يزور الآلاف دون أن يتحقّق فيهم هذا الشرط، وقد يزور القليل ولكن بوعي عميق، فيحوزون جوهر الزيارة. وبذلك، يُخرجنا الحديث من وهم الاكتفاء بالمظاهر، ويدخلنا في ميدان المسؤولية: ماذا نحمل معنا ونحن نزور؟ وما الذي تغيّر فينا بعد الزيارة؟

إنّ «عارفاً بحقه» ليست وصفاً لحالة ذهنية عابرة، بل هي مسارٌ مستمر من التعلّم، والتأمّل، والارتباط الواعي.

فالمعرفة درجات، وكلّما ازداد الإنسان فهماً للإمام الحسين عليه السلام، ازداد اقترابه من حقيقة زيارته. وهذا ما يجعل الزيارة نفسها مدرسةً متجدّدة، تُنمّي هذا الوعي، وتُعمّقه، وتدفعه إلى الترجمة العملية في الحياة.





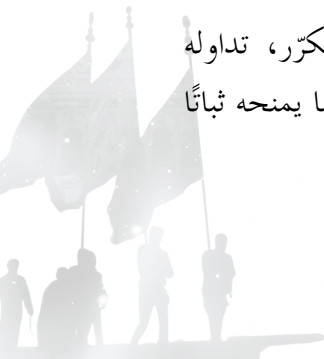
وهكذا، يتّضح أنّ هذا الحديث لا يكتفي بتحديد فضل الزيارة، بل يؤسّس لفلسفة كاملة لها: فلسفة تجعل من المعرفة شرطاً، ومن الوعي جوهرًا، ومن التحوّل غاية. وبذلك، لا تعود زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) مجرد شعيرة تُؤدّى، بل تصبح مسارًا يُسلّك، يُعيد تشكيل الإنسان على ضوء الحق الذي مثله الإمام الحسين عليه السلام، ليكون الزائر، بحق، شاهداً على تلك المدرسة، وامتداداً حيّاً لها في الواقع.

ثانيًا: مصادر الرواية وتوثيقها

إنّ البحث في مصادر رواية «من زار الحسين (عليه السلام) عارفاً بحقه...» لا يقتصر على تتبّع موضع نصّيّ واحد، بل يفتح على شبكة روائية واسعة تكشف عن حضور متجدّد لهذا المعنى في التراث الحديثي عند مدرسة أهل البيت (عليهم السلام).

كما سيرد في نهاية هذا الكتاب ملحقًا، حيث سأدرج مجموعة من النصوص الشريفة الواردة في هذا السياق، وأحاول البيان ما أوفق له بحول الله وتوفيقه.

إذاً فنحن لا نقف أمام نصّ يتيّم، بل أمام مضمون متكرّر، تداوله المحدثون في مصنّفات متعدّدة، بأسانيد وصيغ مقاربة، بما يمنحه ثباتًا دلاليًا واعتبارًا منهجيًا.





وفي طليعة هذه المصادر يأتي كتاب كامل الزيارات، لمؤلفه ابن قولويه القمي، وهو من أعمدة كتب الزيارات في التراث الإمامي، بل يُعدّ مرجعاً تأسيسياً في هذا الباب. وقد امتاز هذا الكتاب بمنهجيته في جمع الروايات المسندة، مع عناية ظاهرة بتوثيق طرقها، حتى غدا معتمداً عند الأعلام في نقل فضائل زيارة الإمام الحسين (عليه السلام). وفي هذا الكتاب ترد نصوصٌ متعددة تؤكّد مضمون “المعرفة بالحق” شرطاً في كمال الزيارة، وهو ما يضع هذه الرواية ضمن سياقٍ أوسع، لا بمعزلٍ عنه.

كما نجد صدى هذا المضمون في كتاب تهذيب الأحكام، لمؤلفه الشيخ الطوسي، وهو من الكتب الأربعة المعتمدة في الحديث الإمامي، حيث ترد فيه رواياتٌ تتناول فضل الزيارة وآدابها وشروطها، ومنها ما يشير تصريحاً أو تضميناً إلى ضرورة المعرفة بمقام الإمام عليه السلام المزور. وهذا الحضور في كتابٍ فقهيٍّ حديثيٍّ جامعٍ يعكس أنّ المسألة لم تكن هامشية، بل كانت جزءاً من البناء التشريعي والروحي للزيارة.

ثم تتعرّز هذه الدلالة أكثر مع ما أورده وسائل الشيعة، لمؤلفه الحر العاملي، الذي قام بجمع الروايات الفقهية من مصادرها الأصلية وترتيبها وفق الأبواب. وفي هذا المصنّف تتكرّر مضامين زيارة الإمام الحسين عليه السلام المقرونة بالمعرفة، ضمن أبواب الزيارات، بما يُظهر أنّ هذا القيد لم يكن استثناءً في نصٍّ واحد، بل قاعدةً متكرّرة في الوعي الروائي.



ومن الناحية المنهجية، فإنّ التعامل مع هذه الرواية وأمثالها لا ينبغي أن يُحصر في دراسة سندٍ منفرد، وإن كانت دراسة السند ركناً أساسياً في علم الحديث، بل ينبغي أن يُضمَّ إليها النظر في “التضافر المعنوي”. وهذا المفهوم، المعروف في علم الدراية بـ “الاستفاضة المعنوية”، يقوم على ملاحظة تكرار مضمونٍ واحد في نصوصٍ متعددة، بأسانيد مختلفة، وصيغٍ متقاربة، بما يوَلِّد اطمئناناً بصدور المعنى، حتى لو اختلفت الألفاظ أو لم يبلغ كلَّ طريقٍ بمفرده درجة الصحّة التامة.

وفي هذا السياق، فإنّ قيد «عارفاً بحقه» يظهر بوصفه عنصراً ثابتاً في عددٍ من الروايات، ممّا يكشف عن مركزية هذا المفهوم في فهم الزيارة، لا كقيدٍ عرضي، بل كشرطٍ بنيوي في تحقّقها. فالتكرار هنا ليس مجرد إعادةٍ لفظية، بل هو تثبيتٌ لمعنى أراد الأئمة (عليهم السلام) أن يترسّخ في وعي المؤمنين، وهو أنّ العلاقة بالإمام صلوات الله وسلامه عليه لا تقوم على الممارسة الشكلية، بل على الإدراك الواعي لمقامه ودوره.

وعليه، يمكن القول إنّ قوّة هذه الرواية لا تنبع من طريقٍ واحد، بل من شبكةٍ من الطرق والمصادر التي تلتقي عند مضمونٍ واحد، بما يمنحها ثقلاً علمياً واعتبارياً. وهذا النمط من التوثيق القائم على الجمع بين السند والتضافر هو من الخصائص المنهجية المميّزة للتراث الحديثي الإمامي، حيث يُبنى الاطمئنان أحياناً من مجموع القرائن، لا من عنصرٍ واحدٍ معزول.



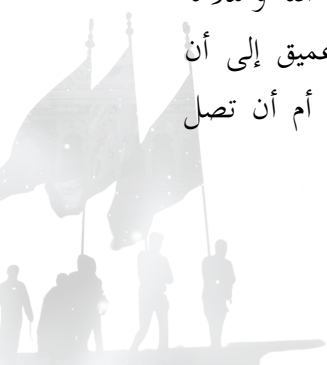
وهكذا، فإنّ رواية «من زار الحسين (عليه السلام) عارفاً بحقه...» تقف على أرضيةٍ حديثةٍ راسخة، لا بوصفها نصّاً منفرداً، بل بوصفها تعبيراً عن توجهٍ روائيّ عام، يربط بين الزيارة والمعرفة، ويجعل من الوعي شرطاً في القرب، ومن الإدراك مفتاحاً للقبول.

ثالثاً: شرح المفردات الأساسية

حين نقرب من ألفاظ هذا الحديث، لا ينبغي أن نتعامل معها ككلماتٍ متجاورة، بل كطبقاتٍ من المعنى، تنفتح الواحدة منها على الأخرى، حتى تُشكّل في مجموعها مشهداً روحياً ومعرفياً متكاملًا. إنّها ليست صياغةً عابرة، بل بناءً دقيق، كأنّ كلّ مفردةٍ فيه موضوعة في مكانها لتقود القارئ من ظاهر الفعل إلى باطنه، ومن الشكل إلى الحقيقة.

“زاره”... بداية الطريق لا نهايته

في ظاهر اللفظة، يبدو الأمر بسيطاً: زيارة، انتقال، وصول. لكنّ النصّ لا يرضى لهذا المعنى أن يبقى في حدوده الأولى. وإن كان لمجرد الكون في المقام الشريف وفي حضرة المعصوم صلوات الله وسلامه عليهم لها ما لها من الأجر العظيم. إنّّه يدفعنا بلطفٍ عميقٍ إلى أن نسأل: ماذا يعني أن “تزرور”؟ هل هو مجرد أن تصل؟ أم أن تصل وأنت تحمل في داخلك استعداداً للقاء؟





إنّ “زاره” هنا تُشبه بابًا يُفتح، لا على مكانٍ محدّد، بل على حالةٍ وجودية. فالزائر لا يقطع الطريق ليلبغ القبر الشريف، بل ليلبغ معنى القبر شرفه الله؛ لا ليصل إلى موضع الجسد الشريف، بل ليصل إلى أثر الرسالة. إنّها حركةٌ تبدأ من الخارج، لكنّها لا تكتمل إلا حين تنعطف إلى الداخل، حيث تبدأ الرحلة الحقيقية.

ولهذا، فإنّ الزيارة في عمقها ليست انتقالًا في الجغرافيا، بل انتقالًا في الوعي. الإنسان يخرج من عالمه المألوف، من عاداته، من انشغالاته، ليقف في فضاءٍ آخر، أكثر صفاءً، وأكثر صدقًا. هناك، عند الإمام الحسين (عليه السلام)، لا تُقاس المسافة بما قُطع من طريق، بل بما قُطع من غفلة.

“عارفًا”... النقطة التي يتغيّر عندها كل شيء

ثم تأتي هذه الكلمة، كأنّها الميزان الذي يُفرّق بين صورتين متشابهتين في الظاهر، مختلفتين في الجوهر. فكثيرون يزورون، لكنّ القليل هم الذين “يعرفون”.

والمعرفة هنا ليست تلك التي تُختزن في الذهن كأسماءٍ وتواريخ، بل هي معرفةٌ تُلامس القلب، وتوقظ فيه شيئًا كان ساكنًا. إنّها أشبه بلحظة انكشاف، يرى فيها الإنسان ما لم يكن يراه من قبل، أو يرى ما كان يراه ولكن على نحوٍ أعمق.



أن تكون “عارفاً”، يعني أن لا تمرّ بكريلاء مرور العابر، بل أن تقف عندها وقفة المتأمل؛ أن لا ترى في الإمام الحسين (عليه السلام) شخصيةً تاريخية، بل أن ترى فيه سؤالاً موجّهاً إليك: أين تقف أنت؟ مع من تميل؟ ماذا تفعل حين يُعرض عليك الحقّ بثمانٍ باهظ؟.

وهنا تتحوّل المعرفة من “معلومة” إلى “موقف”. فليست المعرفة ما تعرفه عن الإمام الحسين عليه السلام، بل ما يصنعه الإمام الحسين عليه السلام فيك. ليست ما تحفظه عنه، بل ما يتغيّر فيك بسببه. ومن هنا، فإنّ “عارفاً” تعني: مستيقظاً، حاضراً، متفاعلاً، لا زائراً غافلاً يؤدّي فعلاً دون أن يعيش معناه.

“بحقه...” حيث يتكتّف المعنى وتُختبر الحقيقة

ثم نصل إلى الكلمة التي تختزن كلّ شيء: “بحقه”. هنا لا يعود الحديث عن معرفة عامة، بل عن معرفةٍ موجهة، محدّدة، لها مضمونها الخاص.

فالحقّ ليس عنواناً بسيطاً، بل هو عالمٌ كامل. أن تعرف “حقّ الأمام الحسين عليه السلام” يعني أن تُدرك موقعه في مسار الهداية، أن تفهم لماذا نهض، ولماذا ضحّى، ولماذا اختار ذلك الطريق دون غيره. أن تعرف أنّه لم يكن صاحب قضيةٍ جزئية، بل حامل رسالةٍ أرادت أن تُنقذ الدين من أن يتحوّل إلى أداة بيد الظلم.



“بحقه” تعني أن ترى الإمام الحسين (عليه السلام) لا في ذاته فقط، بل في امتداده؛ أن ترى كربلاء لا كواقعة انتهت، بل كمعيارٍ مستمر. أن تدرك أنّ حقّه صلوات الله عليه لا ينفصل عن القيم التي مثلها: عن العدل الذي دافع عنه، عن الكرامة التي صانها، عن الحرية التي دعا إليها.

ومن هنا، فإنّ هذه المعرفة ليست معرفة “به”، بل معرفة “بما يمثّله”. إنّها انتقال من الشخص إلى المشروع، ومن الاسم إلى المعنى، ومن التاريخ إلى الحاضر.

حين تجتمع الكلمات... يولد المعنى الكامل

وحين تُعيد النظر في هذه المفردات مجتمعة، ندرك أنّ الحديث لا يصف زيارةً عادية، بل يرسم ملامح تجربةٍ متكاملة:

إنسانٌ “يزور”... لكنه لا يذهب بجسده فقط، بل يذهب بقلبه. وهو “عارف”... فلا يقف عند حدود الظاهر، بل ينفذ إلى العمق. وهو “بحقه”... فلا يكتفي بمعرفةٍ عامة، بل يحمل فهمًا حيًّا للمقام والرسالة.

وهكذا، تتحوّل الزيارة من فعلٍ يُؤدّى إلى حالةٍ تُعاش، ومن طقسٍ إلى تحوّل، ومن حضورٍ عابرٍ إلى موقفٍ دائم.



إنّها لحظةٌ يلتقي فيها الإنسان بالإمام الحسين (عليه السلام)، لا يُحيي ذكرى، بل يُجدّد عهداً؛ لا ليكي على الماضي، بل ليعيد بناء حاضره على ضوء ذلك الماضي.

وفي هذا اللقاء، لا يكون السؤال: هل زرت؟
بل: ماذا أصبحت بعد أن زرت؟

رابعاً: السياق الذي وردت فيه الرواية

حين نتأمل في هذا النصّ، ونحاول أن نستخرج منه دلالاته العميقة، لا يكفي أن نقف عند ألفاظه أو عند ظاهره التعبدي، بل لا بدّ أن نعود به إلى لحظته التاريخية التي انبثق منها، إلى ذلك الزمن الذي لم يكن فيه ذكرُ الإمام الحسين (عليه السلام) مجرد ذكرٍ عاطفي، بل كان موقفاً، وكان انتماءً، وكان - في كثيرٍ من الأحيان - مخاطرةً وجودية.

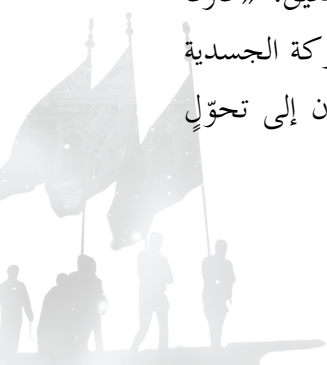
لقد وُلدت هذه الروايات في زمنٍ كانت فيه السلطة الأموية، ثم العباسية من بعدها، تدرك - بوعيٍ عميق - أن كربلاء ليست حادثةً من الماضي، بل هي مشروعٌ حيّ، وأن الإمام الحسين (عليه السلام) ليس شهيداً يُكي عليه فحسب، بل هو معيارٌ يُقاس به الانحياز إلى الحقّ أو الانحراف عنه. ومن هنا، لم يكن الصراع مع كربلاء صراعاً على أرضٍ أو قبر، بل كان صراعاً على الوعي، على الذاكرة، على هوية الأمة.



لقد سعت تلك السلطات إلى تفريغ كربلاء المقدسة من مضمونها، فعملت تارةً على طمس معالم القبر الشريف، وأخرى على منع الزيارة، وثالثةً على ملاحقة الزائرين والتضييق عليهم، حتى أصبح السير إلى الإمام الحسين (عليه السلام) طريقًا محفوفًا بالخطر، لا يقطعه إلا من امتلاً قلبه بيقينٍ يتجاوز حسابات الخوف والراحة. ولم يكن هذا المنع اعتباطيًا، بل كان إدراكًا سياسيًا دقيقًا بأن الزيارة — إذا اقترنت بالوعي — تتحوّل إلى فعل مقاومة، وإلى إعادة إنتاج مستمرة لروح عاشوراء في وجدان الأمة.

وفي خضمّ هذا الواقع، تحرّك الأئمة (عليهم السلام)، لا بوصفهم مجرد موجّهين روحيين فقط، بل بوصفهم قادة مشروعٍ رساليٍّ طويل النفس. فكان دورهم يتجاوز حدود البيان الفقهي إلى صناعة الإنسان، وإعادة تشكيل العلاقة بين الأمة وتاريخها، وبينها وبين إمامها الشهيد صلوات الله وسلامه عليه.

وهنا تتجلّى عبقرية التوجيه في تلك الروايات التي ربطت الزيارة بـ«المعرفة». لم يقولوا: من زار الإمام الحسين عليه السلام فله كذا، بإطلاقٍ يُفضي إلى التكرار الآلي، بل قيّدوا ذلك القيد الدقيق: «عارفاً بحقه». وكأنهم يريدون أن ينقلوا الزيارة من مستوى الحركة الجسدية إلى مستوى الحضور الواعي، من مجرد انتقالٍ في المكان إلى تحوّل في الوجود.





فما معنى أن تزور عارفاً بحقه؟

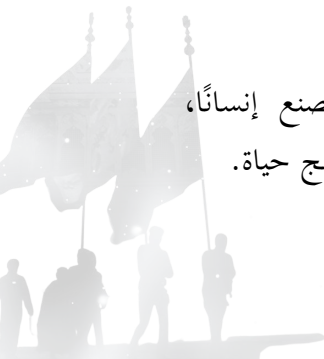
إنّ المعرفة هنا ليست معرفةً تاريخيةً بواقعة الطفّ، ولا ثقافةً عامّةً حول سيرة الإمام صلوات الله وسلامه عليه، بل هي إدراكٌ وجوديٌّ لمعنى الإمام الحسين (عليه السلام) في خطّ الإمامة، ولموقعه في معادلة الحقّ والباطل.

أن تعرفه إماماً مفترض الطاعة، أن تعرفه حجةً لله، أن تعرف أنّ خروجه لم يكن تمرّداً، بل كان حفظاً للدين، وأن دمه لم يكن خسارةً، بل كان إعادة تعريفٍ للحقّ في زمن الالتباس.

وحين تُربط الزيارة بهذه المعرفة، فإنها تتحوّل من طقسٍ إلى موقف، ومن عادةٍ إلى التزام. يصبح الزائر وهو يسير إلى كربلاء، لا يقطع المسافات بقدميه فقط، بل يقطع مسافةً أخرى في داخله، مسافةً بين الجهل والمعرفة، بين التردّد واليقين، بين الانفعال والوعي.

ولهذا، لم يكن مشروع الأئمة (عليهم السلام) قائماً على إحياء البكاء بوصفه غاية، بل بوصفه مدخلاً.

كانوا يريدون للدمعة أن تُنضج وعياً، وللزيارة أن تصنع إنساناً، وللارتباط بالإمام الحسين (عليه السلام) أن يتحوّل إلى منهج حياة.





ومن هنا نفهم لماذا جاء التأكيد على الزيارة في تلك النصوص بتلك الكثافة، وفي ذلك التوقيت بالذات. لم يكن ذلك ترفاً روحياً، بل ضرورةً رسالية. كان الأئمة يبنون، في مقابل مشروع الطمس، مشروع إحياء. وفي مقابل محاولات التغييب، حركة حضور. كانوا يعيدون وصل ما أرادت السلطة قطعه: الصلة الواعية بين الأمة وإمامها الشهيد صلوات الله وسلامه عليه.

إنّ الزيارة، في هذا السياق، لم تعد مجرد شعيرة، بل أصبحت وسيلة لإعادة تشكيل الهوية. فكلّ من يقف عند قبر الإمام الحسين (عليه السلام) عارفاً بحقه، إنما يعلن ولو بصمت موقفه من التاريخ، ومن الحاضر، ومن الصراع الممتد بين الحقّ والباطل. إنه يقول: أنا أنتمي إلى هذا الخط، إلى هذا الدم، إلى هذا الموقف.

وهنا، تتجاوز الرواية كونها خبراً عن ثواب، لتصبح جزءاً من هندسة تربوية عميقة. إنها تصوغ الإنسان من الداخل، تعيد ترتيب أولوياته، تعلّمه أن الدين ليس مجموعة طقوس منفصلة، بل هو موقف متكامل، وأن الحب الحقيقي للإمام الحسين (عليه السلام) لا يُقاس بكثرة الزيارة، بل بعمق التحوّل الذي تُحدثه هذه الزيارة في سلوك الإنسان ومواقفه.





ومن هذا المنطلق، يصبح السؤال الذي تختتم به الرواية في امتداده
الوجداني سؤالاً وجوديًا حقيقيًا: هل أنا ذاهبٌ إلى الإمام الحسين عليه
السلام... أم ذاهبٌ معه؟

الذهاب إليه يعني أن أزوره ثم أعود كما كنت، أحمل الذكرى دون أن
أحمل الرسالة. أمّا الذهاب معه، فهو أن يتحوّل الإمام الحسين (عليه
السلام) إلى بوصلة، إلى معيار، إلى حضورٍ دائم في قراراتي، في
مواقفي، في صمتي وكلامي.

الذهاب إليه حركةٌ قدم، والذهاب معه حركةٌ مصير.

وحين نضع الرواية في سياقها الكامل، ندرك أنّ الأئمة (عليهم السلام)
لم يكونوا يدعون الناس إلى زيارة قبرٍ فحسب، بل كانوا يدعونهم إلى
الدخول في مشروع الإمامة ومشروع الإمام الحسين (عليه السلام)،
إلى أن يكونوا امتدادًا له، لا مجرد زائرين عند ضريحه.

وهنا تكمن خطورة الرواية... وعظمتها في أنّ واحد.
فهي لا تمنحك طمأنينةً سهلة، بل تضعك أمام مسؤولية.
ولا تكتفي بأن تفتح لك باب الثواب، بل تفتح عليك باب السؤال:
هل عرفتَ حقّه... حقًا؟

وهل زيارتك كانت لقاءً... أم التزامًا؟





المحور الرابع

المحور الرابع: ما هو "الحق" الذي يجب معرفته؟
يمكن تفصيل "الحق" إلى مستويات:

- الحق العقائدي
- الحق الرسالي
- الحق المعرفي
- الحق العملي





المحور الرابع: ما هو "الحق" الذي يجب معرفته؟

حين نصل إلى سؤال "الحق"، فإننا لا نقف عند حدّ التعريف، بل ندخل إلى منطقة تتشكّل فيها هوية الإنسان، وتُعاد فيها صياغة علاقته بالدين، وبالإمام، وبنفسه. فـ"حق الحسين" ليس حدًّا معرفيًا يُكتفى بإدراكه، بل هو أفق وجودي يُعاد من خلاله بناء الإنسان من الداخل، حتى يصبح الإمام الحسين (عليه السلام) جزءًا من وعيه، لا مجرد محطة في ذاكرته.

ومن هنا، فإنّ تفصيل هذا "الحق" إلى مستويات أربعة ليس تقسيمًا اصطلاحيًا بقدر ما هو كشفٌ عن طبقاتٍ من الوعي، تتدرّج بالإنسان من المعرفة السطحية إلى الانتماء العميق، ومن الإدراك الذهني إلى التحقق العملي.

أولاً: الحق العقائدي

حين نلج باب "الحقّ العقائدي" في معرفة الإمام الحسين (عليه السلام)، فإننا لا نكون بإزاء فكرة تُضاف إلى رصيد المعرفة، بل أمام أصلٍ بُنى عليه بقية الرؤية كلّها؛ إذ إنّ موقع الإمام الحسين عليه السلام في البنية العقائدية ليس موقع شخصية عظيمة في سجلّ التاريخ، بل موقع ركنٍ في نظام الهداية الإلهية، لا يستقيم فهم الدين بدونه، ولا يكتمل الوعي الرسالي إلا بالانتماء إليه.



إنَّ الانطلاق في هذا الفهم يبدأ من إدراك أنَّ الرسالة التي جاء بها النبي محمد (صلى الله عليه وآله) لم تكن مشروعًا محدودًا بزمان البعثة، ولا منحصرةً في حياة النبي صلى الله عليه وآله، بل كانت مشروعًا ممتدًا في الزمن، يتطلَّب - بحكم طبيعته - امتدادًا يحفظه من التحريف، ويصونه من الانحراف، ويُيقِّيه حيًّا في ضمير الأمة. ومن هنا، لم يكن خطُّ الإمامة طارئًا على الدين، بل كان ضرورةً تفرضها حكمة الرسالة نفسها، بل والحكمة الإلهية أيضًا.

وفي هذا السياق، يظهر الإمام الحسين (عليه السلام) لا بوصفه امتدادًا نسبيًا لرسول الله صلى الله عليه وآله فحسب، بل بوصفه امتدادًا وظيفيًا، يحمل ذات الهمَّ الرسالي، ويقف في ذات الموقع من حيث المسؤولية عن حفظ الدين، وإن اختلفت الظروف والوسائل. إنَّ العلاقة بين النبي الأعظم صلى الله عليه وآله والإمام الحسين عليه السلام ليست علاقة نسبٍ فحسب، بل علاقة مشروع، علاقة نورٍ يمتدُّ في التاريخ ليواجه ظلمات التحريف.

وهنا، تتجلى الإمامة بوصفها موقعًا إلهيًا، لا يُفهم بمنطق التكريم الاجتماعي، ولا يُختزل في مقامٍ معنويٍّ مجرد، بل هو منصبٌ يرتبط بوظيفة الهداية. فالإمام عليه السلام، في الرؤية العقائدية، ليس مجرد عالمٍ أو قائدٍ أخلاقي، بل هو مرجعٌ معصوم، يُبين الدين كما أراده الله سبحانه وتعالى، ويقف سدًّا أمام كل محاولةٍ لتحريفه أو تمييعه.



وعندما نقول إنّ الإمام الحسين (عليه السلام) “حجّة من حجج الله”، فإننا لا نطلق تعبيراً وجدانياً، بل نقرّر حقيقةً عقائدية عميقة: أنّ وجوده، وكلامه، وموقفه، كلّها تمثل معياراً يُقاس به الحقّ. فالحجّة هي التي تقوم بها الحجّة على الناس، أي التي لا يبقى معها عذرٌ لمن انحرف أو ضلّ. ومن هنا، فإنّ معرفة الإمام الحسين عليه السلام بهذا المعنى تعني أن الإنسان لم يعد حرّاً في أن يتعامل مع الحقّ بمنطق الأهواء، لأنّ الميزان قد قام، والطريق قد وُضح.

وهذا ما يفسّر خطورة الجهل بالحجّة؛ إذ ليس الجهل هنا نقصاً معرفياً بسيطاً، بل هو انكشافٌ أمام الضلال. فالإنسان الذي لا يعرف إمامه، أو لا يدرك موقعه، يصبح عرضةً لكلّ خطابٍ مُضلل، ولكلّ سلطةٍ تُزيّن باطلها بلباس الدين. وهنا، تتحوّل معرفة الإمام الحسين عليه السلام من خيارٍ ثقافي إلى ضرورةٍ وجودية، لأنّها التي تحفظ للإنسان توازنه في زمن الفتن.

ثمّ تنتقل إلى موقع الإمام الحسين عليه السلام في منظومة الولاية، حيث تتعمّق الصورة أكثر. فالولاية، في جوهرها، ليست مجرد علاقة حبّ أو تعاطف، بل هي امتدادٌ للنبوة في بُعدها العملي، في حفظ الدين وتطبيقه في الواقع. إنها الجسر الذي يعبر به الدين من حيّز النصّ إلى حيّز الحياة. والإمام الحسين (عليه السلام) في هذا البناء ليس عنصراً هامشياً، بل هو من أعمدته الراسخة، التي يقوم عليها تماسك هذا البناء.



إنَّ تشبيه موقعه بالقلب من الجسد ليس مبالغةً بلاغيةً، بل تصوُّرٌ لحقيقة عميقة؛ فكما أنَّ القلب هو الذي يضخُّ الحياة في سائر الأعضاء، فإنَّ الولاية - المتجسِّدة في الأئمة (عليهم السلام) - هي التي تضخُّ الروح في جسد الدين، فتجعله حيًّا فاعلاً، لا نصوصاً جامدة. وإذا كان القلب إذا تعطلَّ تعطلَّ الجسد كلّهُ، فإنَّ الانفصال عن خطِّ الولاية يُفضي إلى فراغٍ روحيٍّ وفكريٍّ، يُفقد الدين فاعليته في حياة الإنسان.

ومن هنا، فإنَّ معرفة “حقِّ الحسين عليه السلام” في هذا المستوى تعني أموراً ثلاثة مترابطة، لا ينفصل بعضها عن بعض:

أنَّ تؤمن بإمامته بوصفها حقيقةً إلهية، لا خياراً بشرياً،

وأنَّ تعترف بمرجعيته بوصفه ميزاناً يُرجع إليه في فهم الدين،

وأنَّ تنقاد لخطِّه بوصفه الطريق الذي يُوصلك إلى الله سبحانه وتعالى.

وهذا الانقياد ليس خضوعاً شكلياً، بل هو التزامٌ واعٍ، ينبع من إدراك أنَّ الإمام الحسين (عليه السلام) لا يدعو إلى نفسه، بل إلى الله سبحانه وتعالى، ولا يمثِّل رأياً خاصاً، بل يجسِّد إرادة السماء في الأرض.

وحين يترسِّخ هذا الفهم في وجدان الإنسان، تتغيَّر علاقته بالإمام الحسين عليه السلام جذرياً. لم يعد الإمام الحسين عليه السلام ذكرى تُستحضر في موسم، ولا رمزاً يُحتفى به في خطاب، بل أصبح مرجعاً حيًّا، يُسأل عند كل مفترق طريق: أين يقف الإمام الحسين عليه السلام من هذا الموقف؟ ماذا كان سيفعل لو كان هنا؟



وهنا، فقط، يبدأ الإنسان بالدخول الحقيقي إلى عالم “معرفة الحق”،
لأنه لم يعد يكتفي بأن يعرف الإمام الحسين عليه السلام، بل بدأ يرى
من خلاله، ويزن به، ويهتدي بنوره.

وعند هذا الحدّ، ندرك أنّ الحقّ العقائدي ليس مقدّمةً فحسب، بل هو
الأساس الذي إن صحّ، صحّ البناء كلّهُ، وإن اختلف، اختلف معه كل
شيء. لأنّ من لم يعرف الإمام الحسين عليه السلام إماماً، لن يستطيع
أن يفهم ثورته رسالة، ولن يقدر أن يعيش ولائه التزاماً، ولن يبلغ أن
يسير معه مساراً.

وهكذا، يكون هذا المستوى هو النقطة التي يُولد عندها الإنسان
الحسينيّ... لا بالدمعة، بل بالبصيرة.

ثانيًا: الحق الرسالي

حين ننقل إلى “الحقّ الرسالي”، لم يعد السؤال: من هو الإمام
الحسين (عليه السلام)؟ بل: ماذا فعل الإمام الحسين عليه السلام؟
ولماذا فعل ما فعل؟ وكيف تحوّل فعله إلى معيارٍ ممتدّ في التاريخ؟.

إنّ فهم هذا الحقّ يقتضي أن نقرأ لحظة النهضة الحسينية لا بوصفها
حادثةً منفصلة، بل بوصفها نقطة اشتباكٍ حاسمة بين مسارين: مسارٍ
كان يسعى إلى صمس صورة الإسلام بتفريغهِ من مضمونه، ومسارٍ
آخر أراد أن يحفظ جوهر الإسلام، ولو كلّف ذلك أثماناً باهظة.



وفي قلب هذا الاشتباك، وقف الإمام الحسين (عليه السلام) ليحسم المعادلة: الدين ليس قشرة تُحفظ، بل حقيقة تُصان، ولو بالدم.

لقد كانت المرحلة التي واجهها الإمام الحسين (عليه السلام) مرحلة شديدة التعقيد؛ لم يكن الانحراف فيها ظاهراً في صورة كفرٍ صريح، بل كان متلبساً بلباس الدين، متزيّناً بشعاراته، ومتحدثاً باسمه. وهنا تكمن الخطورة؛ لأنّ التحدي لم يعد مواجهة عدوّ واضح، بل كشف زيفٍ متقن، وفضح انحرافٍ يُقدّم على أنّه امتدادٌ طبيعيٌّ للإسلام.

في هذا السياق، برز اسم يزيد بن معاوية عليه ما عليه بوصفه تجسيداً لسلطةٍ فقدت مضمونها القيمي، وإن احتفظت بمظهرها السياسي. لم يكن الإشكال في شخصه فحسب، بل في النموذج الذي يمثّله: نموذج الحكم الذي يفصل بين السلطة والقيم، ويحوّل الدين إلى أداة تبرير، لا إلى معيارٍ محاسبة. ومن هنا، لم يكن موقف الإمام الحسين (عليه السلام) رفضاً لشخص، بل رفضاً لمسارٍ كاملٍ يهدّد بإفراغ الإسلام من محتواه.

وهنا، تتجلّى عظمة “الحقّ الرسالي”؛ إذ إنّ الإمام الحسين (عليه السلام) لم يتحرّك بدافع ردّة الفعل، ولم يكن خروجه مجرد احتجاجٍ سياسي، بل كان وعياً عميقاً بأنّ بقاء هذا المسار دون مواجهة حاسمة سيؤدّي إلى تحوّل جذريّ في طبيعة الدين نفسه. كان يرى أنّ الخطر لم يعد في سقوط حكمٍ أو قيام آخر، بل في انهيار المعايير التي يُعرف بها الحقّ من الباطل.



ومن هنا، كان لا بدّ من موقفٍ يتجاوز الحسابات العسكرية إلى أفقٍ أوسع، موقفٍ لا يُقاس بنتيجته الميدانية، بل بأثره في الوعي.

فالإمام الحسين (عليه السلام) لم يدخل كربلاء ليُنتصر بالسيف، بل ليرسم بدمه خطأ لا يمكن طمسه، وليقول للأمة: إنّ الصمت أمام هذا الانحراف هو مشاركةٌ فيه، وإنّ السكوت عن الباطل، حين يُلبس لباس الحق، أخطر من الباطل نفسه.

وهنا، يتحوّل الفعل الحسيني من حدثٍ تاريخي إلى معيارٍ قيمي. إنّهُ انتقالٌ من “واقعة” إلى “قاعدة”، من مشهدٍ في الماضي إلى ميزانٍ في الحاضر. فما قدّمه الإمام الحسين (عليه السلام) لم يكن نصرًا عسكريًا، بل نصرًا في تعريف النصر نفسه؛ إذ أعاد صياغة المفهوم، ليكون الثبات على الحقّ هو النصر، حتى لو انتهى الظاهر إلى الشهادة.

ولذلك، فإنّ دمه لم يكن نهاية المعركة، بل بدايتها الحقيقية. لقد أقام حجةً لا يمكن إسكاتّها، لأنّها لم تُكتب بالحبر، بل حُطّت بالدم، ولم تُلقَ في خطابٍ عابر، بل تجسّدت في موقفٍ كامل.

ومن هنا، لم تستطع أيّ سلطةٍ مهما بلغت أن تُلغي أثر كربلاء، لأنّها لم تعد مجرد قصة، بل أصبحت ضميرًا حيًّا في وجدان الأمة.





ومن هذا المنطلق، نفهم كيف تحوّلت ثورة الإمام الحسين (عليه السلام) إلى خطّ مواجهةٍ دائمٍ مع الظلم. فهي ليست مرتبطةً بزمانٍ دون زمن، ولا بسياقٍ دون سياق، بل هي نموذجٌ يتكرّر كلّما تكرر الانحراف، وكلّما احتاج الحقّ إلى من يُعيد له صوته. إنّها حالةٌ مستمرة، وليست لحظةً منتهية.

وهنا، تتجاوز الحسينية حدود الانتماء الضيق، لتدخل في الفضاء الإنساني الواسع. لم يعد الإمام الحسين (عليه السلام) رمزاً لفئةٍ بعينها، بل أصبح عنواناً لكلّ من يبحث عن العدالة، وكلّ من يرفض الظلم، مهما كان دينه أو انتماءؤه. إنّ صوته، الذي ارتفع في كربلاء، لم يكن موجّهاً إلى جيلٍ واحد، بل إلى الإنسان بما هو إنسان.

ولهذا، فإنّ “حقّه” الرسالي لا يتحقّق بمجرد استذكار مأساته، بل بفهم رسالته. أن يفهم الإمام الحسين (عليه السلام) بوصفه صوتاً دائماً للحقّ، لا حدثاً يُروى، وأن يُقرأ موقفه بوصفه معياراً يُحتكم إليه، لا ذكرى تُستعاد. إنّ من يعرف حقّه في هذا المستوى، لا يكتفي بأن يكيه، بل يسأل نفسه في كلّ موقف: أين يقف الإمام الحسين عليه السلام من هذا المشهد؟ وأين أقف أنا؟

وعند هذا الحدّ، تتحوّل العلاقة بالإمام الحسين (عليه السلام) من علاقةٍ مع الماضي إلى علاقةٍ مع الحاضر والمستقبل. يصبح حضوره فاعلاً في القرارات، في المواقف، في طريقة فهم الدين والواقع.



وهنا، فقط، يبدأ “الحقّ الرسالي” في أداء وظيفته الحقيقية: أن يصنع إنساناً يرى بعين كربلاء، ويحاكم الواقع بميزانها، ويسير في الحياة وهو يحمل في داخله ذلك النداء الذي لا يخفت:

أن يكون الحقّ هو الغاية... مهما كان الثمن.

ثالثاً: الحقّ المعرفي

حين نصل إلى “الحقّ المعرفي”، فإننا نكون قد تجاوزنا عتبة الإيمان النظري، وملامسة المعنى الرسالي، لنقف أمام الامتحان الحقيقي:

هل ما نحمله عن الإمام الحسين (عليه السلام) هو مجرد انفعالٍ وجداني، أم هو وعيٌ مُحكّمٌ قادرٌ على أن يفسّر، ويحلّل، ويهدي؟

إنّ هذا المستوى يكشف عن فجوةٍ دقيقةٍ كثيراً ما تقع فيها النفوس؛ فجوةٍ بين الحبّ والفهم. فكم من قلبٍ يخفق باسم الإمام الحسين عليه السلام، وكم من عينٍ تدمع لمصابه، لكنّ هذه العاطفة على صدقها قد تبقى أسيرة اللحظة، عاجزةٌ عن التحوّل إلى بصيرة، ما لم تُغذّ بالمعرفة، وتُصقل بالفهم.



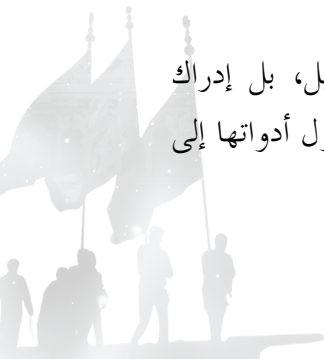


وهنا، لا يُراد بالمعرفة مجرد الاطلاع على أحداث كربلاء، أو حفظ تفاصيلها التاريخية، بل يُراد بها الدخول إلى عمق الحدث، إلى منطقته الداخلي، إلى شبكة القرارات التي اتخذها الإمام الحسين (عليه السلام)، وكيف تفاعلت مع الواقع، وكيف صنعت ذلك المشهد الفريد الذي لم يتكرر في التاريخ.

فحين نسأل: لماذا خرج الإمام الحسين عليه السلام؟ فإننا لا نبحث عن جوابٍ شعاري، بل عن تحليلٍ يُدرك طبيعة المرحلة، وتعقيداتها، والخيارات التي كانت مطروحة. وحين نسأل: لماذا لم يُساوم؟ ولماذا لم يتراجع؟ فإننا نقترّب من فهم ميزان القيم الذي كان يحكم حركته، ذلك الميزان الذي لم يكن يسمح بتقديم السلامة على الحقيقة، ولا بالمساومة على جوهر الدين مهما كانت الضغوط.

وفي هذا السياق، يبرز اسم عبيد الله بن زياد عليه ما عليه من اللعنات بوصفه أحد أدوات الضغط التي حاولت أن تُجبر الإمام الحسين (عليه السلام) على الخضوع، من خلال التهديد، والتضييق، وصناعة بيئةٍ خانقةٍ في الكوفة.

إنّ فهم هذا الدور لا يُراد منه مجرد الإحاطة بالتفاصيل، بل إدراك طبيعة السلطة حين تخاف من الكلمة الحرة، وكيف تتحوّل أدواتها إلى وسائلٍ قسريّةٍ تُراد بها مصادرة القرار.





وفي مقابل هذا المشهد الضاغط، تتجلّى بصيرة الإمام الحسين (عليه السلام) في أبهى صورها؛ إذ لم يكن يتحرّك بردود أفعالٍ متسرّعة، بل كان يرى المشهد من الأعلى، يقرأ نتائجه، ويدرك مآلاته. لقد كان يعلم أنّ الطريق الذي يسير فيه لن ينتهي بانتصارٍ عسكري، ومع ذلك مضى فيه، لا لأنّه يجهل النتيجة، بل لأنّه يعرف الغاية. وهنا، يتجلّى الفرق الجوهرى بين من يتحرّك بدافع الانفعال، ومن يتحرّك على أساس الرؤية.

إنّ دراسة مواقفه في كربلاء تكشف عن منهجٍ متكامل في إدارة الأزمات. فالإمام الحسين (عليه السلام) لم يُلغِ عنصر الحكمة، ولم يُهمل حسابات الواقع، لكنه في الوقت ذاته لم يسمح لهذه الحسابات أن تُفرغ الموقف من مضمونه القيمي. لقد كان يوازن، ولكنه كان يوازن ضمن إطارٍ واضح: المبدأ أولاً، ثم تأتي بعده كلّ الاعتبارات.

وحين نقرأ خطبه، وحواراته، واختياراته، ندرك أنّه كان يؤسّس لمدرسةٍ في التفكير، لا لمجرد موقفٍ عابر. مدرسة تُعلّم الإنسان كيف يتخذ قراره حين تتزاحم الضغوط، وكيف يحفظ إنسانيته حين تُطلب منه التنازلات، وكيف يبقى ثابتاً حين تتبدّل المواقف من حوله.

ومن هنا، فإنّ “الحقّ المعرفي” لا يتحقّق بالبكاء وحده، ولا بالعاطفة المجردة، بل بالسعي الجادّ إلى الفهم.





أن يتحوّل الزائر من متلقٍ للحدث إلى قارئٍ له، ومن مستمعٍ للقصة إلى محلّلٍ لمعانيها. أن يسأل، وأن يتأمل، وأن يُعيد قراءة كربلاء في ضوء واقعه، لا بوصفها ذكرى بعيدة، بل تجربة حيّة تُضيء له طريقه.

وهنا، تبدأ كربلاء في التحوّل من مشهدٍ خارجي إلى بنيةٍ داخلية. لم تعد شيئاً نذهب إليه في زمانٍ محدّد، بل شيئاً نحمّله في وعينا، ونرجع إليه كلّما اشتبهت علينا الطرق. تصبح مصدراً للفهم، لا مجرد مصدرٍ للحزن.

وعند هذا الحدّ، يتجلّى الفرق بين من “يحبّ الحسين عليه السلام” ومن “يعرف الحسين عليه السلام”. الأوّل يتأثر به، والثاني يهتدي به. الأوّل يعيش معه لحظة، والثاني يعيش به مساراً.

وهكذا، فإنّ “حقّه” المعرفي يضع الإنسان أمام مسؤوليةٍ لا تقلّ عن مسؤولية الحبّ، بل قد تفوقها أثراً: أن يسعى إلى أن يفهم، بقدر ما يسعى إلى أن يشعر. لأنّ الشعور، وإن كان يُحرّك القلب، فإنّ الفهم هو الذي يُوجّه الطريق.

وعند هذا المنعطف، يصبح السؤال أكثر دقّة، وأكثر إلحاحاً:

هل ما نحمّله عن الإمام الحسين (عليه السلام) هو صورةٌ نبيكيها... أم بصيرةٌ نهتدي بها؟





رابعًا: الحق العملي

حين نبلغ “الحق العملي”، لقد دخلنا إلى ميدان الامتحان الحقيقي؛ إذ لم يعد السؤال: ماذا نعرف عن الإمام الحسين (عليه السلام)؟ بل: ماذا نغيّر فينا بسبب هذه المعرفة؟ وما الذي تحوّل في سلوكنا، في قراراتنا، في مواقفنا اليومية؟

إنّ هذا المستوى هو الغاية التي كانت تتّجه إليها كلّ المستويات السابقة، لأنّ العقيدة إن لم تُثمر سلوكًا، والرسالة إن لم تتحوّل إلى موقف، والمعرفة إن لم تُترجم إلى عمل، بقيت كلّها تدور في دائرة الإمكان دون أن تمسّ أرض الواقع. ومن هنا، فإنّ “حقّ الحسين عليه السلام” في بُعد العملي ليس إضافةً جديدة، بل هو النتيجة الطبيعية لما قبله، والامتحان الصادق لصدقه.

فالإمام الحسين (عليه السلام) لم يخرج ليُعجب به الناس، ولا ليُخلّد اسمه في صفحات التاريخ فحسب، بل خرج ليصنع نموذجًا يُحتذى، وليقيم ميزانًا يُحتكم إليه في كلّ زمان.

وهذا يعني أنّ معرفته الحقيقية لا تُقاس بكمّ ما نقول عنه، بل بقدر ما نقرب منه في طريقة عيشنا للحياة.





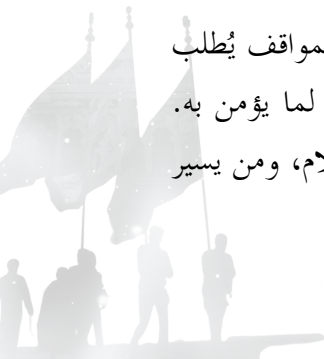
إنّ الالتزام بقيمه يبدأ من التفاصيل الصغيرة، قبل المواقف الكبرى. يبدأ من صدق الكلمة، من أمانة الموقف، من رفض الظلم ولو في أبسط صوره، من الانحياز إلى الحقّ حين يكون ذلك مكلفاً. فليس المطلوب أن يعيش الإنسان ميدان كربلاء بكلّ تفاصيله، بل أن يعيش روحه، أن يحمل ذلك الميزان الذي لم يسمح للإمام الحسين (عليه السلام) أن يساوم، وأن يجعله حاضرًا في اختياراته اليومية.

و حين نقول إنّ العدل يجب أن يصبح خيارًا يوميًا، فإننا لا نتحدّث عن مفهومٍ مجرّد، بل عن ممارسةٍ مستمرة:

في البيت، في العمل، في العلاقات، في الحكم على الآخرين. أن لا يُغلب الإنسان بهواه، ولا يُساق بمنفعته، بل يكون الحقّ عنده مقدّمًا، حتى لو خالف رغباته.

وكذلك، فإنّ التضحية التي جسّدها الإمام الحسين (عليه السلام) لا تُفهم على أنّها موقفٌ استثنائيّ لا يتكرّر، بل بوصفها استعدادًا دائمًا لبذل ما يلزم حين يُطلب الحقّ.

قد لا يُطلب من الإنسان أن يبذل دمه، لكنّ الحياة مليئةٌ بمواقف يُطلب فيها أن يبذل راحته، أو مصلحته، أو مكانته، ليبقى وفياً لما يؤمن به. وهنا يظهر الفارق بين من يُحبّ الإمام الحسين عليه السلام، ومن يسير معه.





أما الإصلاح، فهو البُعد الأكثر شمولاً في هذا الحق؛ لأنه لا يقف عند حدود الذات، ولا يذوب في هموم الفرد وحده، بل يمتد إلى المجتمع. غير أنّ هذا الامتداد لا يكون صادقاً إلا إذا بدأ من الداخل. فالإصلاح الحسيني ليس شعاراً يُرفع في وجه الآخرين، بل مسارٌ يبدأ بتقويم النفس، ومحاسبتها، وتخليصها من تناقضاتها، قبل أن يتوجّه إلى الخارج.

وهنا، تتغيّر دلالة الزيارة تغيّراً جذرياً. لم تعد حدثاً موسميّاً، يؤدّى ثم يُغادر، بل أصبحت محطةً لإعادة الضبط، ومراجعة المسار. يدخل الإنسان إلى الزيارة وهو يحمل أسئلته، ويخرج منها وهو يحمل التزاماته. يذهب إليها وهو مثقلٌ بعباداته، ويعود منها وهو أخفّ، لأنه تخلّى عن شيءٍ لا ينسجم مع خطّ الإمام الحسين عليه السلام.

إنّ “عارفاً بحقه” في هذا المستوى لا تعني أنّك استحضرت المعاني في ذهنك، بل أنّك سمحت لها أن تعيد تشكيلك. أن خرجت من الزيارة وأنت ترى الحياة بميزانٍ مختلف، وتزن الأمور بطريقةٍ أخرى، وتشعر أنّ الإمام الحسين (عليه السلام) لم يعد مجرد حضورٍ أمامك، بل أصبح حضوراً فيك.

وهنا، يبلغ “الحق” تمامه؛ لأنه لم يعد فكرةً تُفهم، بل حياةً تُعاش. يصبح الإمام الحسين (عليه السلام) حاضراً في قوارك حين تحترار، وفي موقفك حين تُختبر، وفي صمتك حين يكون الصمت خيانة، وفي كلامك حين يكون الكلام مسؤولية.



وعند هذا الحدّ، لا تعود العلاقة بالإمام الحسين عليه السلام علاقة مناسبة، بل علاقة مسار. لا تبدأ بزيارةٍ وتنتهي بها، بل تبدأ منها ولا تنتهي.

وهكذا، حين تكتمل هذه الدائرة: من العقيدة، إلى الرسالة، إلى المعرفة، إلى العمل، يتشكّل “حقّ الإمام الحسين عليه السلام” في صورته الكاملة، لا بوصفه مفهوماً نظرياً، بل بوصفه طريقاً يُسلك.

ومن سلك هذا الطريق...

لم يعد الإمام الحسين عليه السلام عنده ذكرى تُستعاد،

بل أصبح ميزاناً يُحتكم إليه،

ونوراً يُهتدى به،

وطريقاً يُسار عليه... خطوةً بعد خطوة



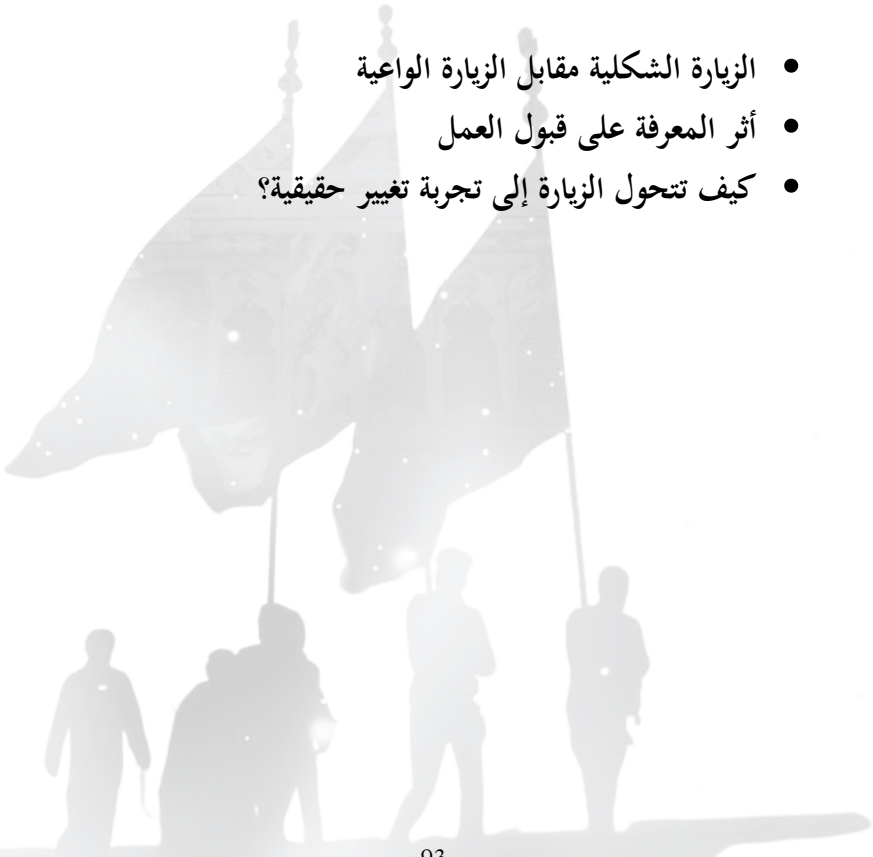


المكوار الخامس



المكوار الخامس: الفرق بين الزيارة العادية والزيارة "عارفاً بحقه"

- الزيارة الشكلية مقابل الزيارة الواعية
- أثر المعرفة على قبول العمل
- كيف تتحول الزيارة إلى تجربة تغيير حقيقية؟





المحور الخامس: الفرق بين الزيارة العادية والزيارة “عارفاً بحقه”

إنّ هذا السؤال لا يفتح باب المقارنة بين صورتين متشابهتين فحسب، بل يكشف عن مفترق طريق في جوهر العلاقة مع الإمام الحسين (عليه السلام): طريق يقف عند حدود الفعل، وطريق يتوغّل إلى عمق المعنى. فليست المشكلة في أن يصل الإنسان إلى كربلاء، بل في: أيّ كربلاء وصل إليها؟ وأيّ حسين التقى به؟

الزيارة العادية قد تتحقّق بسهولة في ظاهرها؛ حركة سفر، ووقوف عند الضريح، وأداء نصوص محفوظة، وربما دمعة صادقة. وهي - في أصلها - ليست مذمومة، بل هي خطوة أولى، ومدخل كريم، لكنّها قد تبقى أسيرة الصورة إن لم تُعَدَّ بالوعي. فقد يخرج الإنسان منها كما دخل: محمّلاً بعاطفة لم تُترجم، وبذكرى لم تتحوّل إلى معيار. هنا، تكون الزيارة أشبه بمرورٍ عابرٍ على حدثٍ عظيم، يُحرّك الوجدان لحظةً، ثم يترك الحياة كما هي، دون أن يُعيد ترتيبها.

أمّا الزيارة “عارفاً بحقه”، فهي انتقالٌ من الفعل إلى الحضور، ومن الأداء إلى التحقق. إنّها زيارةٌ لا تبدأ عند بوابة كربلاء، بل تبدأ قبلها، في السؤال الذي يسبق الخطوة: من هو الإمام الحسين (عليه السلام) بالنسبة إليّ؟ ماذا يعني أن أقف بين يديه؟ وما الذي أريد أن أخرج به من هذا اللقاء؟



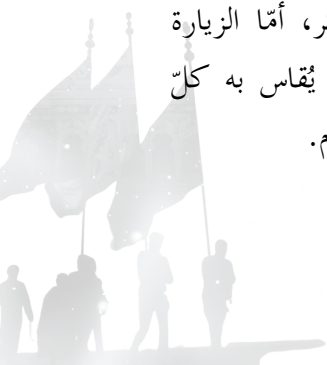
وحين يصل هذا الزائر، لا يقف أمام الضريح الشريف بوصفه مزارًا فحسب، بل بوصفه ميزانًا. يقرأ الزيارة لا كألفاظ تُتلى، بل كعهود تُستعاد، وكأنّ كلّ عبارة تسأله: هل أنت مستعدّ لأن تحمل هذا المعنى في حياتك؟

في الزيارة العادية، يكون الإمام الحسين (عليه السلام) مقصداً؛ نصل إليه، ثم نغادر. أمّا في الزيارة الواعية، فيصبح مساراً؛ نبدأ به، ثم نمضي معه.

في الأولى، تكون العلاقة لحظةً شعورية. وفي الثانية، تصبح بنيةً وجودية.

في الأولى، قد يبكي الإنسان، لكنّه لا يُغيّر شيئاً. وفي الثانية، قد يبكي... ثم يكتشف أنّ البكاء ليس نهاية الطريق، بل بدايته؛ لأنّه فتح باب التحوّل.

إنّ الفارق الجوهرى بينهما أنّ الزيارة العادية قد تُبقي الإمام الحسين (عليه السلام) خارج الإنسان، موضوعاً للتكريم والذكر، أمّا الزيارة “عارفاً بحقه” فتدخله إلى الداخل، ليصبح معياراً حيّاً يُقاس به كلّ شيء: الموقف، والقرار، والعلاقة، وحتى الصمت والكلام.





وهنا تتجلى تلك المسافة الخفية التي لا تُقاس بالأميال، بل بالبصيرة. قد يسير اثنان الطريق نفسه، ويقفان في المكان نفسه، لكن أحدهما يعود بالإمام الحسين عليه السلام ذكرى، والآخر يعود به طريقاً.

ولهذا، فإنّ السؤال الذي ينبغي أن يُطرح لا يكون عند الوصول فقط، بل بعد الرجوع: ماذا بقي من الإمام الحسين (عليه السلام) فيّ؟ هل تغيّر ميزاني؟ هل صرْتُ أرى الحقّ أوضح؟ هل أصبحت أجراً على رفض الباطل؟ هل اقتربتُ من القيم التي استشهد من أجلها؟

إنّ الزيارة الواعية لا تُقاس بمدة البقاء عند الضريح الشريف، بل بمدة حضور الإمام الحسين عليه السلام في الحياة بعده. فكم من زيارة قصيرة في الزمن، طويلة في الأثر، وكم من زيارة طويلة في الزمن، قصيرة في الأثر.

ومن هنا، فإنّ الفرق بين الزيارتين ليس فرقاً في الشكل، بل في النتيجة: إحداها تنتهي عند العتبة... والأخرى تبدأ منها.

وعند هذا الحدّ، يعود السؤال الأول، لكن بصيغة أشدّ صدقاً: حين سرْتُ إلى الإمام الحسين (عليه السلام)... هل كنتُ أقترّب منه...

أم كنتُ أقترّب من نفسي كما يريدّها هو؟





أولاً: الزيارة الشكلية مقابل الزيارة الواعية

إنّ هذا التفريق بين “الزيارة الشكلية” و “الزيارة الواعية” ليس مجرد توصيفٍ لحالتين، بل هو كشفٌ عن مستويين في التدبّين ذاته: تدبّينٍ يكتفي بالصورة، وتدبّينٍ ينفذ إلى الجوهر. وبينهما مسافةٌ ليست في الخطوات، بل في نوع الحضور الذي يحمله الإنسان معه إلى الإمام الحسين (عليه السلام).

فالزيارة الشكلية، وإن بدت مكتملة الأركان في ظاهرها، قد تتحوّل - مع التكرار غير الواعي - إلى ممارسةٍ مألوفة، تؤدّي كما تؤدّي العادات، دون أن تُستدعى لها الأسئلة، أو يُستحضر فيها المعنى. يدخل الإنسان إلى كربلاء وهو يعرف ما سيفعل: أين يقف، ماذا يقرأ، متى يركع... لكنه لا يعرف ماذا سيتغيّر فيه بعد ذلك.

إنّها زيارةٌ محفوظة المسار، محدّدة الملامح، تُعيد إنتاج نفسها كلّ مرّة، حتى تكاد تفقد عنصر الدهشة، وتفقد معه قدرتها على إحداث التحوّل.

وفي هذا النمط من الزيارة، تبقى العلاقة مع الإمام الحسين (عليه السلام) خارجية؛ علاقة زائرٍ بمزار، أو محبٍّ برمز. قد تكون صادقةً في عاطفتها، لكنّها لا تتجاوز حدود التأثّر اللحظي، لأنّها لم تُدعّم بفعلٍ داخليٍّ يعيد ترتيب الإنسان من الداخل. وهنا تكمن محدوديتها: أنّها تُحرّك القلب، لكنها لا تُعيد تشكيله.



أما الزيارة الواعية، فهي تجربةٌ من نوعٍ آخرٍ تمامًا. إنَّها لا تبدأ عند الضريح الشريف، بل تبدأ قبل ذلك، في القلق الذي يحمله الإنسان، في الأسئلة التي تُثقله، في الرغبة الصادقة في أن يفهم، لا أن يشعر فقط. يدخل الزائر إلى كربلاء وهو مفتوحٌ على الاحتمال، مستعدٌّ لأن يتغيّر، لا ليؤدّي ما اعتاده.

وهنا، يتحوّل “الحضور” إلى “شهود”. الحضور هو أن تكون هناك بجسدك، أما الشهود فهو أن ترى ما وراء المكان، أن تلتقط المعنى الكامن في كلّ تفصيل، وأن تشعر أنّك لست واقفًا أمام ضريح الشريف فحسب، بل أمام موقفٍ يُخاطبك، ويستدعيك، ويضعك في موضع السؤال.

في هذه الزيارة، لا تبقى الكلمات ألفاظًا تُتلى، بل تتحوّل إلى عهود. حين تقول: “إني سلّم لمن سالمكم”، فإنّك لا تمرّ عليها مروحًا، بل تتوقّف عندها: هل أنا فعلاً كذلك؟ وحين تقول: “وحربٌ لمن حاربكم”، فإنّك تُعيد النظر في موقفك: هل أنا واضحٌ في انحيازي، أم أنني أساوم حين تُختبر القيم؟

وهنا، تتحوّل الدموع أيضًا؛ لم تعد مجرد انفعالٍ بالمصيبة، بل أصبحت تعبيرًا عن وعيٍ يتشكّل، وعن موقفٍ يولد. دمعَةٌ تحمل في داخلها قرارًا، لا مجرد إحساس. دمعَةٌ تقول: لن أكون محايدًا بعد اليوم، ولن أتعامل مع الحقّ والباطل بوصفهما خيارين متكافئين.



كما أنّ الخطوات نفسها تكتسب معنيّ جديدًا؛ لم تعد مجرد انتقالٍ في المكان، بل أصبحت مسارًا داخليًا. كلّ خطوة هي اقترابٌ من وضوحٍ أكبر، ومن صدقٍ أعمق، ومن استعدادٍ أعلى لتحمل تبعات الانتماء.

ومن هنا، فإنّ الفرق الجوهرية بين الزيارتين لا يُقاس بما يُرى، بل بما لا يُرى. قد يتشابهان في الصورة إلى حدّ التطابق، لكنّ أحدهما يخرج بالإنسان كما هو، والآخر يُخرجه إنسانًا آخر.

الأولى قد تُشبه نفسها كلّ عام، لأنّها لا تتجاوز ما اعتادته النفس. أمّا الثانية، فهي تتجدّد في كلّ مرّة، لأنّها تنفذ إلى منطقة التغيّر.

الأولى تُريح الضمير، لأنها تُشعر الإنسان أنّه أدّى ما عليه. أمّا الثانية، فتُوقظ الضمير، لأنها تضعه أمام ما يجب أن يكون عليه.

الأولى تنتهي عند حدود الطقس.

والثانية تبدأ منه لتبني مسارًا.

وعند هذا الحدّ، لا يعود السؤال: هل زرت الإمام الحسين (عليه السلام)؟

بل يصبح: أي نوع من الزيارة عشت؟

وهل خرجت منها وقد أضفت ذكرى إلى ذاكرتي...

أم أضفت معنيّ إلى حياتي؟



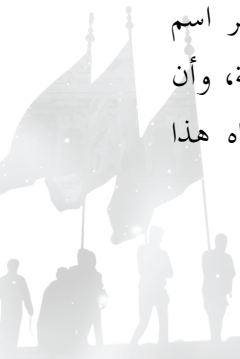


ثانيًا: أثر المعرفة على قبول العمل

إنَّ التأمل في اشتراط الروايات - ولا سيَّما ما ورد عن الإمام جعفر الصادق - أن تكون الزيارة “عارفًا بحقه”، يفتح أمامنا أفقًا يتجاوز ظاهر العبادة إلى عمقها الوجودي؛ إذ لا يعود العمل مجرد حركة في الجسد، ولا طقسًا يُؤدَّى في زمنٍ محدّد، بل يتحوّل إلى حدثٍ داخليٍّ يُعاد فيه تشكيل الإنسان من حيث يدري أو لا يدري. فالمعرفة هنا ليست زينة تُضاف إلى العمل، ولا شرطًا ثانويًا يُكَمِّل صورته، بل هي روحه التي إن غابت، غاب معه المعنى، وإن حضرت، أشرقت من خلالها كلُّ أبعاد الفعل.

ولكي تتّضح الصورة أكثر، ينبغي أن نفرّق بين مستويين من المعرفة: معرفة ذهنيّة تُخترن في الذاكرة، ومعرفة قلبيّة تتحوّل إلى وعيٍ حيٍّ يرافق الإنسان في نظرتة، وشعوره، واختياره. فالأولى قد تُنتج قارئًا أو حافظًا، لكنها لا تصنع بالضرورة إنسانًا متحوّلًا، أمّا الثانية فهي التي تُنشئ في الداخل يقظةً مستمرّة، تجعل العمل انعكاسًا صادقًا لما استقرّ في القلب من حقائق.

ومن هنا، فإنّ قولهم “عارفًا بحقه” لا يُراد به أن يعرف الزائر اسم المزور أو سيرته فحسب، بل أن يدرك موقعه في منظومة الهداية، وأن يستوعب امتداد رسالته في الحياة، وأن يشعر بمسؤوليته تجاه هذا الامتداد.

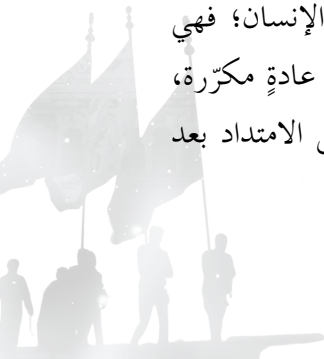




وعند هذه النقطة، تبدأ الزيارة بالتحوّل من فعلٍ منفصلٍ عن الحياة إلى محورٍ يُعيد تنظيمها. فالزائر الذي يحمل هذه المعرفة لا يقف عند حدود القبر الشريف، بل يرى في الزيارة عهدًا يُجدّد، ومسارًا يُستأنف. إنّه لا يأتي لئيفرغ مشاعره ثم يعود كما كان، بل يأتي لئُعيد تعريف نفسه على ضوء من يزور. وحينئذٍ، تصبح كلّ حركةٍ في الزيارة - من السلام، إلى الوقوف، إلى الدعاء - محمّلةً بدلالاتٍ تتجاوز ظاهرها، لأنّها تصدر عن قلبٍ يعلم، وعن عقلٍ يُدرّك، وعن إرادةٍ بدأت تتشكّل من جديد.

وفي المقابل، حين تغيب هذه المعرفة، يبقى العمل أسير ظاهره، مهما بدا كبيرًا في أعين الناس. فقد يقطع الإنسان المسافات الطويلة، ويُجهد بدنه، وتفيض عيناه بالدموع، لكنّ كلّ ذلك لا يضمن بالضرورة أن يكون قد بلغ مرتبة القبول؛ لأنّ القبول - في ميزان الدين - ليس مرهونًا بحجم التضحية الظاهرة، بل بمدى حضور الحقيقة في داخل هذا العمل. وهنا يكمن السرّ الذي يغفل عنه كثيرون: أنّ العمل قد يكون عظيمًا في صورته، لكنّه محدود الأثر في حقيقته، إذا لم يكن مسنودًا ببصيرةٍ تُحدّد وجهته وتُصحّح مساره.

إنّ المعرفة، بهذا المعنى، تعمل عمل البوصلة في قلب الإنسان؛ فهي التي تمنع العمل من التشتت، وتحفظه من أن يتحوّل إلى عادةٍ مكرّرة، أو إلى طقسٍ خالٍ من الروح. بل إنّها تمنحه القدرة على الامتداد بعد انتهاء الفعل نفسه.





فالزيارة التي تقوم على معرفةٍ لا تنتهي عند لحظة الوداع، بل تبدأ بعدها مرحلةً أعمق، حيث يتحوّل أثرها إلى سلوكٍ، وموقفٍ، واختيارٍ يوميّ. وهنا يظهر الفارق الجوهرى بين من زار “عارفاً” ومن زار “مجرّد زائرٍ”: الأوّل يعود وهو يحمل شيئاً جديداً في داخله، أمّا الثاني فقد يعود بما كان يحمله قبل الزيارة، وإن ظنّ أنّه قد تغيّر.

ومن زاويةٍ أدقّ، يمكن القول إنّ المعرفة تُعيد صياغة النية ذاتها. فالنية في العمل ليست مجرّد قصدٍ عابر، بل هي خلاصة ما يخترنه الإنسان من تصوّراتٍ وقناعات. فإذا كانت هذه التصرّوات مشبعةً بالمعرفة، انعكست على النية صفاءً وصدقاً، وإذا كانت سطحيةً أو مضطربة، انعكس ذلك اضطراباً في العمل، وإن بدا من الخارج متماسكاً. ولهذا، فإنّ اشتراط المعرفة ليس تقييداً للعمل، بل هو في حقيقته تحريرٌ له من السطحية، ورفعهُ إلى مستوى يليق بأن يكون مقبولاً عند الله.

وعلى هذا الأساس، يتّضح أنّ تأكيد الأئمة (عليهم السلام) على هذا القيد إنّما هو توجيهٌ نحو الجوهر، لا نحو الشكل. إنهم يريدون للعمل أن يكون حياً، نابضاً، قادراً على أن يُحدث أثراً حقيقياً في صاحبه، لا أن يكون مجرّد أداءٍ يُضاف إلى سجلّ الأعمال. ومن هنا، فإنّ المعرفة ليست شرطاً سابقاً على العمل فحسب، بل هي رفيقته في كلّ مراحلها: تُنشئه ابتداءً، وتُغذيّه أثناءه، وتُثمر بعده.





وبهذا المعنى العميق، يمكن أن نفهم لماذا كانت المعرفة ميزان القبول؛ لأنها هي التي تكشف حقيقة العمل من داخله، وتُظهر ما إذا كان متصلاً بمصدر الهداية أم منفصلاً عنه. فليس كل ما يُرى عملاً في الظاهر يكون كذلك في الباطن، وليس كل ما يُؤدَّى يُكتب مقبولاً، بل إنّ القبول سرٌّ يتعلّق بما وراء الصورة، بما في القلب من وعي، وبما في النفس من صدق، وبما في العقل من إدراكٍ لطبيعة ما يقوم به الإنسان.

وهكذا، تتجلّى الحقيقة في أبهى صورها: أنّ العمل بلا معرفة كجسد بلا روح، وأنّ المعرفة بلا عمل كروح بلا تجلٍّ، أمّا حين يجتمعان، فإنّهما يصنعان ذلك الفعل الحيّ الذي يرتقي بصاحبه، ويُقرّبه، ويمنحه نصيباً من القبول الذي هو غاية كلّ ساعٍ في طريق الله سبحانه وتعالى.

ثالثاً: كيف تتحول الزيارة إلى تجربة تغيير حقيقية؟

إنّ السؤال عن كيفية تحوّل الزيارة إلى تجربة تغيير حقيقية هو سؤال عن طبيعة العلاقة بين الإنسان والحقيقة التي يقصدها. فالزيارة - في جوهرها - ليست انتقالاً في المكان، بل انتقالاً في الوعي؛ وليست وصولاً إلى مقامٍ مقدّس فحسب، بل هي محاولة للوصول إلى معنى يتجاوز المكان، ويتسرّب إلى عمق الذات ليعيد تشكيلها. ومن هنا، فإنّ التحوّل لا يُفهم بوصفه أثراً عارضاً للزيارة، بل بوصفه غايتها الباطنية التي لأجلها شرّعت، والتي تتفاوت فيها الناس بقدر ما يختلفون في استعدادهم الداخلي.





حين نُمعن النظر في المرحلة الأولى - مرحلة التهيئة - ندرك أنّها ليست مجرد تمهيدٍ شكلي، بل هي لحظة تأسيسٍ للمعنى الذي سيحكم التجربة كلّها. إنّ دخول الزائر وهو يحمل سؤالاً حيّاً: “ماذا يعني الإمام الحسين عليه السلام في حياتي؟” هو في الحقيقة إعلانٌ ضمّنيّ بأنّه لا يريد أن يمرّ مروراً عابراً، بل أن يُصغي، أن يتلقّى، أن يُراجع ذاته على ضوء هذا الاسم الذي لم يكن في التاريخ مجرد شخص، بل كان مشروعاً، موقفاً، وميزاناً للحق. وفي هذا السياق، لا يعود السؤال مجرد استفهامٍ ذهني، بل يتحوّل إلى حالةٍ من الترقّب الداخلي، كأنّ القلب ينتظر جواباً، وكأنّ الروح تنهّياً لاستقبال ما لم تكن قد وعته من قبل.

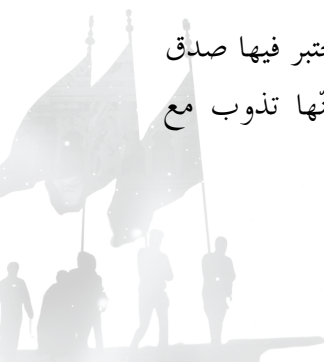
وهنا يتجلّى دور المعرفة التي أُشير إليها في الروايات عن الإمام الحسين بن علي عليهما السلام، بوصفها المدخل الحقيقي لهذه التجربة. فالمعرفة لا تعني أن يعرف الزائر وقائع معركة كربلاء أو تفاصيلها فحسب، بل أن يُدرك أنّ هذه الواقعة ليست حدثاً منتهياً، بل هي خطابٌ مفتوحٌ لكلّ زمن، وأنّ السؤال الذي طُرح هناك ما يزال يُطرح هنا: أين تقف حين يختلط الحق بالباطل؟ وما هو موقعك حين تُختبر القيم في واقعك الخاص؟ بهذا الفهم، تصبح التهيئة حالةً من إعادة توجيه البوصلة الداخلية، بحيث لا يدخل الإنسان إلى الزيارة بوصفه متلقياً سلبياً، بل بوصفه مشاركاً في حوارٍ لم ينقطع منذ قرون.



أما في المرحلة الثانية - مرحلة المعاشية - فإنّ الفارق الجوهرى يظهر بين من "يؤدّي" الزيارة ومن "يعيشها". فالأول يمرّ على النصوص مروراً، وربما يُحسن قراءتها، لكنّه لا يسمح لها أن تنفذ إلى داخله، أمّا الثاني فإنّه يتوقّف عند كلّ عبارة كأنّها تُخاطبه شخصياً، كأنّها تُعيد طرح السؤال عليه: هل أنت جزءٌ من هذا الخطّ أم مجرد مُعجبٍ به؟ وهنا تتحوّل الزيارة إلى مرآةٍ دقيقة، لا تُظهر للإنسان صورته التي يحبّها، بل صورته كما هي. في هذا المقام، لا يعود الإمام الحسين (عليه السلام) مجرد رمزٍ يُكى عليه، بل يصبح معياراً تُقاس به المواقف: صدقك حين تُغري المصلحة، عدلك حين تميل الكفّة، شجاعتك حين يثقل ثمن الحق.

هذه اللحظة لحظة المواجهة هي في الحقيقة لحظة التحوّل الأولى، لأنّها تكشف الفجوة بين ما يعتقدّه الإنسان عن نفسه وما هو عليه في الواقع. وليس المطلوب هنا أن يخرج الإنسان مثاليّاً، بل أن يخرج صادقاً؛ أن يعترف بما يحتاج إلى إصلاح، وأن يرى بوضوح أين ينبغي أن يبدأ. فالتحوّل لا يبدأ من الكمال، بل من هذا الاعتراف الهادئ الذي لا يراه أحد، لكنّه يفتح باباً واسعاً للتغيير.

ثم تأتي المرحلة الثالثة - مرحلة الامتداد - وهي التي يُختبر فيها صدق التجربة. فكثيرون يعيشون لحظاتٍ روحيةً عميقة، لكنّها تذوب مع أول احتكاكٍ بالحياة اليومية، لأنّها لم تتحوّل إلى قرار.





وهنا يكمن الفرق بين التأثر العابر والتحوّل الحقيقي: الأول شعور، والثاني اختيار. إنّ الزيارة التي تُثمر تغييرًا هي تلك التي تُنتج في داخل الإنسان التزامًا، ولو بسيطًا، لكنّه واضح ومحدّد. قد يكون هذا الالتزام ترك عادةٍ سلبية، أو إصلاح علاقة، أو اتخاذ موقفٍ كان يؤجّله، أو حتى إعادة ترتيب أولوياته على ضوء ما أدركه.

وما يلفت النظر أنّ هذا التحوّل لا يشترط أن يكون صاحبًا أو جذريًا منذ اللحظة الأولى؛ بل غالبًا ما يبدأ هادئًا، كأنّه بذرةٌ زُرعت في الداخل. غير أنّ هذه البذرة، إذا سُقيت بالوعي واستمرّت بالمجاهدة، فإنّها تنمو تدريجيًا لتصبح مسارًا جديدًا في الحياة. وهنا تتجلّى حقيقة أنّ الزيارة لا تنتهي عند باب الحرم، بل تبدأ منه؛ لأنّ القيمة الحقيقية لما حدث لا تُقاس بما شعر به الإنسان هناك، بل بما أصبح عليه بعد أن عاد.

ومن هذا المنظور، يتّضح أنّ الفرق بين الزيارة العادية والزيارة “عارفاً بحقه” ليس فرقًا في الأفعال الظاهرة، بل في النتائج الباطنة. فقد يتشابه الناس في الطريق، وفي الكلمات، وفي الطقوس، لكنّهم يختلفون جذريًا في ما يخرجون به من هذه الرحلة. فهناك من ينتهي عند حدود التجربة، وهناك من تبدأ عنده رحلةٌ جديدة.





ولهذا، فإنَّ العبارة التي تبدو بسيطة في ظاهرها “فمن زار الإمام الحسين صلوات الله عليه ولم يتغيّر، فقد حضر... ومن زاره فتغيّر، فقد وصل” تختصر مسافةً طويلةً بين حضور الجسد ووصول الروح. فالحضور قد يتحقّق بالخطوات، أمّا الوصول فلا يتحقّق إلا حين تُحدث هذه الخطوات أثرًا في الداخل، يعيد صياغة العلاقة بين الإنسان ونفسه، وبين الإنسان وربّه، وبين الإنسان والقيم التي يدّعي الانتماء إليها.

وهكذا، يصبح التحوّل هو العلامة الفارقة، لا لأنّه نتيجةٌ إضافية، بل لأنّه الدليل الوحيد على أنّ الزيارة قد لامست جوهرها الحقيقي؛ جوهرها الذي لا يقف عند حدود الذكرى، بل يتجاوزها ليصنع إنسانًا جديدًا، أو على الأقل، إنسانًا بدأ يرى طريقه بوضوح أكبر، ويسير فيه بخطوةٍ أكثر صدقًا وثباتًا.

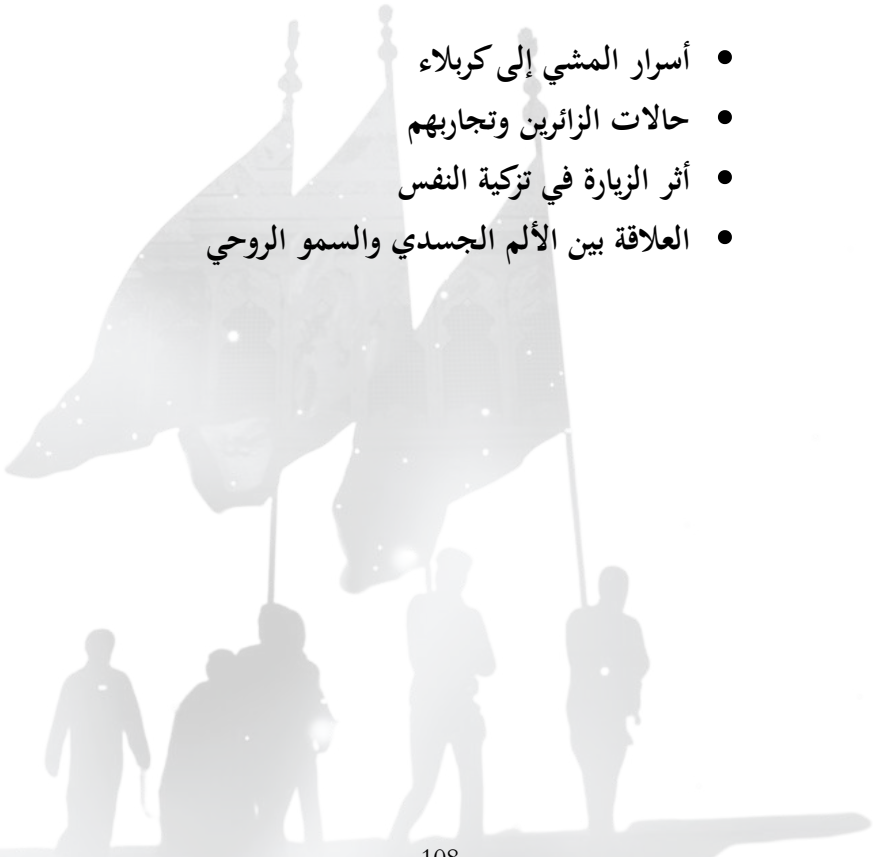




المحور السادس

المحور السادس: البعد الروحي لزيارة الأربعين

- أسرار المشي إلى كربلاء
- حالات الزائرين وتجاربهم
- أثر الزيارة في تزكية النفس
- العلاقة بين الألم الجسدي والسمو الروحي





المحور السادس: البعد الروحي لزيارة الأربعين

ليست زيارة الأربعين مجرد حركة في الجغرافيا، بل هي . في جوهرها . عبورٌ دقيق من طبقات السطح إلى أعماق الكينونة إذا جاز لنا التعبير بذلك؛ انتقالٌ من إنسانٍ مثقلٍ بتفاصيل يومه، إلى إنسانٍ يجرؤ على أن يرى نفسه كما هي، بلا أقنعة، ولا مبررات، ولا ضجيجٍ يُخفي صوته الداخلي. ففي هذه الرحلة، لا يكون الطريق هو المسافة الممتدة نحو كربلاء فحسب، بل هو المسافة التي يقطعها القلب وهو يتخفف تدريجيًا من تعلقاته، من عاداته، من تلك التراكمات التي حجبت عنه صفاءه الأول.

إنّ البعد الروحي لهذه الزيارة يتجلّى في كونها لحظة انكشافٍ لا تُشبه سواها؛ إذ يجد الإنسان نفسه، في حضرة الإمام الحسين بن علي عليهما السلام، أمام ميزانٍ لا يقيس المظاهر، بل يزن الحقائق.

هنا، لا قيمة لما يُقال بقدر ما قيمة لما يُحسّ، ولا لما يُظهره الإنسان بقدر ما لما يعيشه في داخله. إنّها وقفة يُعاد فيها ترتيب الأولويات، وكأنّ الروح، بعد طول انشغال، وجدت فسحةً لتتذكّر لماذا خلقت، وإلى أين ينبغي أن تتّجه.





وفي هذا السياق، تتجلى إحدى أعظم خصائص هذه الرحلة: أنّها تُعيد الإنسان إلى بساطته الأولى. فالزائر، وهو يسير بين الجموع، يذوب في إنسانيةٍ مشتركة، تسقط فيها الفوارق، وتبهت فيها الهويات الضيقة، ليبقى جوهرٌ واحد: إنسانٌ يبحث عن الله سبحانه وتعالى من طريق الإمام الحسين عليه السلام. وهذا الذوبان ليس فقداناً للذات، بل هو اكتشافٌ لها في صورتها الأصدق، حين تتحرّر من تضخمها، وتعود إلى حجمها الطبيعي أمام عظمة المعنى الذي تقصده.

ثم إنّ هذا البعد الروحي لا يتكوّن من لحظةٍ واحدة، بل هو تراكمٌ لحالاتٍ دقيقة: نظرةٌ تأمل، دمعةٌ صادقة، دعاءٌ يخرج من الأعماق، خطوةٌ تُخطى بإرادةٍ مختلفة عما قبلها. وكلّ واحدةٍ من هذه اللحظات، وإن بدت صغيرة، تترك أثراً خفياً، كأنّها تُنقي الداخل شيئاً فشيئاً، حتى يصل الإنسان إلى حالةٍ من الصفاء لم يكن يتوقعها. وهنا، يصبح السير نفسه عبادةً، لا لأنّه مجرد حركة، بل لأنّه تحوّل مستمر في النية، في الشعور، في الوعي.

ولعلّ أعمق ما في هذا البعد الروحي أنّه يُعيد تعريف العلاقة بين الإنسان وربّه عبر بوابة الإمام الحسين (عليه السلام). فالإمام الحسين عليه السلام ليس محطةً بديلة، بل هو مرآةٌ تُرى فيها الحقيقة الإلهية بأوضح صورها؛ تضحيةٌ خالصة، وصدقٌ لا يتلون، وثباتٌ لا ينكسر. وحين يقف الزائر أمام هذا النموذج، لا يستطيع أن يبقى كما كان؛ لأنّ الروح، إذا لامست هذا الصفاء، تبدأ - ولو ببطء - في إعادة تشكيل نفسها على شاكلته.



غير أنّ هذه الرحلة، بكلّ ما فيها من شحنٍ روحي، لا تكتمل إلا إذا تحوّلت إلى أثرٍ باقٍ. فالبعد الروحي ليس لحظةً وجدٍ تنتهي، بل هو بذرةٌ مسار. إنّ ذلك التغيّر الهادئ الذي يبدأ في الداخل، فيعيد ترتيب علاقة الإنسان بصلاته، بكلمته، بموقفه، بخياراته اليومية. قد لا يظهر هذا التحوّل مباشرة، وقد لا يلتفت إليه الآخرون، لكنّه، في عمقه، هو الثمرة الحقيقية لما عاشه الإنسان في تلك الأيام.

وهكذا، تتّضح حقيقة هذه الزيارة: أنّها ليست هروبًا من العالم، بل عودةً إليه بروحٍ مختلفة؛ ليست انقطاعًا عن الحياة، بل إعادة اتصالٍ بها على أساسٍ أصدق. فمن دخلها باحثًا عن معنى، وسمح لقلبه أن ينصت، خرج منها وهو يحمل في داخله شيئًا لا يُرى، لكنّه يُغيّر كلّ ما يُرى

أولاً: أسرار المشي إلى كربلاء

قد يبدو السؤال في ظاهره بسيطًا: لماذا يختار الإنسان المشي إلى كربلاء، وهو قادرٌ على أن يختصر الطريق بوسائل أسرع؟ لكنّ هذا السؤال، حين يُفتح على عمقه، يكشف أنّ المشي ليس قرارًا فحسب، بل اختيارًا روحيًا يتجاوز منطق السرعة إلى منطق المعنى. فالمشي، في هذه الرحلة، ليس وسيلةً للوصول، بل هو جزءٌ من الوصول نفسه؛ لأنّ ما يُطلب هنا ليس بلوغ المكان فحسب، بل بلوغ حالةٍ داخلية لا تُمنح لمن يستعجلها.



إنّ أول ما ييوح به هذا المشي هو معنى التواضع. فالإنسان، الذي اعتاد أن يُحيط نفسه بوسائل الراحة، يخلع عنها طوعًا، وينزل إلى مستوى الطريق، حيث لا شيء يميّزه عن غيره. هنا، تتلاشى الفوارق التي صنعتها الحياة، ويصبح الجميع أبناء مسيرٍ واحد، يتقاسمون التعب ذاته، والهدف ذاته، والرجاء ذاته. وهذا التجرد ليس فقدانًا، بل تحريرًا من ثقل الصورة التي يحملها الإنسان عن نفسه، ليكتشف ذاته في بساطتها الأولى، حيث لا يبقى إلا صدقه.

ثم إنّ في المشي نوعًا من “التفريغ التدريجي” للنفس؛ إذ لا يترك الزائر خلفه بيته وأعماله فحسب، بل يترك، مع كلّ خطوة، شيئًا من انشغالاته، من قلقه، من ضجيج حياته اليومية. ومع امتداد الطريق، يبدأ هذا الضجيج في الخفوت، وكأنّ الروح تستعيد قدرتها على السماع. وهنا، لا يعود المشي حركةً خارجية، بل يتحوّل إلى مسارٍ داخلي، تُرتّب فيه الأفكار، وتُصقّى فيه النوايا، ويقترّب فيه الإنسان من ذاته التي غابت عنه طويلًا.

وفي كلّ خطوة تُخطى، هناك معنى لا يُقال بالكلمات، بل يُعاش بالتجربة. فالتعب الذي يتراكم في الجسد ليس مجرد مشقة عابرة، بل هو رسالة تُذكّر الإنسان بأنّ الوصول الحقيقي لا يُنال بلا ثمن. وحين يقبل الإنسان هذا التعب برضا، يتحوّل إلى تدريبٍ عملي على الصبر، لا ذلك الصبر النظري الذي يُقال، بل الصبر الذي يُختبر في الجسد والوقت والانتظار. وهنا، يذوق الإنسان شيئًا من معنى التضحية، لا بوصفها فكرةً مجردة، بل بوصفها حالةً تُعاش.



ولعلّ من أعمق أسرار هذا الطريق أنّه يُعيد صياغة النّيّة مرارًا. فالنّيّة في البداية قد تكون حاضرة، لكنّها تحتاج إلى تثبيت، إلى مراجعة، إلى تجديد. ومع طول الطريق، يجد الإنسان نفسه أمام لحظاتٍ يسأل فيها: لماذا أوصل؟ ما الذي يدفني؟ وفي كلّ مرةٍ يُجيب فيها بصدق، تتنقّى نّيّته أكثر، حتى تصبح أكثر صفاءً وثباتًا. وهكذا، لا يكون الوصول إلى الإمام الحسين بن علي عليهما السلام نهاية الطريق فحسب، بل يكون تويجًا لنّيّةٍ نضجت، لا لقرارٍ عابر.

ومن زاويةٍ أخرى، يتحوّل الطريق نفسه إلى مدرسةٍ لا تحتاج إلى كلمات. فهناك، في ذلك الامتداد الطويل، يتعلّم الإنسان من مشاهد لا تُنسى: يدٌ تُمدّ بالعطاء بلا مقابل، إنسانٌ يخدم آخر وهو لا يعرفه، وجوهٌ أنهكها التعب لكنها ما زالت تبسم. هذه التفاصيل الصغيرة تُعيد تعريف مفاهيم كبيرة؛ تُعلّم معنى الإيثار، ومعنى الجماعة، ومعنى أن يكون الإنسان جزءًا من خيرٍ يتجاوز ذاته. وهنا، لا يكون التعليم خطابًا، بل تجربةً حيّةً تنقش أثرها في القلب.

وإذا كان الوصول السريع يُنهي المسافة، فإنّ المشي يُطيل زمن اللقاء الداخلي. فالزمن هنا ليس عنصرًا محايدًا، بل هو شريكٌ في صناعة التحوّل. كلّ يومٍ يُقضى في الطريق، كلّ ساعةٍ تُعاش بين خطوةٍ وأخرى، تضيف طبقةً جديدةً من الوعي، وتُقرّب الإنسان أكثر من تلك اللحظة التي يقف فيها، لا كمن وصل فحسب، بل كمن تغيّر في طريقه.



وهكذا، يتبيّن أنّ سرّ المشي لا يكمن في كونه أصعب، بل في كونه أعمق؛ لا في كونه أبطأ، بل في كونه أصدق. فمن ركب، قد يصل... أما من مشى، فإنّه لا يصل فقط، بل يتشكّل وهو يسير، ويكتشف أنّ الطريق إلى كربلاء لم يكن طريقًا إلى مكان، بل كان طريقًا إلى نفسه، حيث يجدها - أو يبدأ في العثور عليها - على ضوء ذلك النور الذي قصده منذ الخطوة الأولى.

ثانيًا: حالات الزائرين وتجاربهم

لو أُتيح للإنسان أن يتأمّل وجوه الزائرين في طريق كربلاء، لا بوصفها ملامح عابرة، بل بوصفها نصوصًا حيّة، لاكتشف أنّ كلّ وجه يحمل حكايةً كاملة، وأنّ كلّ نظرةٍ تختزن رحلةً طويلة سبقت هذه الخطوات. فهنا، لا يجتمع الناس على هيئةٍ واحدة، بل على تنوّعٍ يكاد يُشبه تنوّع الحياة نفسها؛ هذا جاء مثقلًا بأسئلةٍ لم يجد لها جوابًا، وذاك جاء يحمل شكرًا يريد أن يسكبه في حضرة الامتنان، وآخر لا يعرف كيف يفسّر اندفاعه، سوى أنّ في داخله نداءً قديمًا لا يهدأ إلا هنا، عند الإمام الحسين عليه السلام.

غير أنّ هذا التنوّع، على اتّساعه، لا يلغي وجود خيطٍ خفيّ يجمع الجميع، بل لعلّه هو الذي يكشف عنه. إنهم، على اختلاف دوافعهم، يلتقون في نقطةٍ واحدة، لا لأنهم متشابهون، بل لأنهم جميعًا وجدوا في الإمام الحسين عليه السلام مرآةً لشيءٍ في داخلهم: ألم يبحث عن معنى، أو حبٍّ يبحث عن تعبير، أو روحٍ تبحث عن مأوى.



ومن هنا، تتحوّل الزيارة إلى مساحةٍ يلتقي فيها الإنسان بذاته عبر الآخر، وكأنّ كلّ واحدٍ يرى في الآخر جانبًا من قصّته التي لم تكتمل بعد.

وفي عمق هذه التجربة، تنشأ حالةٌ يصعب وصفها بلغةٍ مباشرة: إحساسٌ بالقرب، لكنّه ليس قربًا مكانيًا، بل قربٌ من نوعٍ آخر، لا تُدرّكه الحواسّ بقدر ما تشعر به النفس. إنّ ذلك الشعور الذي يتسرّب بهدوء، حتى يملأ الداخل، فيُحسّ الإنسان أنّه لم يعد وحده كما كان، وأنّ هناك رابطًا غير مرئيّ، لكنه شديد الحضور، يربطه بهذا الامتداد النوراني الذي يمثّله الإمام الحسين (عليه السلام). هذا القرب لا يُقاس بخطوات الطريق، بل بدرجة الانفتاح الداخلي؛ فقد يكون الإنسان قريبًا وهو بعيد، وقد يكون بعيدًا وهو في قلب المكان.

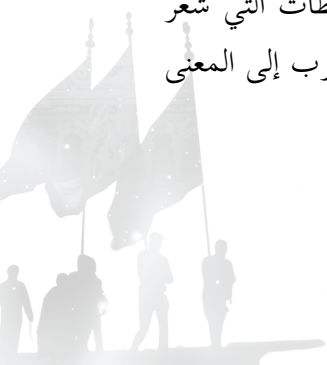
ولعلّ من أكثر ما يلفت في تجارب الزائرين، ذلك التداخل العجيب في المشاعر الذي يخرجون به. فهم لا يعودون بإحساسٍ واحدٍ واضح، بل بحالةٍ مركّبة، كأنّ عدّة طبقاتٍ من الشعور قد تراكبت في داخلهم. ترى الطمأنينة تسكن القلب، لكنّها ليست طمأنينةً خالية من الحزن، بل هي طمأنينةٌ مشوبةٌ بوجعٍ نبيل؛ وترى في داخلهم قوّةً جديدة، لكنّها ولدت من لحظة انكسارٍ صادق. وكأنّ النفس، في هذه الرحلة، لا تفقد لتخسر، بل تفقد لتُعيد الاكتشاف، ولا تنكسر لتنهيار، بل لتُعاد صياغتها على نحوٍ أعمق.



هذا التناقض الظاهري ليس اضطراباً، بل هو علامة حياةٍ داخلية بدأت تتحرك. فالإنسان، حين يقترب من الحقيقة، لا يخرج منها بصورةٍ أحادية، بل بصورةٍ أكثر تعقيداً وصدقاً؛ لأنه يواجه نفسه كما هي، لا كما اعتاد أن يراها. ومن هنا، فإنّ هذا المزيج بين الحزن والسكينة، بين الانكسار والقوة، ليس إلا أثراً لتلك اللحظة التي أعادت فيها النفس ترتيب أولوياتها، بعيداً عن الضجيج الذي كان يحكمها.

وفي هذا السياق، يمكن القول إنّ الزائر لا يعود كما جاء، حتى وإن بدا للآخرين أنّه هو ذاته. فالتغير الحقيقي لا يكون دائماً ظاهراً، بل قد يكون خفياً، يتسلّل إلى طريقة التفكير، إلى زاوية النظر، إلى ترتيب القيم. قد يعود الإنسان إلى حياته اليومية، إلى عمله، إلى تفاصيله المعتادة، لكنّه يحمل في داخله إحساساً مختلفاً، كأنّ شيئاً ما قد انزاح، وشيئاً آخر قد استقرّ مكانه.

وهكذا، فإنّ تجارب الزائرين، على اختلافها، تلتقي في حقيقةٍ واحدة: أنّ هذه الرحلة ليست مجرد حدثٍ يُعاش ثم يُطوى، بل هي تجربةٌ تترك أثراً ممتداً، قد لا يُدرّكه الإنسان دفعةً واحدة، لكنّه يكشفه مع الزمن، كلّما عاد إلى نفسه، وكلّما استحضر تلك اللحظات التي شعر فيها، ولو لبرهة، أنّه أقرب إلى ذاته، وأقرب إلى ربّه، وأقرب إلى المعنى الذي خرج يبحث عنه منذ البداية.





ثالثًا: أثر الزيارة في تركية النفس

إنّ الحديث عن تركية النفس في سياق زيارة الأربعين لا يمكن أن يفهم على أنّه بُعد إضافيٍّ من أبعاد الزيارة، بل هو قلبها النابض، وغرضها الأعمق الذي تتجه إليه كلّ تلك الحركات الظاهرة. فالتركية، في معناها الدقيق، ليست مجرد تحسينٍ أخلاقيٍّ عابر، بل هي عملية إعادة تشكيلٍ للداخل الإنساني، تُنتزع فيها الشوائب التي علقت بالنفس عبر الزمن، ويُعاد فيها توجيه البوصلة نحو الله بعد أن تاهت في تفاصيل الحياة.

فالإنسان، وهو غارقٌ في يوميّاته، لا يشعر عادةً بتراكم ما يثقله؛ إذ تتسلّل الغفلة إليه تدريجيًا، وتتشابك العادات حتى تصبح جزءًا من طبيعته، فيفقد، دون أن ينتبه، شيئًا من صفائه الأول. وحين تأتي الزيارة، لا تأتي لتضيف عبئًا جديدًا، بل لتُوقف هذا التراكم، كأَنَّها لحظة مراجعةٍ شاملة، يُتاح فيها للإنسان أن يرى نفسه من زاويةٍ لم يكن يراها من قبل.

وفي هذا المقام، يبرز حضور الإمام الحسين عليه السلام بوصفه معيارًا حيًّا للتركية، لا من خلال الخطاب النظري، بل من خلال النموذج المتجسّد.





فحين يستحضر الزائر سيرة الإمام الحسين (عليه السلام)، لا يستحضرها كحدثٍ تاريخيٍّ فحسب، بل كمرآةٍ تُقاس بها النفس: أين أنا من هذا الصدق الذي لا يتلوّن؟ أين أنا من هذا الإخلاص الذي لا يشوبه طلبٌ لغير الله سبحانه وتعالى؟ وأين أنا من هذا الثبات الذي لا تُزحزحه المغريات ولا المخاوف؟ هذه المقارنة، على بساطتها، تُحدث في الداخل رجّةً هادئةً، لكنها عميقة؛ لأنّها تكشف الفجوة بين المثال والواقع، وتوقظ في النفس رغبةً صادقةً في ردمها.

ومن هنا، تتحوّل لحظات الزيارة إلى حالةٍ من الصدق النادر، حيث يقف الإنسان أمام نفسه بلا تبرير. لا يُحاول أن يُجمل تقصيره، ولا أن يُخفّف من وزنه، بل يراه كما هو، ويعترف به كما هو. وهذا الاعتراف، على قسوته، هو بداية الرحمة، لأنّ النفس لا تُصلح ما لم تعترف بخللها، ولا تتغيّر ما لم ترّ موضع النقص فيها بوضوح.

وفي هذا السياق، تكتسب الدموع معنىً يتجاوز الانفعال العاطفي. فهي، في كثيرٍ من الأحيان، ليست مجرد تأثّرٍ بمشهدٍ أو ذكرى، بل هي انكسارٌ واعٍ، لحظةٌ انفتاحٍ يسقط فيها القناع الذي يضعه الإنسان على نفسه. إنّها اللغة التي تعبّر بها الروح حين تعجز الكلمات؛ لغةُ الاعتراف، ولغةُ الندم، ولغةُ الشوق إلى حالٍ أفضل. ولهذا، فإنّ هذه الدموع لا تُضعف الإنسان، بل تُحرّره، لأنّها تفتح في داخله منفذًا للنور بعد أن كان مغلقًا.



وهنا تتجلى المفارقة العميقة: أنّ الانكسار هو بداية البناء. فحين ينهار وهم الكمال الذي يتشبّث به الإنسان، تنكشف أمامه حقيقة ضعفه، لا ليبقى فيها، بل ليتجاوزها. إنّ الاعتراف بالضعف لا يعني الاستسلام له، بل هو الخطوة الأولى نحو قوّة أصدق؛ قوّة تقوم على الوعي، لا على الادّعاء، وعلى الصدق، لا على التزييف. ومن هذه النقطة، يبدأ التحوّل الحقيقي، لا بوصفه قرارًا فجائيًا، بل مسارًا يتشكّل تدريجيًا.

إنّ تزكية النفس التي تنشأ في هذه الزيارة لا تُقاس بما يشعر به الإنسان في لحظتها فحسب، بل بما تتركه من أثرٍ بعد انقضائها. فقد يخرج الزائر بإحساسٍ خفيفٍ لا يكاد يُدرّكه، لكنّه مع الأيام يكتشف أنّ شيئًا ما قد تغيّر: أنّه أصبح أكثر انتباهًا لنفسه، أكثر حساسيةً تجاه خطئه، أكثر ميلًا إلى الصدق، وأقرب إلى مراجعة ذاته. وهذه التغيّرات، وإن بدت صغيرة، هي في الحقيقة ثمارٌ تلك اللحظات التي عاشها بصدق.

وهكذا، يتّضح أنّ زيارة الأربعين ليست مجرد مناسبةٍ تُحيى، بل هي فرصةٌ لإحياء النفس ذاتها؛ فرصةٌ لاستعادة ذلك الصفاء الذي فقدت تحت ركام الحياة، وللبدء من جديد، ولو بخطوةٍ واحدة، في طريق التزكية. فمن دخلها وهو مستعدّ لأن يرى نفسه، خرج منها وهو أقرب إلى أن يكون ما ينبغي أن يكون، وأقرب إلى الله سبحانه وتعالى الذي كان يبحث عنه منذ البداية، وإن لم يكن يدري.





رابعاً: العلاقة بين الألم الجسدي والسمو الروحي
من أكثر المشاهد دلالةً في طريق زيارة الأربعين ذلك التلازم العجيب
بين تعب الجسد ويقظة الروح؛ فالمشقة هنا ليست عنصرًا طارئًا، بل
جزءٌ أصيل من بنية التجربة. إنّ القدم التي تتعب، والبدن الذي يُرهق،
والحرّ أو البرد الذي يلامس الإنسان، كلّها ليست تفاصيل جانبية، بل
مفاتيح تُفتح بها أبوابٌ داخلية لا تُفتح في حالات الراحة والاعتیاد.

فالإنسان، في حالته العادية، يعيش نوعًا من التوازن الموهوم، حيث
توفّر له الراحة إحساسًا بالسيطرة، وربما شيئًا من الغفلة عن حدوده.
لكن حين يدخل في تجربة المشي، يبدأ هذا التوازن في التصدّع، لا
لِيُضعفه، بل لِيُعِيد تعريفه. فالألم الجسدي يضع الإنسان أمام حقيقته:
أنّه كائنٌ محدود، يحتاج، ويتعب، ويضعف. وهذه المواجهة، على
بساطتها، تكسر شيئًا من غروره الصامت، وتفتح فيه مساحةً للتواضع
لم تكن متاحة من قبل.

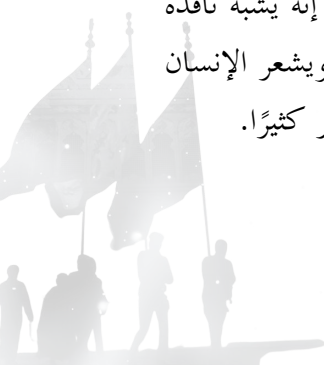
غير أنّ هذا الألم، في سياق هذه الزيارة، لا يُترك عاريًا من المعنى، بل
يُعاد توجيهه ليصبح وسيلةً للترقي. فالفرق الجوهرى لا يكمن في الألم
ذاته، بل في الجهة التي يُنسب إليها: حين يكون الألم بلا غاية، يُرهق
ويُثقل، أمّا حين يُحتسب في سبيل الله جل وعلا، فإنّه يتحوّل إلى طاقةٍ
روحية تُغذّي الداخل. وهنا، لا يعود التعب مجرد معاناة، بل يصبح
مشاركةً — ولو يسيرة — في خطّ التضحية الذي مثله الإمام الحسين
صلوات الله وسلامه عليه وأصحابه عليهم السلام.



وهذا الاستحضار ليس مجرد مقارنة تاريخية، بل هو حالة وجدانية تُقرب المسافة بين الزائر وتلك التجربة العظيمة. فحين يشعر الإنسان بشيءٍ من العناء، يبدأ في إدراكٍ أعمق - ولو على نحوٍ جزئي - لما تعنيه التضحية، وما يعنيه الثبات في وجه الألم. ومن هنا، يتعزز الارتباط، لا بوصفه تعاطفًا عاطفيًا فحسب، بل بوصفه مشاركةً شعوريةً تُعيد إحياء المعنى في الحاضر.

ثم إنّ للألم وظيفةً أخرى لا تقلّ عمقًا، وهي أنّه يُصقّي الإدراك. فالإنسان، حين يُثقل جسده، تتساقط عنه كثيرٌ من الانشغالات الثانوية؛ لا يعود يفكر في التفاصيل الصغيرة التي كانت تملأ ذهنه، بل ينحصر وعيه في الأساسيات: الاستمرار، الوصول، الثبات. وفي هذا الانحسار، تنشأ حالة من الصفاء، كأنّ الروح، وقد خفّ عنها عبء التشبّت، أصبحت أكثر قدرةً على التلقّي، وأكثر استعدادًا للإنصات لما هو أعمق.

ومن هنا يتجلّى ذلك التلاقي الذي يبدو في ظاهره: كلّما ازداد التعب في الجسد، ازداد الصفاء في الروح. وليس ذلك لأنّ الألم بحدّ ذاته يُنتج الصفاء، بل لأنّه يفتح في الداخل منفذًا كان مغلقًا. إنّّه يشبه نافذةً تُفتح فجأةً في غرفةٍ مكتومة، فيدخل منها الهواء النقيّ، ويشعر الإنسان بخفّةٍ لم يكن يتوقّعها، رغم أنّ الظروف الخارجية لم تتغيّر كثيرًا.





وهذه الخفة ليست إنكارًا للألم، بل تجاوزًا له؛ إذ يبقى الجسد متعبًا، لكنّ الروح لم تعد مثقلّة به كما كانت. وكأنّ الإنسان، في هذه اللحظة، يتعلّم كيف يحمل أعباءه بطريقةٍ مختلفة، كيف يعيش تعبهِ دون أن يستسلم له، وكيف يحوِّله إلى جسرٍ يعبر به نحو حالةٍ أرقى من الوعي.

وفي نهاية المطاف، لا يمكن فصل هذا البعد عن مجمل التجربة الروحية للزيارة؛ لأنّه يكشف أحد أسرارها الكبرى: أنّ الطريق إلى السموّ لا يمرّ دائمًا عبر الراحة، بل كثيرًا ما يمرّ عبر التعب الذي يُعاد توجيهه، وعبر الألم الذي يُضاهى بالمعنى. وهنا، لا يعود السؤال: كم تحمّلت؟ بل: ماذا صنع هذا التحمّل في داخلك؟

فليس المهم كم مشيت...
بل ماذا تغيّر فيك وأنت تمشي

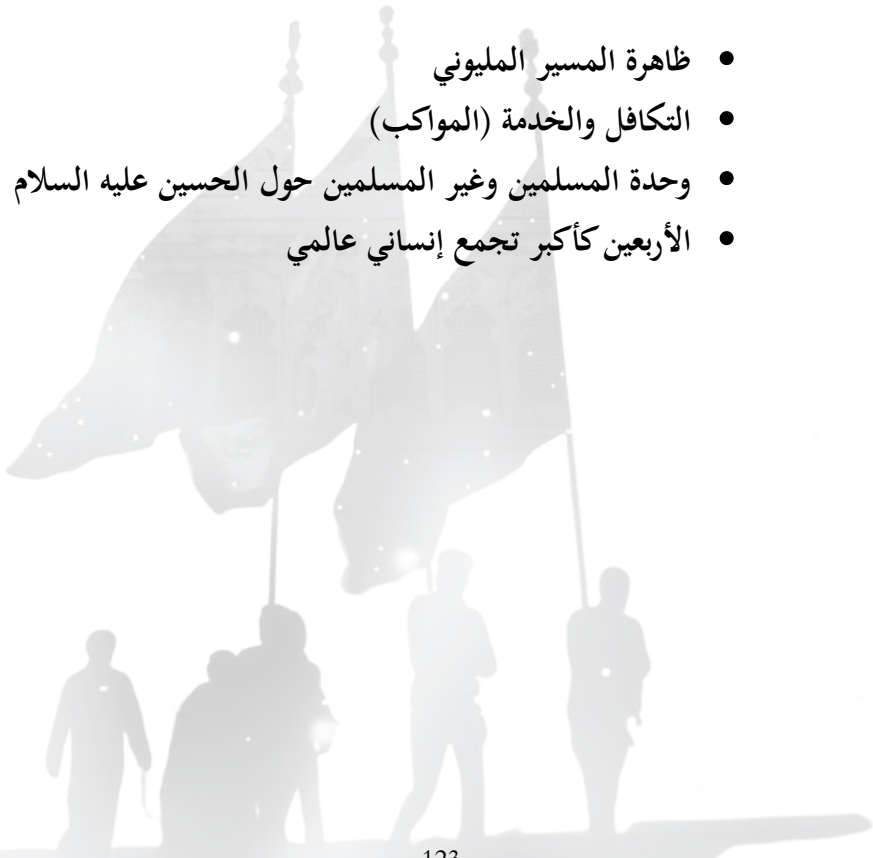




المحور السابع

المحور السابع: الأبعاد الاجتماعية والإنسانية

- ظاهرة المسير المليوني
- التكافل والخدمة (المواكب)
- وحدة المسلمين وغير المسلمين حول الحسين عليه السلام
- الأربعين كأكبر تجمع إنساني عالمي





المحور السابع: الأبعاد الاجتماعية والإنسانية

إذا كان البعد الروحي في زيارة الأربعين يكشف عن عمق الصلة بين الإنسان وربّه، فإنّ بعدها الاجتماعي والإنساني يفتح نافذةً على إمكانٍ واقعيٍّ لإعادة تشكيل المجتمع من الداخل، لا عبر الشعارات، بل عبر الممارسة الحيّة. فهنا، لا نكون أمام خطابٍ يُنظر للقيم، بل أمام مجتمعٍ مؤقّت يتشكّل على الطريق إلى كربلاء، لكنه يحمل في طيّاته ملامح مجتمعٍ دائمٍ يمكن أن يكون.

إنّ أوّل ما يلفت في هذا المشهد هو ذوبان الفوارق التي اعتادت أن تُقسّم الناس في حياتهم اليومية. فالهويات الاجتماعية، بما تحمله من طبقاتٍ وتميّزات، تتراجع إلى الخلف، ليبرز في الواجهة إنسانٌ مجرّد، لا يُعرّف بما يملك، بل بما يقدم. وهنا، تتحوّل العلاقة بين الناس من علاقةٍ مصلحةٍ إلى علاقةٍ عطاء، ومن حسابٍ دقيقٍ للأخذ والعطاء إلى فيضٍ مفتوحٍ من البذل، لا يُنتظر له مقابل.

وفي قلب هذا التحوّل، تتجلى ثقافة الخدمة بوصفها العمود الفقري لهذا المجتمع المؤقّت. فالإنسان لا يأتي هنا ليأخذ فحسب، بل ليكون جزءاً من شبكةٍ واسعةٍ من العطاء، حيث تتكامل الأدوار بشكلٍ عفويٍّ: هذا يُقدّم الطعام، وذاك يُهيئ مكان الراحة، وآخر يسهر على راحة الآخرين، وكأنّ الجميع قد اتفقوا - دون اتفاقٍ مسبق - على أن تكون قيمة "الغير" مقدّمةً على قيمة "الذات". وهذه الظاهرة، في عمقها، ليست سلوكاً عابراً، بل تعبيرٌ عن تحوّلٍ في الوعي، حيث يُعاد تعريف الإنسان لنفسه من خلال عطاءه، لا من خلال ما يملكه.



ثم إنّ هذا المشهد يُعيد صياغة مفهوم الجماعة على نحوٍ مختلف. فالجماعة هنا لا تقوم على الانتماء الضيق، بل على القيم المشتركة التي تتجاوز الحدود. ترى الناس من ثقافاتٍ ولغاتٍ وأعمارٍ مختلفة، لكنّهم يتحرّكون بانسجامٍ لافت، كأنّهم جسدٌ واحد، لا لأنّهم متشابهون، بل لأنّهم يشتركون في مقصدٍ واحد، يتمثّل في الإمام الحسين عليه السلام بوصفه رمزًا جامعًا للقيم التي يلتقون عليها. وهنا، لا يعود الاختلاف عامل تفریق، بل يتحوّل إلى عنصر غنى داخل وحدةٍ أعمق.

ومن زاويةٍ إنسانيةٍ أوسع، يمكن النظر إلى هذه التجربة بوصفها تمرينًا عمليًا على إعادة بناء الثقة بين الناس. ففي عالمٍ يزداد فيه الحذر، وتراجع فيه الثقة المتبادلة، تأتي هذه الزيارة لتُعيد للإنسان إيمانه بالآخر؛ إذ يجد نفسه في فضاءٍ مفتوح، يتلقّى فيه العطاء من غرباء، ويمنحه لآخرين لا يعرفهم، دون خوفٍ أو تردّد. وهذه الثقة، حين تُعاش، لا تبقى محصورةً في حدود الزيارة، بل تترك أثرًا يمتدّ إلى ما بعدها، في نظرة الإنسان إلى مجتمعه، وفي استعداداته للانخراط فيه بشكلٍ أكثر إيجابية.

ولعلّ من أعمق ما في هذا البعد الاجتماعي أنّه يكشف إمكان تحقّق القيم الكبرى كالإيثار، والتكافل، والرحمة خارج إطار التنظير. فكثيرًا ما تُطرح هذه القيم بوصفها مثاليةً أو بعيدة المنال، لكنّها هنا تتحقّق على نطاقٍ واسع، وبصورةٍ تلقائية، وكأنّ الإنسان، حين يُوضع في سياقٍ صحيح، يستدعي أفضل ما فيه دون إكراه.



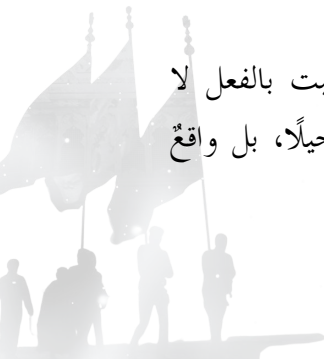
وهذا ما يجعل هذه التجربة ليست مجرد حدثٍ ديني، بل نموذجًا اجتماعيًا قابلاً للتأمل والدراسة.

غير أنّ التحدي الحقيقي لا يكمن في حدوث هذا النموذج، بل في قدرته على الامتداد. فالسؤال الذي يطرح نفسه بعد انقضاء الزيارة: هل تبقى هذه القيم حيّة في سلوك الإنسان اليومي، أم أنّها تنطفئ بانتهاء الظرف الذي أوجدها؟

وهنا، يتحوّل البعد الاجتماعي من مجرد ظاهرة تُشاهد إلى مسؤولية تُحمّل؛ مسؤولية أن ينقل الإنسان شيئًا مما عاشه إلى واقعه، ولو في حدودٍ ضيقة، لتحوّل تلك التجربة المؤقتة إلى بذورٍ لمجتمعٍ أكثر إنسانية.

وهكذا، يتبيّن أنّ زيارة الأربعين لا تُعيد تشكيل الفرد فحسب، بل تُعيد رسم ملامح المجتمع، ولو لبرهة؛ تُظهر كيف يمكن للقيم أن تنتصر على الأنانية، وكيف يمكن للإنسان أن يكون أسمى حين يخرج من ضيق ذاته إلى سعة العطاء.

فهي ليست فقط رحلةً نحو كربلاء، بل هي تجربةٌ تُثبت بالفعل لا بالقول أنّ المجتمع القائم على الرحمة ليس حلمًا مستحيلًا، بل واقعٌ ممكن، متى ما توقّرت له الروح التي تحمله.





أولاً: ظاهرة المسير المليوني

إنّ ما يُعرف بظاهرة المسير المليوني نحو كربلاء في زيارة الأربعين يتجاوز حدود “الحدث الجماهيري” إلى كونه حالةً مركّبة، تتداخل فيها الأبعاد الروحية والاجتماعية والرمزية، بحيث تعجز الأدوات التفسيرية التقليدية — إذا استُخدمت بمعزل عن هذا التكامل — عن الإحاطة بجوهرها. فنحن هنا أمام ظاهرة لا تُختزل في كثافة الحضور، بل في طبيعة الحضور ذاته: حضورٌ قائم على الاختيار الحرّ، وعلى دافعٍ داخليٍّ يتكرّر عامّاً بعد عام، دون أن يفقد زخمه أو معناه.

فالملايين الذين ينخرطون في هذا المسير لا تجمعهم بنيةٌ تنظيمية صارمة بالمعنى المؤسّسي، ولا تحرّكهم حوافز مادية، بل يتشكّلون حول مركزٍ رمزيٍّ جامع هو الإمام الحسين صلوات الله عليه، بوصفه حاملاً لقيم تتجاوز الزمان والمكان. ومن هنا، فإنّ وحدة هذا الحشد لا تنشأ من تطابقٍ في الخلفيات، بل من اشتراكٍ في المعنى؛ معنى يجد فيه كلّ فردٍ تفسيراً لاندفاعه، حتى وإن اختلفت صياغته من شخصٍ إلى آخر.

وهذا ما يمنح الظاهرة خصوصيتها: أنّها تُنتج نوعاً من “التنظيم الذاتي” الذي لا يعتمد على مركزٍ واحد، بل على وعيٍ موزّع بين الأفراد. فكلّ مشاركٍ، بطريقةٍ ما، يتحمّل جزءاً من مسؤولية استمرار هذا المشهد؛ يلتزم بالسير، يحترم الآخر، ينسجم مع الإيقاع العام، وكأنّ هناك عقداً غير مكتوب يربط الجميع.



وهذه السمة، في علم الاجتماع، تُعدّ من أكثر الظواهر تعقيدًا؛ إذ كيف يمكن لملايين الأفراد أن يتحرّكوا بهذا القدر من الانسجام دون قيادة مركزية واضحة؟

ثم إنَّ الطريق، في سياق هذا المسير، لا يكون مجرد فضاءٍ للعبور، بل يتحوّل إلى ما يشبه “مجتمعًا مؤقتًا” يحمل ملامح مجتمعٍ مكتمل. ففي هذا الفضاء، تُمارَس القيم لا بوصفها مبادئ نظرية، بل بوصفها سلوكًا يوميًا: التعاون يظهر في أبسط التفاصيل، والاحترام يتجلّى في التعامل بين الغرباء، والانضباط يُلاحظ في انتظام الحركة رغم كثافة الأعداد، والمسؤولية المشتركة تُمارَس دون توجيه مباشر.

غير أنّ الأهمّ من ذلك كلّهُ هو أنّ هذا المجتمع المؤقت لا يقوم على الإكراه، بل على الرغبة؛ فالأفراد لا يُجبرون على الالتزام بهذه القيم، بل يختارونها، وكأنّ السياق نفسه يُحرّك فيهم أفضل ما لديهم. وهنا، تتجلّى قدرة هذه الظاهرة على استدعاء البعد الأخلاقي في الإنسان، لا عبر القوانين، بل عبر المعنى الذي يحمله.

ومن زاويةٍ أعمق، يمكن النظر إلى هذا المسير بوصفه حركةً نحو نموذج اجتماعيٍّ بديل، لا بمعنى أنّه يطرح نظامًا سياسيًا أو اقتصاديًا، بل بمعنى أنّه يكشف عمليًا عن إمكان قيام مجتمعٍ تُدار فيه العلاقات على أساس القيم، لا المصالح الضيقة. إنّه يقدّم، ولو لمدّة محدودة، تجربةً حيّةً لما يمكن أن يكون عليه المجتمع إذا تقدّم فيه الإيثار على الأنانية، والتكافل على التنافس، والمعنى على المنفعة.



ومع ذلك، تبقى القيمة الحقيقية لهذه الظاهرة مرهونةً بقدرتها على الامتداد خارج زمنها المحدود.

فالسؤال الجوهرى ليس: كيف يتشكّل هذا المجتمع المؤقت؟ بل: ماذا يبقى منه بعد انفضاضه؟ هل يتحوّل إلى وعيٍ دائمٍ يرافق الإنسان في حياته، أم يظلّ تجربةً استثنائيةً تنتهي بانتهاء الطريق؟

وهنا، يظهر البعد الأعماق للمسير: أنّه لا يكفي بأن يجمع الناس في طريقٍ واحد، بل يدعوهم ضمناً إلى أن يحملوا شيئاً من هذا الطريق معهم إلى حياتهم. فليس المقصود أن يبقى النموذج حبيس تلك الأيام، بل أن يتحوّل إلى معيارٍ يُقاس به الواقع، وإلى أفقٍ يُسعى إلى الاقتراب منه.

وهكذا، فإنّ المسير المليونى ليس فقط ظاهرةً في العدد، بل في المعنى؛ ليس فقط تجمّعاً بشرياً، بل تجربةً تكشف عن طاقاتٍ كامنة في الإنسان والمجتمع، وتثبت بالفعل لا بالافتراض أنّ القيم، حين تجد السياق الذي يُحرّكها، قادرةٌ على أن تُعيد تشكيل الواقع، ولو لبرهة، بطريقةٍ تُلهم ما بعدها.

ثانياً: التكافل والخدمة (المواكب)

من أكثر الظواهر تعبيراً عن الروح الاجتماعية في زيارة الأربعين ما يُعرف بـ “المواكب”، تلك المحطات التي تمتدّ على طول الطريق إلى كربلاء، لتقدّم نموذجاً حيّاً للتكافل الإنسانى في أنقى صورهِ.



غير أنّ هذه الظاهرة، على بساطة مظهرها، تختزن في عمقها منظومةً قيميةً متكاملة، تجعل منها أكثر من مجرد أعمال خدمة؛ إنّها تعبيرٌ عن وعيٍ جمعيّ تشكّل على ضوء مدرسة الإمام الحسين عليه السلام.

ففي هذه المواكب، لا يُقاس العطاء بحجمه المادّي، بل بنيتّه التي تُعيد تعريف العلاقة بين الإنسان وما يملك.

إنّ الخادم لا يرى ما يقدّمه تفضّلاً، بل يرى نفسه هو المنتفع الحقيقي؛ لأنّه وجد فرصةً ليكون جزءاً من هذا الطريق. ومن هنا، تنقلب المعادلة التقليدية: فبدل أن يكون الأخذ هو موضع السعي، يصبح العطاء هو الغاية، وبدل أن يُبحث عن الربح، يُبحث عن القبول.

وهذا التحوّل في الوعي هو الذي يفسّر ظاهرة التنافس في البذل. فالناس هنا لا يتسابقون على الموارد، بل على تقديمها؛ لا يتفاخرون بما يملكون، بل بما يُنفقون. ترى من يُعدّ الطعام، ومن يسقي الماء، ومن يهيئ مكان الراحة، ومن يسهر على خدمة الآخرين في صمتٍ لا ينتظر شكراً. بل إنّ بعض أشكال الخدمة تتجاوز المادّة إلى المعنوي:

كلمة طيبة، ابتسامة، دعاء، وكأنّ كلّ ما يمكن أن يُخفّف عن الزائر هو جزءٌ من هذه الرسالة.





ومن زاوية أعمق، تكشف المواكب عن إمكانية قيام ما يمكن تسميته بـ “الاقتصاد الأخلاقي”؛ اقتصاداً لا تُلغى فيه الموارد، لكن تُعاد صياغة غاياتها. فبدل أن تكون الثروة وسيلةً للتراكم الفردي، تتحوّل إلى أداة للمشاركة الجماعية. وبدل أن تُدار العلاقات بمنطق السوق القائم على العرض والطلب، تُدار بمنطق القيم القائم على الإيثار والتكافل. وهنا، لا تختفي الحاجة، لكنّها لا تُستثمر لتحقيق الربح، بل تُستجاب لتحقيق الرحمة.

واللافت في هذا النموذج أنّه لا يقوم على قوانين مفروضة، بل على دافعٍ داخليّ ينبع من إيمانٍ عميق بأنّ خدمة الزائر هي امتدادٌ لخدمة القضية التي يمثلها الإمام الحسين (عليه السلام). ومن هنا، فإنّ الخادم لا يشعر أنّه يقوم بعملٍ خارجي، بل يعيش حالةً من القرب، كأنّه يشارك طريقته في هذا المسير الذي يتجاوز حدود الزمن.

كما أنّ هذه المواكب تُعيد تشكيل مفهوم الملكية ذاته؛ إذ يتحوّل ما يملكه الإنسان من “حقٍّ خاصٍّ” إلى “أمانةٍ مشتركةٍ” في سياق هذه الرحلة. فالبيت يُفتح، والمال يُبذل، والجهد يُقدّم، دون أن يُنظر إلى ذلك بوصفه خسارة، بل بوصفه تحقّقاً لمعنى أعمق في الحياة. وهذا التحوّل، في حقيقته، ليس اقتصادياً فحسب، بل هو روحيّ، لأنّه يحرّر الإنسان من التعلّق المفرط بما يملك، ويعيد توجيهه نحو ما يُعطي.





ومع ذلك، فإنّ القيمة الكبرى لهذه الظاهرة لا تكمن في حدوثها فحسب، بل في قدرتها على أن تكون نموذجًا قابلاً للامتداد. فالسؤال الذي يفرض نفسه: هل يمكن لهذا “الاقتصاد الأخلاقي” أن يتسرّب إلى الحياة اليومية؟ هل يمكن أن تتحوّل هذه الروح من حالة موسمية إلى ثقافة دائمة؟

إنّ الجواب لا يُحسم بسهولة، لكنّ المؤكّد أنّ هذه التجربة تُثبت الإمكان؛ تُظهر أنّ الإنسان، حين يجد السياق الذي يُحرّك فيه قيمه، قادرٌ على أن يُعيد تعريف علاقته بالمال، وبالأخر، وبالمجتمع. وهنا، لا تكون المواقف مجرد محطات خدمة، بل إشارات حيّة إلى ما يمكن أن يكون عليه العالم، لو أنّ منطق العطاء تقدّم فيه على منطق الامتلاك.

وهكذا، يصبح الطريق إلى كربلاء ليس فقط مسارًا للزائرين، بل مسارًا للأفكار والقيم، حيث تُختبر في الواقع، وتُثبت أنّ التكافل ليس حلمًا مثاليًا، بل ممارسةً ممكنة، متى ما وُجد القلب الذي يؤمن بها، والعقل الذي يعي معناها، والروح التي تتحرّك في ضوئها.

ثالثًا: وحدة المسلمين وغير المسلمين حول الحسين عليه السلام حين يُستحضر الإمام الحسين (عليه السلام) في الوعي الجمعي، لا يُستحضر بوصفه شخصيةً تاريخيةً منغلقة داخل سياقها الزمني، ولا بوصفه رمزًا دينيًا خاصًا بطائفةٍ أو أمة، بل بوصفه حدثًا إنسانيًا مفتوحًا على كلّ الأزمنة، وقيمةً أخلاقيةً تتجاوز الحدود والاصطفافات.



ومن هنا، فإنّ ظاهرة التلاقي حول الإمام الحسين عليه السلام، ولا سيّما في مشهد زيارة الأربعين، لا يمكن قراءتها قراءةً سطحية باعتبارها مجرد تجمع ديني، بل هي في حقيقتها تجلّ عميق لتحوّل الإمام الحسين عليه السلام إلى “لغة إنسانية كونية”، تُخاطب الضمير قبل أن تُخاطب الانتماء، وتُحرّك الوجدان قبل أن تُحرّك الهوية.

إنّ الذي يجذب غير المسلمين إلى الإمام الحسين عليه السلام ليس تفاصيل العقيدة، ولا خصوصيات المذهب، بل ذلك الجوهر الصافي الذي يتجلّى في موقفه: رجلٌ يقف في وجه سلطةٍ جائرة، يعلم يقيناً أنّه مقتول، ومع ذلك لا يتراجع، لأنّ التراجع يعني شرعنة الظلم، ويعني خيانة الحقيقة. هذا الموقف، في بنيته العميقة، يتجاوز كونه موقفاً دينياً، ليصبح موقفاً إنسانياً بامتياز، يمكن لأيّ إنسان بصرف النظر عن معتقده أن يتماهى معه، لأنّه يمسّ إحدى أعمق القيم المزروعة في الفطرة: رفض الظلم، والانتصار للحق.

ومن هنا، يصبح الإمام الحسين (عليه السلام) نقطة التقاء بين الإنسان والإنسان، قبل أن يكون نقطة التقاء بين المسلم والمسلم. ففي طريق الأربعين، لا ترى مجرد أجسادٍ تمشي، بل ترى حكاياتٍ تتقاطع، وتجارِبَ تتلاقى، وأرواحاً تبحث عن معنى. ترى المسيحي الذي جاء بدافع الإعجاب، لا الالتزام، والبوذي الذي جاء بدافع التأمل، لا الانتماء، واللا ديني الذي جاء بدافع السؤال، لا الإيمان؛ لكنهم جميعاً، حين يدخلون في هذا الفضاء الحسيني، يجدون أنفسهم أمام تجربةٍ لا يمكن اختزالها في إطارٍ ضيق.



إنَّ السرَّ في ذلك يكمن في أنَّ الإمام الحسين عليه السلام لم يقدِّم نفسه بوصفه ممثلًا لجماعةٍ مغلقة، بل بوصفه حاملًا لمشروعٍ قيميّ مفتوح. لقد خرج “لطلب الإصلاح”، والإصلاح هنا ليس شعارًا مذهبيًا، بل مفهومٌ إنساني شامل، يتعلّق بإعادة التوازن إلى العلاقة بين الإنسان والحق، وبين السلطة والعدالة، وبين القوة والأخلاق. ولذلك، فإنَّ كلَّ من يشعر باختلالٍ في هذه المعادلات، يجد في الإمام الحسين عليه السلام صوتًا يعبر عنه، حتى وإن لم يشترك معه في العقيدة.

وفي هذا السياق، تتحوّل كربلاء من كونها موقعًا جغرافيًا إلى كونها “فضاءً رمزيًا” تتقاطع فيه الدلالات. فهي ليست أرضًا يُزار فيها قبر، بل ساحةٌ يُستعاد فيها موقف، ويُعاد فيها إنتاج المعنى. ولذلك، فإنَّ الحضور غير المسلم في كربلاء لا يُفهم بوصفه خروجًا عن السياق، بل بوصفه امتدادًا طبيعيًا لعالمية الرسالة الحسينية. إنَّه دليلٌ على أنَّ القيم حين تبلغ درجةً عاليةً من الصفاء، تتحرّر من قيود الانتماء الضيق، وتصبح ملكًا للإنسان بما هو إنسان.

ومن أعمق ما يمكن ملاحظته في هذا التلاقي، أنَّه لا يقوم على إلغاء الفوارق، بل على إدارتها ضمن أفقٍ أعلى. فالإمام الحسين عليه السلام لا يطلب من الآخر أن يتخلّى عن هويته ليقترّب منه، بل يقدّم له مساحةً يلتقي فيها معه دون أن يفقد نفسه. وهذه خاصيةٌ نادرة في الرموز التاريخية، إذ غالبًا ما تتحوّل الرموز إلى أدواتٍ إقصاء، لا إلى جسور تواصل. أمّا الإمام الحسين عليه السلام، فقد بقي رغم عمق انتماؤه الديني قادرًا على أن يكون جامعًا، لا مفرقًا، لأنَّ خطابه موجه إلى الإنسان في جوهره، لا إلى انتماؤه الظاهري.



وهنا تتجلى الأربعين بوصفها “مختبرًا إنسانيًا حيًا”، تُختبر فيه إمكانية التعايش على أساس القيم، لا المصالح. فحين ترى ملايين الناس، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، يسرون في اتجاه واحد، لا بدافع القسر، بل بدافع الحب، تدرك أنّ هناك شيئًا أعمق من السياسة وأقوى من الاختلافات التقليدية. إنّ ذلك الخيط الخفي الذي يربط الإنسان بالمعنى، والذي يجد في الإمام الحسين عليه السلام تعبيرًا مكثفًا عنه.

ولعلّ من اللافت أيضًا أنّ هذا التلاقي لا يظلّ في حدود الإعجاب العاطفي، بل يتجاوز ذلك إلى نوع من التحوّل الداخلي. فكثيرٌ من غير المسلمين الذين خاضوا تجربة الأربعين، لم يخرجوا منها كما دخلوها؛ لأنّهم واجهوا نموذجًا حيًا للتضحية المجانية، والخدمة غير المشروطة، والعطاء الذي لا ينتظر مقابلًا. وهذه القيم، حين تُعاش لا حين تُقال، تملك قدرةً هائلةً على اختراق الحواجز النفسية والثقافية.

إنّ الإمام الحسين عليه السلام، في نهاية المطاف، ليس مجرد جسرٍ بين الأديان، بل هو جسرٌ بين الإنسان ونفسه. فمن خلاله، يكشف الإنسان ما يمكن أن يكون عليه، لا ما هو عليه فقط. ومن خلاله، يدرك أنّ القيم الكبرى كالعدالة والحرية والكرامة ليست شعاراتٍ مثالية، بل ممكناتٌ واقعية، دفع الإمام الحسين عليه السلام ثمنها دمًا، لتبقى حيّةً في ضمير البشرية.





وهكذا، فإنَّ وحدة المسلمين وغير المسلمين حول الإمام الحسين (عليه السلام) ليست ظاهرةً عابرة، ولا حدثًا ظرفيًا، بل هي تعبيرٌ عن حقيقةٍ أعمق: أنَّ الحق، حين يُجسّد بصدق، يصبح مفهومًا عالميًا، وأنَّ التضحية، حين تبلغ ذروتها، تتحوّل إلى لغةٍ يفهمها الجميع. وفي هذا، يكمن سرّ الإمام الحسين عليه السلام، وسرّ كربلاء، وسرّ هذا التلاقي الذي لا يزال يتجدّد، عامًّا بعد عام، كأنّه وعدٌ مفتوح بأنّ الإنسانية رغم كلّ انقساماتها لا تزال قادرةً على أن تجتمع حول النور

رابعًا: الأربعين كأكبر تجمع إنساني عالمي
حين يُقال إنّ الأربعين هو أكبر تجمعٍ إنساني في العالم، فإنّ الذهن قد يذهب مباشرةً إلى الأرقام، إلى ملايين الأقدام التي تتحرّك في اتجاهٍ واحد، وإلى الحشود التي تملأ الطرقات من أقصى الامتدادات إلى قلب كربلاء. غير أنّ هذا الوصف، على صحّته الإحصائية، يظلّ قاصرًا عن الإحاطة بجوهر الظاهرة؛ لأنّ العظمة هنا ليست رقمًا يُحصى، بل معنىً يُعاش، وليست كثافةً بشريةً تُرى، بل كثافةً قيميةً تُستشعر.

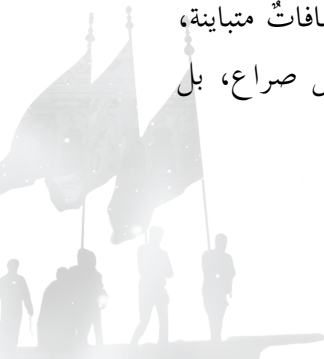
إنّنا أمام نموذجٍ فريد في علم الاجتماع الإنساني، حيث يجتمع هذا العدد الهائل من الناس دون أن تحكمه آليات الضبط التقليدية التي تقوم عليها التجمعات الكبرى في العالم. فلا وجود لمؤسسة مركزية تُدير التفاصيل، ولا منظومة قانونية صارمة تُراقب كل حركة، ولا حوافز مادية تُغري بالحضور. ومع ذلك، ينتظم هذا البحر البشري في سلوكٍ يكاد يلامس المثال، وكأنّ هناك "نظامًا خفيًا" ينبثق من الداخل، لا يُفرض من الخارج، نظامٌ تصوغه القيم قبل القوانين، ويقوده الوجدان قبل التعليمات.



وهنا تكمن فريدة الأربعين: إنّه اجتماعٌ لا يقوم على الترفيه كما في المهرجانات، ولا على المصالح كما في المؤتمرات، ولا على الانتماء القومي كما في الحشود السياسية، بل يقوم على “قضية أخلاقية خالصة”، تتمحور حول معنى التضحية في سبيل الحق، كما تجلّى في نهضة الإمام الحسين (عليه السلام). وهذا النوع من الدوافع، حين يكون صادقاً، يُنتج سلوكاً مختلفاً تماماً؛ إذ يتحوّل الفرد من كونه مستهلكاً للحدث إلى كونه شريكاً في صناعته، ومن متلقٍ للخدمة إلى مقدّم لها.

وفي هذا السياق، تتجلّى واحدة من أعمق الظواهر في الأربعين: ظاهرة “اقتصاد العطاء المجاني”. فالملايين التي تسير، لا تسير وهي تبحث عمّا تأخذ، بل عمّا تعطي. البيوت تُفتح، والموائد تُمدّ، والخدمات تُقدّم بلا مقابل، لا بوصفها أعمالاً خيريةً موسمية، بل بوصفها تعبيراً طبيعياً عن حالةٍ داخلية من الانتماء القيمي. إنّنا هنا أمام نموذجٍ اقتصادي غير مألوف، تُدار فيه الموارد لا بمنطق العرض والطلب، بل بمنطق البذل والإيثار، حيث يُقاس الغنى بما يُعطى لا بما يُدّخر.

ومن زاويةٍ أخرى، يمكن قراءة الأربعين بوصفها “تجربةٌ ميدانية لإدارة الاختلاف”. ففي هذا الطريق، تتجاوز لغاتٌ متعددة، وثقافاتٌ متباينة، وخلفياتٌ اجتماعيةٌ متناقضة، لكنّها لا تتحوّل إلى عوامل صراع، بل إلى عناصر إثراء.



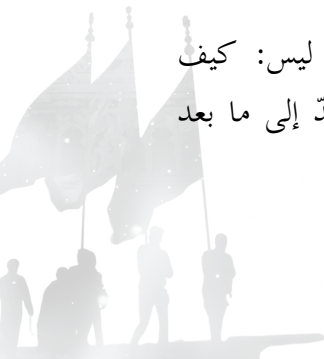


والسرّ في ذلك أنّ الجميع يتحرّك ضمن “مركزٍ قيمي مشترك”، يجعل من الاختلاف أمرًا ثانويًا أمام وحدة الهدف. وهذا ما يفتقده العالم المعاصر، حيث تتحوّل الاختلافات الصغيرة إلى أسبابٍ كافيةٍ للانقسام، في ظل غياب مرجعيةٍ عليها تُعيد ترتيب الأولويات.

إنّ الأربعين، بهذا المعنى، لا تقدّم مجرد صورةٍ مثالية، بل تقدّم “إمكانًا واقعيًا” لما يمكن أن يكون عليه الإنسان حين يتحرّر—ولو مؤقتًا—من أنانيته. فحين ترى إنسانًا يسير مئات الكيلومترات، متحملاً التعب، لا لغايةٍ شخصية، بل استجابةً لنداءٍ معنوي، تدرك أنّ الإنسان ليس كائنًا نفعيًا صرفًا، كما تصوّره بعض النظريات، بل هو قادرٌ على تجاوز ذاته حين يجد المعنى الذي يستحقّ.

ولعلّ الأهم من ذلك كلّهُ، أنّ هذه التجربة لا تبقى حبيسة الزمن الذي تقع فيه، بل تترك أثرًا يمتدّ إلى ما بعد انتهائها. فالأربعين ليست لحظةً عابرة، بل هي “إعادة تشكيلٍ مؤقتةٍ للإنسان”، يختبر فيها نمطًا مختلفًا من الوجود، قائمًا على البساطة، والتكافل، والتجرّد من التعقيدات.

ومن هنا، فإنّ السؤال الحقيقي الذي تطرحه الأربعين ليس: كيف اجتمع هؤلاء؟ بل: لماذا لا يمكن لهذا النموذج أن يمتدّ إلى ما بعد الطريق؟





وفي عالمٍ يعاني من أزمات ثقةٍ عميقة، ومن تفكّكٍ في الروابط الاجتماعية، ومن تضخّمٍ في النزعة الفردية، تأتي الأربعين لتقدّم شهادةً حيّة على أنّ الاجتماع البشري لا يزال ممكنًا على أساس القيم، لا المصالح فقط. إنّها تذكيرٌ بأنّ الإنسان، رغم كلّ ما يعتريه، لا يزال يحمل في داخله قابليّةً للخير، تنتظر فقط السياق الذي يُحرّكها.

وهكذا، فإنّ وصف الأربعين بأنّه أكبر تجمّع إنساني، ينبغي أن يُفهم بوصفه مدخلًا لا خاتمة. فالكبر الحقيقي هنا ليس في عدد الأجساد، بل في علوّ الفكرة، ولا في امتداد الطريق، بل في عمق التحوّل الذي يحدث في السائرين عليه. إنّهُ تجمّعٌ يُعيد تعريف العلاقة بين الفرد والمجتمع، بين الأخذ والعطاء، بين الاختلاف والوحدة، بطريقةٍ لا تُكتب في النظريات، بل تُعاش في الواقع.

وفي نهاية هذا المشهد، حين تتقارب الخطى نحو كربلاء، لا يكون السير مجرد حركةٍ في المكان، بل تحوّلًا في المعنى. فالناس، في ظاهر الأمر، يسرون نحو مدينة، لكنّهم، في جوهر التجربة، يسرون نحو إعادة اكتشاف الإنسان في أنفسهم... نحو تلك الصورة الأسمى التي قد تضيع في زحام الحياة، لكنها تظهر بوضوحٍ على هذا الطريق، كأنّها تقول: هنا، يمكن للإنسان أن يكون أكثر إنسانية.



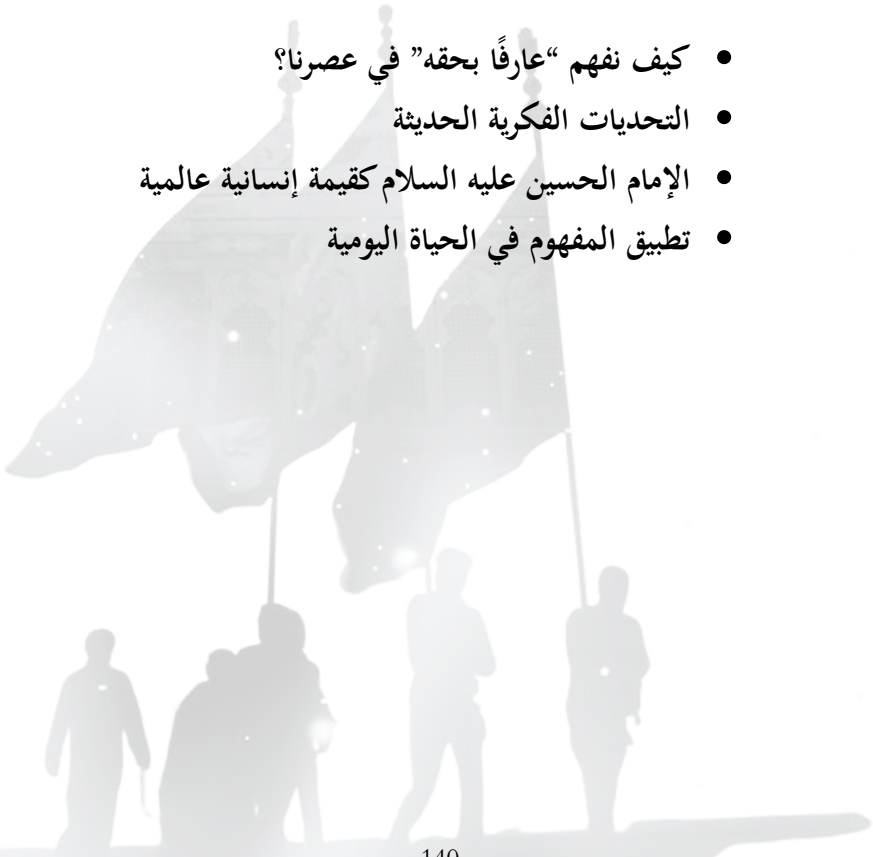


المحور الثامن



المحور الثامن: قراءة معاصرة للرواية

- كيف نفهم “عارفاً بحقه” في عصرنا؟
- التحديات الفكرية الحديثة
- الإمام الحسين عليه السلام كقيمة إنسانية عالمية
- تطبيق المفهوم في الحياة اليومية





المحور الثامن: قراءة معاصرة للرواية

إنّ الوقوف عند عبارة «عارفاً بحقه» في هذا الحديث، في أفق القراءة المعاصرة، لا يجوز أن يُختزل في حدود الفهم التراثي الضيق، ولا أن يُفكَّك عن سياقه العقدي العميق، بل المطلوب هو استنطاق هذا القيد بوصفه معياراً حياً، يتجدّد بتجدّد أدوات المعرفة وتحولات الوعي الإنساني. فالنصّ، في جوهره، لا يحدّد شكل المعرفة بقدر ما يحدّد حقيقتها؛ أي أنّه لا يسأل: كيف عرفت؟ بل يسأل: ماذا أدركت؟ وإلى أيّ حدّ تحوّلت هذه المعرفة إلى وعيٍ فاعلٍ في السلوك والموقف.

في الأزمنة السابقة، كانت المعرفة الدينية تتشكّل غالباً ضمن بيئات مغلقة نسبياً، تُنقل فيها المفاهيم عبر السند، ويُنشئ فيها الوعي عبر التلقّي المتدرّج داخل منظوماتٍ تعليميةٍ محدّدة. أمّا اليوم، فإنّ الإنسان يعيش في فضاءٍ معرفي مفتوح، تتقاطع فيه المصادر، وتتداخل فيه المرجعيات، وتتنافس فيه الروايات على تشكيل الإدراك. ومن هنا، فإنّ “المعرفة” لم تعد مجرد تلقّي، بل أصبحت عمليةً معقّدة من الفرز والنقد والاختيار، ما يفرض إعادة النظر في معنى أن يكون الإنسان “عارفاً”.

إنّ “المعرفة بالحق” في هذا السياق لم تعد تعني فقط الإحاطة بالمقام النظري للإمام صلوات الله عليه، ولا مجرد الاعتقاد بإمامته، بل تتجاوز ذلك إلى نوعٍ من الإدراك المركّب، الذي يجمع بين البعد العقدي، والبعد التاريخي، والبعد القيمي، والبعد الوجودي.



فأن تعرف الإمام الحسين (عليه السلام) اليوم، يعني أن تدركه بوصفه “موقفًا” قبل أن يكون “شخصًا”، وبوصفه “منهجًا” قبل أن يكون “ذكرى”.

المعرفة هنا تتحوّل من كونها معلومة تُحفظ، إلى كونها رؤية تُبنى، ومن كونها قناعةً ذهنية، إلى كونها التزامًا عمليًا.

وفي ظلّ التحديات المعاصرة، تتخذ هذه المعرفة بُعدًا نقديًا لا يمكن إغفاله. فالعالم اليوم يقدم نماذج متعدّدة للحقّ والباطل، تُزيّن بوسائل إعلامية متقدّمة، وتُلبس أثوابًا أخلاقية زائفة، ما يجعل التمييز بينهما أكثر تعقيدًا. وهنا، يصبح “الحقّ الحسيني” معيارًا تحليليًا، لا مجرد شعار عاطفي؛ معيارًا يُمكن الإنسان من تفكيك الخطابات، وكشف البنى الخفية للظلم، حتى حين تتخفى في صورٍ حديثة.

كما أنّ “المعرفة” في زمننا لم تعد محصورة في البُعد الفردي، بل أصبحت ذات امتدادٍ اجتماعي. فأن تكون عارفًا بحقّ الإمام الحسين عليه السلام، لا يعني فقط أن تُحسن فهمه في ذاتك، بل أن تُسهم بقدر طاقتك في تجلّي هذا الفهم في محيطك؛ في خطابك، في مواقفك، في اختياراتك اليومية.

إنّها معرفة تُطالب صاحبها بأن يكون شاهدًا على القيم التي يحملها، لا مجرد مؤمنٍ بها في داخله.





ومن جهةٍ أخرى، فإنّ القراءة المعاصرة لهذا القيد تفرض علينا أن نُميز بين “المعرفة الحقيقية” و”المعرفة المتخيّلة”. فليس كلّ من ظنّ أنّه يعرف، هو في الحقيقة عارف. قد تتحوّل المعرفة أحياناً إلى قشرةٍ ثقافية، تُستخدم لتعزيز الهوية، دون أن تنفذ إلى عمق الوعي. وهنا، يأتي الحديث ليضع شرطاً دقيقاً: ليس المطلوب مجرّد الزيارة، بل الزيارة الواعية، التي تنطلق من إدراكٍ حقيقي للحق، إدراكٍ ينعكس أثره في طريقة التفكير ونمط الحياة.

وفي هذا الإطار، يمكن القول إنّ “عارفاً بحقي” هي دعوةٌ مفتوحة لإعادة بناء العلاقة مع الإمام الحسين (عليه السلام) على أساس الوعي، لا العادة؛ وعلى أساس الفهم، لا التكرار. إنّها تحرّر الزيارة من أن تكون طقساً، لتجعل منها موقفاً، وتحرّرها من أن تكون انفعالاً مؤقتاً، لتجعل منها مساراً مستمراً.

وهكذا، فإنّ هذا القيد، في قراءته المعاصرة، لا يُضيّق الدائرة، بل يوسّعها؛ لأنّه لا يضع شروطاً شكلية، بل يفتح أفقاً عميقاً للمعرفة، يتناسب مع تعقيد الإنسان الحديث. إنّهُ يُحمّل الزائر مسؤولية أن يكون على مستوى الوعي الذي يدّعيه، وأن يُترجم هذا الوعي إلى حضورٍ مختلف في العالم.



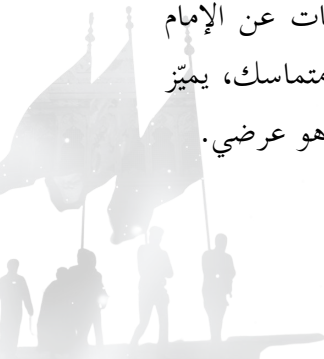


وفي نهاية المطاف، يبقى السؤال مفتوحاً، لا ليُجاب عنه مرّةً واحدة، بل ليُعاد طرحه باستمرار: هل نحن نعرف الإمام الحسين عليه السلام كما ينبغي، أم أننا نكتفي بصورةٍ موروثّةٍ لا تُحرّك فينا شيئاً؟ لأنّ الفرق بين المعرفة الحقيقية والمعرفة الشكلية، هو الفرق بين زيارةٍ تغيّر الإنسان، وزيارةٍ يخرج منها كما دخل... دون أن يمسه من الإمام الحسين عليه السلام إلا الاسم.

أولاً: كيف نفهم “عارفاً بحقه” في عصرنا؟

إنّ محاولة فهم قيد «عارفاً بحقه» في أفق العصر الراهن تقتضي أولاً أن ندرك طبيعة التحوّل الذي أصاب مفهوم المعرفة نفسه. فنحن لم نعد نعيش زمن الندرة المعرفية، حيث تكون المعلومة نادرةً ويكون تحصيلها إنجازاً بحدّ ذاته، بل دخلنا زمن “فيض المعلومات”، حيث أصبحت المشكلة لا في الوصول إلى المعرفة، بل في غربلتها، ولا في تحصيلها، بل في تمحيصها.

ومن هنا، فإنّ معيار “العرفان” الذي تشير إليه الرواية لا يمكن أن يُفهم اليوم بوصفه مجرد امتلاكٍ لمجموعة من المعلومات عن الإمام الحسين (عليه السلام)، بل بوصفه قدرةً على بناء وعيٍ متماسك، يميّز بين ما هو أصيل وما هو طارئ، بين ما هو جوهري وما هو عرضي.





في هذا السياق، يصبح “العارف” هو الذي لا يكتفي بتلقي الصورة، بل يُخضعها للتحليل، ولا يسلّم بالرواية لمجرّد شيوعتها، بل يختبرها بميزان القيم التي جاء بها الإمام الحسين عليه السلام نفسه. فالمعرفة الحسينية، في جوهرها، ليست تراكمًا معلوماتيًا، بل هي “بصيرة معيارية”، تُعيد ترتيب الإدراك، بحيث يصبح الإمام الحسين عليه السلام مرجعًا في فهم الحق، لا مجرّد موضوع للحديث عنه. وهذا التحوّل من “المعرفة عن” إلى “المعرفة ب” هو الفارق الدقيق الذي تصنعه كلمة «عارفًا».

وإذا كان العصر الحديث قد أنتج أشكالًا متعدّدة من التمثّل للإمام الحسين عليه السلام بين تمثّل عاطفي يختزله في مشهد الألم، وتمثّل فكري يجرّده إلى فكرةٍ مجرّدة فإنّ القراءة المعاصرة لهذا القيد تدعونا إلى تجاوز هذا الانقسام المصطنع، نحو استعادة التوازن بين البُعدين. فالإمام الحسين (عليه السلام) ليس حالةً وجدانيةً تُستهلك في لحظة البكاء، ولا هو مفهومٌ نظري يُختزل في خطابٍ تحليلي، بل هو وحدةٌ متكاملة، يتعانق فيها الشعور والفكر، وتتجسّد فيها القيم في صورة موقف.

ومن هنا، فإنّ “عارفًا بحقه” تعني أن تُعيد تحرير الإمام الحسين عليه السلام من كلّ أشكال التوظيف الضيق إن جاز لنا التعبير بذلك، التي قد تُفرّغه من محتواه الحقيقي. فحين يُختزل في إطارٍ عاطفيٍّ صرف، يفقد قدرته على التوجيه، وحين يُختزل في إطارٍ فكريٍّ بارد، يفقد قدرته على الإلهام.



أما المعرفة الحقيقية، فهي التي تُبقي على هذا التوتر الخلاق بين القلب والعقل، بحيث يتحوّل الإمام الحسين عليه السلام إلى قوةٍ دافعةٍ في الوجدان، وإلى معيارٍ ضابطٍ في التفكير.

وفي بُعدٍ أعمق، تفرض علينا هذه العبارة أن ننقل الإمام الحسين عليه السلام من دائرة “التمثّل الرمزي” إلى دائرة “التمثّل العملي”. فليس المقصود أن نعرفه بوصفه نموذجًا تاريخيًا يُحتفى به، بل بوصفه نموذجًا معياريًا يُحتذى به. وهذا يعني أنّ المعرفة، لكي تكون صادقة، لا بدّ أن تنعكس في بنية القرار عند الإنسان: في موقفه من الظلم، في حساسيته تجاه الكرامة، في استعداداته للتضحية حين تتطلّب القيم ذلك. هنا فقط، تنتقل المعرفة من كونها وصفًا إلى كونها فعلًا.

كما أنّ من مقتضيات هذا الفهم المعاصر، إدراك أنّ “الحقّ الحسيني” ليس مفهومًا معزولًا عن واقع الإنسان، بل هو قابلٌ للتجسّد في كلّ زمانٍ ومكان، وإن اختلفت صوره. فالظلم اليوم قد لا يأتي في صورة السيف، بل في صورة منظوماتٍ معقّدة من الهيمنة، وقد لا يُمارس بالقوة المباشرة، بل عبر أدواتٍ ناعمة تُعيد تشكيل الوعي. ومن هنا، فإنّ العارف بحقّ الإمام الحسين عليه السلام هو الذي يمتلك القدرة على تشخيص هذه الأشكال الجديدة من الانحراف، ويستحضر الموقف الحسيني بوصفه أداةً لفهمها ومواجهتها.





ولا يقلّ عن ذلك أهمية، أن ندرك أنّ المعرفة المطلوبة في الرواية هي معرفة “محوّلة”، لا “محيطة” فقط. أي أنّها لا تُقاس بمدى ما ندركه من تفاصيل، بل بمدى ما تُحدثه فينا من تحوّل. فقد يعرف الإنسان الكثير عن الإمام الحسين عليه السلام، لكنّ هذه المعرفة تبقى خارج كيانه، لا تمسّ سلوكه، ولا تُعيد تشكيل أولوياته. وفي المقابل، قد يمتلك آخر قدرًا أقلّ من المعلومات، لكنّه يعيش الإمام الحسين عليه السلام بوصفه معيارًا يوميًا، فيكون بهذا المعنى أقرب إلى “العرفان” الذي تشير إليه الرواية.

وهكذا، فإنّ “عارفًا بحقه” في عصرنا، لم تعد تعني: كم قرأنا؟ بل: كيف نفكر؟ ولا: ماذا نحفظ؟ بل: كيف نختار؟ إنّها تحوّل الإمام الحسين عليه السلام من موضوع للذاكرة إلى مصدرٍ للبصيرة، ومن حدثٍ يُستعاد إلى معيارٍ يُحتكم إليه. وبذلك، تصبح الزيارة في ضوء هذا الفهم فعلًا واعيًا، يُعبّر عن انسجام بين المعرفة والموقف، بين الإدراك والسلوك.

وفي خاتمة هذا التأمل، يمكن القول إنّ المعرفة الحقيقية بالإمام الحسين عليه السلام ليست ما نُضيفه إلى رصيدنا الثقافي، بل ما يُعيد تشكيل هذا الرصيد من الداخل. إنّها ليست ما نقوله عنه، بل ما يقوله هو فينا، حين يتحوّل إلى صوتٍ داخلي، يُصّح المسار، ويُربك الاعتياد، ويدفع الإنسان كلّما همّ بالتنازل أن يتذكّر أنّ هناك دمًا قد سُفك، لا ليروى كحكاية، بل ليبقى معيارًا لا يُساوم عليه



ثانيًا: التحديات الفكرية الحديثة

إنَّ الحديث عن التحديات الفكرية الحديثة لا يمكن أن يُفهم بوصفه توصيفًا خارجيًا لواقع مضطرب فحسب، بل ينبغي أن يُقرأ بوصفه تحوُّلاً عميقًا في “بنية الوعي” الإنساني؛ تحوُّلاً أعاد صياغة الأسئلة الكبرى التي يطرحها الإنسان على نفسه، وعلى الدين، وعلى التاريخ. وفي هذا الأفق المتغيّر، لم تعد القضايا الدينية تُواجه بالإنكار الصريح فقط، بل تُواجه—في كثير من الأحيان—بإعادة تعريفٍ ناعمة تُفرغها من مضمونها، وتُبقي على شكلها.

من هنا، تأتي خطورة النزعة المادية، لا لأنها تنكر الغيب بشكلٍ مباشر دائمًا، بل لأنها تعيد ترتيب الأولويات في وعي الإنسان، بحيث يصبح الملموس هو الأصل، ويغدو غير الملموس—بما فيه القيم—ملحقًا أو ترفًا. وفي ظلّ هذا التحوّل، يُعاد تعريف النجاح، والحرية، والكرامة، بمعايير كمية قابلة للقياس، بينما تُهمّش المعايير الأخلاقية التي لا تُختزل في أرقام. وحين يُعاد تشكيل الوعي بهذه الطريقة، يصبح من السهل أن يُنظر إلى الإمام الحسين (عليه السلام) بوصفه “خاسرًا” في ميزان القوة، بدل أن يُفهم بوصفه منتصرًا في ميزان القيمة.

أمّا النسبية الأخلاقية، فهي تمثّل تحدّيًا أكثر تعقيدًا، لأنها لا تُنكر القيم، بل تُذيبها. فهي تقرّ بوجود “الخير”، لكنّها تجرّده من معناه الثابت، وتجعله تابعًا للذوق أو السياق أو المصلحة. وفي مثل هذا المناخ، يفقد الصراع بين الحق والباطل حدّته، ويتحوّل إلى مجرّد اختلافٍ في وجهات النظر.



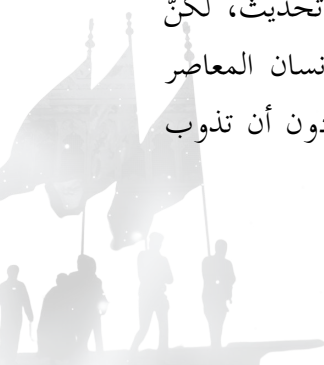
وهنا تحديداً، تتعرض كربلاء لخطر “التسوية”، حيث يُعاد تقديمها بوصفها نزاعاً تاريخياً بين طرفين، لا بوصفها مفصلاً أخلاقياً حاسماً بين مسارين متناقضين.

ثم تأتي القراءات السطحية، بوصفها أحد أخطر أشكال التشويه المعاصر، لأنها لا تهاجم الرمز، بل تُفرغه من داخله. فهي تُبقي على الإمام الحسين (عليه السلام) حاضراً في الذاكرة، لكنها تُجرّده من مشروعه، وتحوّله إلى طقسٍ عاطفي يُستهلك في لحظات محدّدة، دون أن يمتدّ أثره إلى بنية التفكير أو القرار.

وبهذا، يتحوّل الحضور الكثيف إلى غيابٍ عميق، لأنّ الرمز حاضراً في الشكل، غائبٌ في المضمون.

في مواجهة هذه التحدّيات، لا يكفي أن نُعيد تكرار الخطاب التقليدي، ولا أن نكتفي بالدفاع الانفعالي، بل تبرز الحاجة إلى “إعادة بناء العرض”، لا “إعادة بناء الأصل”.

فالإمام الحسين (عليه السلام) في ذاته لا يحتاج إلى تحديث، لكنّ طريقة تقديمه تحتاج إلى مراجعة، بحيث تُخاطب الإنسان المعاصر بلغته، دون أن تتنازل عن عمقها، وتستجيب لأسئلته، دون أن تذوب فيها.





وهنا، ينبغي أن يُقدّم الإمام الحسين عليه السلام بوصفه “إجابة”، لا بوصفه “موضوعاً”. أي أن لا يُطرح فقط في سياق السرد التاريخي، بل في سياق الإشكاليات المعاصرة التي يعيشها الإنسان. فحين يسأل الإنسان اليوم: كيف أكون حرّاً في عالمٍ يفرض عليّ أنماطاً جاهزة؟ فإنّ الإمام الحسين عليه السلام يقدّم نموذج الحرية المرتبطة بالحق، لا الحرية المنفصلة عنه.

وحين يسأل: كيف أواجه منظومات الظلم المعقّدة التي لا تُرى بسهولة؟ فإنّ كربلاء تُعلّمه أنّ المواجهة تبدأ من الوعي، قبل أن تصل إلى الفعل. وحين يتساءل: كيف أحافظ على إنسانيّتي في عالمٍ يضغط نحو التشييء؟ فإنّ الإمام الحسين عليه السلام يضع أمامه نموذج الإنسان الذي يرفض أن يتحوّل إلى أداة، مهما كانت الكلفة.

إنّ التحديّ الحقيقي، إذن، لا يكمن في إثبات عظمة الإمام الحسين عليه السلام، فهذه العظمة قائمة بذاتها، بل في “تفعيلها” داخل الوعي المعاصر، بحيث تتحوّل من قيمةٍ مُعترفٍ بها إلى معيارٍ مُستخدم.

وهذا يقتضي الانتقال من مستوى “الانتماء الرمزي” إلى مستوى “الانخراط القيمي”، حيث لا يكون الإمام الحسين عليه السلام جزءاً من الهوية الثقافية فقط، بل جزءاً من آلية اتخاذ القرار.





وفي هذا الإطار، تصبح كربلاء حدثاً مفتوحاً، لا ينتمي إلى الماضي بقدر ما يتجدّد في كلّ سياقٍ يُعاد فيه طرح الأسئلة ذاتها بصيغٍ مختلفة. فكلّ زمانٍ له “يزيده” الخاص، ليس بالضرورة في صورة شخص، بل في صورة منظوماتٍ من الانحراف، وكلّ زمانٍ يحتاج إلى استحضار “الإمام الحسين عليه السلام” بوصفه وعياً يقطّأ، لا مجرد ذكرى مؤلمة.

وهكذا، فإنّ إعادة تقديم الإمام الحسين (عليه السلام) بلغةٍ معاصرة لا تعني تبسيطه إلى حدّ التفرّغ، ولا تعقيده إلى حدّ الانفصال، بل تعني بناء جسرٍ بين أصالة الرسالة وحادثة السؤال. جسرٌ يجعل من كربلاء نصّاً حيّاً يُقرأ في ضوء الحاضر، ومن الإمام الحسين عليه السلام صوتاً يتجدّد صدهاء في ضمير الإنسان، كلّما حاول العالم أن يقنعه بأنّ القيم يمكن التفاوض عليها، وأنّ الحق يمكن تأجيله.

وفي نهاية المطاف، يبقى الرهان على أن يتحوّل هذا الفهم إلى قدرةٍ على المقاومة الداخلية، مقاومة التميع، ومقاومة التبسيط، ومقاومة الاستسلام لواقعٍ يُراد له أن يُعاد تشكيله بعيداً عن المعايير الأصيلة. فالإمام الحسين عليه السلام، في عمقه، ليس فقط من واجه الظلم في لحظةٍ تاريخية، بل من قدّم للإنسان “منهجاً في المواجهة”، يظلّ صالحاً ما دام في العالم ظلم، وما دام في الإنسان ضمير.



ثالثًا: الإمام الحسين عليه السلام كقيمة إنسانية عالمية

إنّ النظر إلى الإمام الحسين (عليه السلام) بوصفه قيمةً إنسانيةً عالمية لا ينبع من رغبةٍ في توسيع دائرة التأثير فحسب، بل من طبيعة الرسالة التي تجسّدت في موقفه؛ إذ إنّ كربلاء، في عمقها، لم تكن حدثًا محليًا محدودًا بزمانه ومكانه، بل كانت لحظةً كاشفةً عن إمكانات الإنسان حين يلتزم بالقيم إلى أقصى حدودها.

ومن هنا، فإنّ عالمية الإمام الحسين عليه السلام لا تُفهم على أنّها انتقالٌ من الخصوصية إلى العمومية بمعنى التخلّي عن الهوية، بل على أنّها انكشافٌ لما في هذه الهوية من طاقةٍ إنسانية قادرة على الامتداد.

فالقيم التي حملها الإمام الحسين عليه السلام كالعدل، والحرية، والكرامة ليست مفاهيم طارئة تُفرض على الإنسان من الخارج، بل هي منسوجة في بنيته الفطرية، ولذلك تجد صداها في كلّ بيئة، مهما اختلفت خلفياتها الثقافية أو الدينية. لكنّ الذي يمنح هذه القيم قوّتها الاستثنائية في التجربة الحسينية، ليس مجرد حضورها النظري، بل تجسّدها العملي في موقفٍ بلغ حدّ التضحية القصوى. وهنا تحديدًا، يتحوّل الإمام الحسين عليه السلام من “داعيةٍ إلى القيم” إلى “شاهدٍ عليها”، ومن “مبشّرٍ بها” إلى “مُجسّدٍ لها”، وهذا ما يجعل خطابه قابلاً للفهم خارج حدود الانتماء الضيق.



غير أنّ التأكيد على هذه العالمية لا ينبغي أن يُفهم بوصفه دعوةً لتجريد الإمام الحسين عليه السلام من هويته الدينية، لأنّ هذه الهوية ليست قيدًا يحدّ من انتشاره، بل هي الإطار الذي أعطى لتجربته معناها وعمقها. إنّما المقصود هو إدراك أنّ هذه الهوية، في جوهرها، تحمل بُعدًا إنسانيًا مفتوحًا، وأنّ الانطلاق منها لا يعني الانغلاق، بل يتيح تقديم نموذج متكامل، يجمع بين الأصالة والانفتاح، بين الانتماء والامتداد.

وفي هذا السياق، تتخذ عبارة “معرفة حقه” بُعدًا جديدًا؛ إذ لا تقتصر على الإقرار بمقامه ضمن المنظومة العقدية، بل تمتدّ إلى إدراك موقعه في الخريطة الأخلاقية للإنسانية. فأن تعرف الإمام الحسين عليه السلام في هذا الأفق، يعني أن تراه بوصفه معيارًا يُقاس به الموقف الأخلاقي، لا مجرد شخصية تُروى سيرتها. يعني أن تدرك أنّ ما قام به ليس خيارًا تاريخيًا معزولًا، بل إمكانيًا إنسانيًا مفتوحًا، يُمكن أن يتكرّر بصورة مختلفة كلّما وُجد إنسانٌ يرفض أن يُساوم على الحق.

ومن هنا، يصبح تقديم الإمام الحسين عليه السلام للعالم مسؤوليةً معرفية، لا مجرد مهمة تبشيرية. أي أنّ المطلوب ليس أن نُعرّف به بوصفه رمزًا خاصًا بنا، بل أن نكشف عن أبعاده التي تمسّ الإنسان بما هو إنسان. وهذا يقتضي لغةً قادرةً على العبور بين الثقافات، تُبرز الجوهر دون أن تُفترط في الأصل، وتُخاطب العقل دون أن تُهمل الوجدان. فالعالم اليوم لا يحتاج إلى رموزٍ جديدة بقدر ما يحتاج إلى إعادة اكتشاف الرموز التي تحمل في داخلها طاقةً أخلاقية قادرة على الإسهام في معالجة أزماته.



وعلى هذا الأساس، يفتح الإمام الحسين عليه السلام أفقاً لحوارٍ حضاري مختلف، لا يقوم على محاولة إلغاء الفوارق، بل على البحث عن المشتركات العميقة التي يمكن أن تُبنى عليها جسور التفاهم. إنّه لا يدعو الآخر إلى أن يكون نسخةً منه، بل يقدّم له نموذجاً يمكن أن يتحاور معه، ويستلهم منه، دون أن يفقد خصوصيته.

وهذا النوع من الحضور هو الذي يحوّل الرمز من عنصر انقسام إلى نقطة التقاء، ومن سببٍ للاختلاف إلى مجالٍ للتواصل.

وفي بُعدٍ أدقّ، فإنّ عالمية الإمام الحسين عليه السلام لا تتحقّق بمجرد الاعتراف بها، بل بتفعيلها في الخطاب والممارسة. أي أنّها تحتاج إلى أن تنعكس في الطريقة التي يُقدّم بها، وفي القيم التي تُستخرج من تجربته، وفي الأسئلة التي يُستدعى للإجابة عنها.

فإذا ظلّ الإمام الحسين عليه السلام محصوراً في إطارٍ داخلي، فلن تتجلى عالميته، أمّا إذا أُعيد طرحه بوصفه إجابةً على القلق الإنساني العام لقلق من الظلم، من فقدان المعنى، من تآكل الكرامة فإنّه سيجد طريقه إلى الضمير الإنساني، كما وجدها عبر التاريخ.





وهكذا، فإنَّ الإمام الحسين (عليه السلام)، في هذا الأفق، ليس مجرّد رمزٍ يُضاف إلى قائمة الرموز الإنسانية، بل هو تجربةٌ مكثّفة لما يمكن أن يكون عليه الإنسان حين يتطابق مع القيم التي يؤمن بها. ومن هنا، فإنَّ عالميته ليست شعاراً يُرفع، بل حقيقةٌ تُكتشف كلّما اقترب الإنسان من جوهر تلك التجربة.

وفي نهاية هذا المسار، يتبيّن أنّ الإمام الحسين عليه السلام، حين يُفهم على هذا النحو، لا يقف عند حدود الذاكرة، بل يتحوّل إلى حضورٍ فاعل في الحاضر، وإلى إمكانيةٍ مفتوحة للمستقبل. إنّه جسرٌ، نعم، لكنّه ليس جسرًا بين شعوبٍ متباعدة فحسب، بل بين الإنسان وصورته الأسمى التي قد ينساها، فيأتي الإمام الحسين عليه السلام ليدركه بها... لا بالكلام، بل بالموقف

رابعاً: تطبيق المفهوم في الحياة اليومية

إنّ تحويل «معرفة الحق» من حيّز الفكرة إلى حيّز الممارسة هو الاختبار الأصدق لصدقها؛ لأنّ المعرفة التي لا تُغيّر السلوك تبقى معرفةً ناقصة، أشبه بمرآةٍ تعكس الصورة دون أن تمسّ الواقع. ومن هنا، فإنّ السؤال عن “كيف نطبّق؟” ليس سؤالاً لاحقاً على الفهم، بل هو جزءٌ من الفهم ذاته؛ إذ لا تكتمل دلالة «عارفاً بحقه» إلا حين تُرى في تفاصيل الحياة، لا في عناوينها الكبرى فقط.





البداية تكون من إعادة تعريف “اليومي” نفسه. فغالبًا ما يُظنّ أنّ القيم الكبرى تُختبر في المواقف الاستثنائية وحدها، بينما الحقيقة أنّها تُبنى وتُستنزف في التفاصيل الصغيرة المتكرّرة. الصدق في الكلمة حين لا يراك أحد، العدل في الحكم حين تتعارض المصلحة مع الإنصاف، الرحمة في التعامل حين يتيح لك الموقف أن تكون قاسيًا دون مساءلة، الشجاعة في إبداء الموقف حين يكون الصمت أكثر أمانًا... هذه ليست فضائل ثانوية، بل هي البنية التحتية لأي موقفٍ كبير. ومن دونها، يصبح الحديث عن كربلاء حديثًا منفصلًا عن الحياة.

وفي هذا الإطار، يتحوّل “الرفض” إلى ممارسة يومية واعية. فرفض الظلم لا يعني انتظار صورته القصوى، بل يبدأ من مقاومة صورته الدقيقة: من رفض الغشّ، إلى الامتناع عن استغلال الضعيف، إلى عدم تبرير الخطأ لمجرّد أنّه شائع. إنّ الحساسية تجاه “الصغير” هي التي تُنشئ القدرة على مواجهة “الكبير”. ومن هنا، فإنّ العارف بحق الإمام الحسين (عليه السلام) هو الذي يرى في كلّ انحرافٍ لو بدا عابرًا نقطة اختبارٍ لانسجامة مع القيم التي يدّعيها.

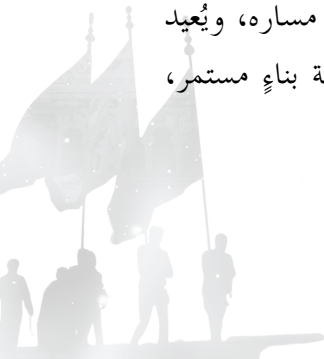
لكنّ التطبيق لا يكتمل في الدائرة الفردية وحدها، بل يمتدّ إلى المجال الاجتماعي. فالإمام الحسين عليه السلام لم يكن مشروع تركية ذاتية فحسب، بل كان حركة إصلاحٍ في الواقع، ما يعني أنّ “المعرفة” به تقتضي قدرًا من الانخراط في الشأن العام، كلٌّ بحسب موقعه وقدرته.



قد يكون ذلك عبر الكلمة المسؤولة التي تُصحح وعيًا مغلوطًا، أو عبر موقفٍ مهنيٍّ عادل يرفض الفساد، أو عبر مبادرة اجتماعية تُخفف معاناة الآخرين. المهم أن لا يبقى الإنسان متفرّجًا، لأنّ الحياء في كثير من الأحيان شكلٌ من أشكال القبول الضمني.

ومن أدقّ وجوه التطبيق أيضًا، بناء “بوصلة داخلية” قادرة على توجيه القرار في المواقف الملتبسة. فالحياة المعاصرة مليئةٌ بمناطق رمادية، لا يتجلّى فيها الحقّ والباطل بوضوحٍ دائم. وهنا، لا تكفي القواعد الجاهزة، بل يحتاج الإنسان إلى وعيٍ حيٍّ، يستحضر القيم الحسينية بوصفها معيارًا: هل هذا الخيار يحفظ الكرامة أم ينتهكها؟ هل يُنصف الآخر أم يظلمه؟ هل ينسجم مع الحقّ أم يُساوم عليه؟ هذه الأسئلة، حين تتحوّل إلى عادةٍ ذهنية، تجعل من الإمام الحسين (عليه السلام) حاضرًا في القرار، لا غائبًا عنه.

ولا يمكن إغفال بُعد “الاستمرارية” في هذا التطبيق. فالمشكلة ليست في أن يعيش الإنسان لحظاتٍ من الصفاء القيمي، بل في أن يحافظ على هذا الصفاء في سياقٍ يوميٍّ ضاغط. وهذا يقتضي نوعًا من المجاهدة الواعية، حيث يُراجع الإنسان نفسه، ويُصحح مساره، ويُعيد وصل سلوكه بالمبادئ كلّما شعر بالانفصال. إنّها عملية بناءٍ مستمر، لا قرارٌ يُتخذ مرّةً واحدة.





وفي مستوى أعمق، يصبح التطبيق الحقيقي هو القدرة على “تحمل الكلفة”. فالقيم، حين تُمارَس بجديّة، قد تُكلّف صاحبها شيئاً: خسارةً مادية، أو تضيقاً اجتماعياً، أو عزلةً مؤقتة. وهنا يتجلّى الفارق بين المعرفة التي تُرضي الضمير، والمعرفة التي تُحرّك الإرادة. فأن تكون “عارفاً بحقي” يعني أن تكون مستعداً بقدرٍ ما لدفع ثمن هذا العرفان، ولو في حدوده الدنيا.

وهكذا، فإنّ كربلاء لا تبقى حدثاً يُستعاد، بل تتحوّل إلى معيارٍ يُفعل. والزيارة لا تبقى حركةً في المكان، بل تُصبح التزاماً في الزمان. ومن خلال هذا الانتقال، تخرج «معرفة الحق» من إطار التكرار إلى أفق التجديد، ومن دائرة الانفعال المؤقت إلى مسار الفعل المستمر.

وفي نهاية المطاف، يتّضح أنّ المطلوب ليس أن تُسقط الإمام الحسين (عليه السلام) على واقعنا إسقاطاً شكلياً، بل أن نرتقي نحن بوعيٍ تدريجي إلى مستوى القيم التي جسّدها. فالإمام الحسين عليه السلام لا يحتاج أن يُعاد إلى عصرنا، لأنّه حاضرٌ بمعناه، وإنّما نحن الذين نحتاج أن نُعيد تشكيل حضورنا، بحيث نكون في حدود قدرتنا امتداداً حياً لذلك المعنى.



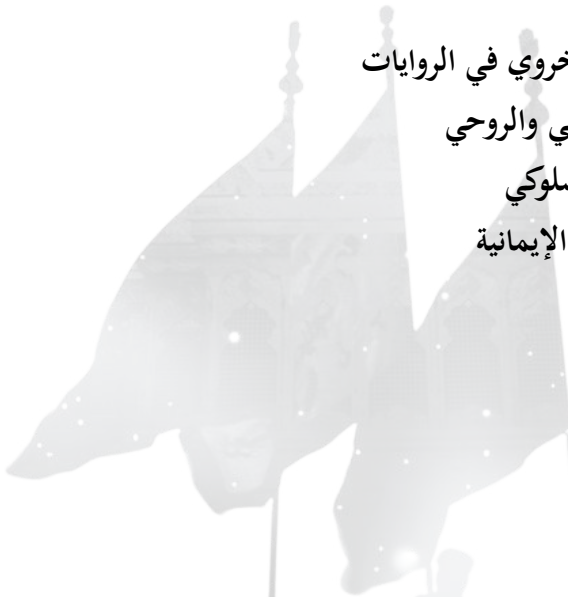


المحور التاسع



المحور التاسع: ثمرات الزيارة

- الثواب الأخروي في الروايات
- الأثر النفسي والروحي
- التحول السلوكي
- بناء الهوية الإيمانية





المحور التاسع: ثمرات الزيارة

إذا نُظر إلى زيارة الأربعين بوصفها “مسارًا” لا “حدثًا”، فإنّ ثمراتها لا تُفهم كعطاءٍ خارجي يُمنح للزائر، بل كتحوّل داخلي يُبنى فيه. فهي ليست مكافأةً على الجهد بقدر ما هي نتيجة لطبيعة الدخول إلى هذه التجربة: دخولٍ واعٍ، يحمل في داخله قابلية التغيّر، واستعدادًا لإعادة ترتيب الأولويات على ضوء المعنى الذي تمثّله كربلاء.

أولى هذه الثمرات تتجلى في بُعد “إعادة التكوين الداخلي”. فالزائر، حين يخرج من سياق حياته المعتاد بإيقاعه السريع، وضغوطه المتراكمة ويدخل في إيقاعٍ مختلف قائم على البساطة والتجرّد، يكتشف طبقاتٍ من ذاته لم تكن ظاهرة. هناك، حيث تقلّ الزوائد، وتراجع التعقيدات، يظهر الجوهر: ما الذي يحركني حقًا؟ ما الذي أبحث عنه؟ وما الذي يمكن أن أتنازل عنه حين تتعارض المصالح مع القيم؟ هذا النوع من الأسئلة لا يُطرح نظريًا، بل يُعاش في الطريق، ولذلك تكون إجاباته أعمق وأصدق.

ثم تأتي ثمرة “إعادة ترتيب العلاقة مع القيم”. ففي الحياة اليومية، كثيرًا ما تتقدّم الوسائل على الغايات، وتطغى التفاصيل على المعاني. أمّا في مسير الأربعين، فإنّ القيم تُستعاد بوصفها مركزًا: العطاء بلا مقابل، الخدمة بلا انتظار، الصبر بلا تذمّر. هذه الممارسات، حين تتكرّر في سياقٍ مكثّف، لا تبقى أفعالًا عابرة، بل تتحوّل إلى خبرة تُعيد تشكيل الحسّ الأخلاقي لدى الإنسان، بحيث يصبح أكثر حساسيةً تجاه الخير، وأكثر نفورًا من كلّ ما يناقضه.



وفي مستوى السلوك، تبرز ثمرة “التحوّل من التلقّي إلى المبادرة”. فالزائر لا يبقى مستهلكًا للمعنى، بل يصبح منتجًا له، ولو في حدوده الصغيرة. إنّه يتعلّم أن يكون جزءًا من حركة العطاء، لا مجرد متلقٍ لها، وأن يرى في نفسه قدرةً—ولو محدودة—على الإسهام في إصلاح ما حوله. وهذه النقلة، من السلبية إلى الفاعلية، هي من أهم ما تزرعه التجربة في النفس.

كما تتجلى ثمار الزيارة في “توسيع أفق الانتماء”. فالمسير، بما يحمله من تنوّع بشري وثقافي، يحرّر الإنسان من انغلاقه الضيق، ويضعه أمام تجربة حيّة للوحدة في ظلّ الاختلاف. هنا، لا تُلغى الفوارق، لكنّها تُدار ضمن أفقٍ أوسع، يجعل من المشترك القيمي أساسًا للتلاقي. وهذا الإدراك، حين يترسّخ، ينعكس على طريقة نظر الإنسان إلى الآخر في حياته اليومية، فيصبح أكثر انفتاحًا، وأقلّ قابليّةً للاختزال.

ومن الثمرات الدقيقة أيضًا، “بناء القدرة على التحمّل الواعي”. فالمسير، بما فيه من تعبٍ وجهد، ليس مجرد اختبارٍ جسدي، بل هو تدريبٌ على الصبر المرتبط بالمعنى. الإنسان قد يتحمّل كثيرًا إذا أدرك لماذا يتحمّل، وهذه القدرة—حين تُبنى—تُرافقه بعد العودة، فتجعله أكثر تماسكًا أمام تحدّيات الحياة، وأقدر على الثبات حين تتزاحم الضغوط.



وفي بُعدٍ أعمق، تمنح الزيارة “إحساسًا متجددًا بالاتجاه”. فواحدة من أزمات الإنسان المعاصر هي فقدان البوصلة، أو على الأقل ضابيتها. أمّا في الأربعين، فإنّ الاتجاه واضح: السير نحو معنى، لا نحو مكان فقط. وهذا الوضوح، حين يُختبر عمليًا، يترك أثرًا في الوعي، يجعل الإنسان أكثر قدرةً على تحديد مساراته بعد ذلك، وأقلّ عرضةً للتشتت.

غير أنّ كلّ هذه الثمرات تبقى مشروطةً بطريقة الدخول إلى التجربة. فليست الزيارة بذاتها كفيلةً بإحداث التحوّل، ما لم تُقترن بوعي “عارفًا بحقه”، أي بقدرةٍ على قراءة ما يجري، وربطه بجوهر الرسالة الحسينية. فبدون هذا الوعي، قد تتحوّل التجربة إلى عادةٍ متكرّرة، تُنتج أثرًا محدودًا، بينما الوعي يحوّلها إلى لحظةٍ تأسيسية، يُبنى عليها ما بعدها.

وهنا يظهر البُعد الأهم: أنّ ثمرات الزيارة لا تُقاس بما يحدث أثناءها فقط، بل بما يبقى بعدها. هل يعود الإنسان إلى حياته وهو يحمل شيئًا من تلك الروح؟ هل تتغيّر طريقة تعامله، ولو بدرجةٍ يسيرة؟ هل يصبح أكثر التزامًا بما أدركه من قيم؟ هذه هي المؤشرات الحقيقية لنجاح التجربة.





وفي المحصلة، فإنّ زيارة الأربعين حين تُعاش بوعي لا تُضيف إلى الإنسان "معلومة" جديدة بقدر ما تُعيد تشكيل "طريقته في أن يكون إنساناً". إنّها لا تمنحه شيئاً خارجاً عنه، بل تكشف له عمّا يمكن أن يكونه في أفضل حالاته. ومن هنا، فإنّ أثرها يفوق الجهد المبذول فيها، لأنّها لا تنتهي بانتهاء الطريق، بل تبدأ معه... كأنّها تقول للزائر: ما عشته هنا، ليس استثناءً عابراً، بل إمكانيةً دائمة، إن استطعت أن تحملها معك، وتحولها إلى نمط حياة.

أولاً: الثواب الأخروي في الروايات
إنّ الحديث عن الثواب الأخروي في روايات زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) لا ينبغي أن يُقرأ بوصفه عرضاً كمياً للأجور، أو حشداً لأوصافٍ ترغيبيةٍ منفصلة عن السياق، بل بوصفه بياناً لطبيعة العلاقة التي تتكوّن بين العبد وربّه عبر هذا المسار. فالنصوص التي تتحدّث عن مغفرة الذنوب، ورفع الدرجات، وعظيم الأجر، إنّما تكشف في عمقها عن أثر وجوديّ يطرأ على الإنسان حين يدخل في تجربة الزيارة دخولاً واعياً، لا شكلياً.

فالمغفرة، في هذا الأفق، ليست مجرد إسقاطٍ حسابي للذنوب، بل هي إعادة ترتيبٍ للعلاقة بين الإنسان ونفسه، وبين نفسه وربّه. إنّها تحوّل في الداخل، يفتح للإنسان أفقاً جديداً للبدء، بعد أن يُعيد النظر في مساره على ضوء ما أدركه من معنى التضحية والصدق. ومن هنا، فإنّ من يزور الإمام الحسين (عليه السلام) "عارفاً بحقه"، لا يخرج فقط بصفحةٍ مطويةٍ من الذنوب، بل بإرادةٍ جديدةٍ تُقلّل من قابليته للوقوع فيها.



أما رفعة الدرجات، فهي ليست ترقيةً رمزيةً في عالمٍ غيبي فحسب، بل انعكاسٌ لعلوِّ حقيقي في مستوى الوعي والقرب. فالقرب من الله، في جوهره، ليس مسافةً تُقطع، بل حالةٌ تُكتسب، تنشأ من انسجام الإنسان مع القيم التي أرادها الله له. وحين يتشرب الزائر هذه القيم من خلال ارتباطه بالإمام الحسين (عليه السلام)، فإنه يرتقي بقدر هذا التشرب في مدارج القرب، فتكون “الدرجة” تعبيرًا عن هذا الارتقاء، لا مجرد رقمٍ يُضاف إلى سجل.

ومن هنا، يتّضح أنّ الثواب الوارد في الروايات ليس منفصلًا عن شرطه، بل هو متولّد منه. ف«عارفًا بحقه» ليست قيدًا شكليًا، بل هي المفتاح الذي يحدّد طبيعة الأثر. فالمعرفة هنا ليست معلومةً ذهنية، بل حضورٌ واعٍ للمعنى في القلب والعقل معًا، حضورٌ يجعل الزيارة فعلًا تحويليًا، لا طقسًا متكرّرًا. وكلّما تعمّقت هذه المعرفة، اتّسع أثرها، وتضاعف ما يترتّب عليها من فيضٍ إلهي.

وفي ضوء ذلك، ينبغي الحذر من قراءة هذه الثوابات قراءةً تجزيئية، تُفصل فيها النتائج عن شروطها، فتحوّل إلى وعودٍ جاهزة تُنال بمجرد الأداء الظاهري. فهذه القراءة، وإن بدت محفّزة، إلّا أنّها تُفَرِّغ النص من عمقه التربوي، وتحوّل العلاقة مع الزيارة إلى علاقةٍ نفعية، لا علاقة بناءٍ وتزكية. بينما المقصود من الروايات في سياقها الكلي هو أن تدفع الإنسان إلى الارتقاء في وعيه، لا أن تُغنيه عن هذا الارتقاء.



كما أنّ من المهم إدراك أنّ الثواب الأخروي، في هذه النصوص، لا يُقدّم بوصفه غايةً منفصلة عن المسار، بل بوصفه امتداداً طبيعياً له. فالإنسان الذي يسير إلى الإمام الحسين (عليه السلام) بقلب صادق، وعقل واعٍ، وروح متعلّقة، إنّما يُنشئ في داخله حالةً من القرب، وهذه الحالة لا تنقطع بانتهاء الزيارة، بل تستمرّ، وتتجلّى في عالم الآخرة صوراً تتناسب مع حقيقتها. وهنا، يصبح الثواب تعبيراً عن “ما صار إليه الإنسان”، لا عن “ما فعله فقط”.

وفي بُعدٍ أعمق، يمكن القول إنّ هذه الروايات تريد أن تنقل الإنسان من حساب “الأجر” إلى أفق “العلاقة”. فليست القضية أن يحصل على أكبر قدرٍ من الثواب، بل أن يدخل في علاقةٍ خاصّة مع الله سبحانه وتعالى عبر أوليائه، علاقةٍ تقوم على المعرفة والمحبة والاتباع. وحين تتأسّس هذه العلاقة، فإنّ ما يُسمّى بالثواب يصبح نتيجةً حتمية، لا هدفاً مستقلاً.

وهكذا، فإنّ الثواب الأخروي في زيارة الإمام الحسين (عليه السلام)، إذا فهم في ضوء شرط «عارفاً بحقه»، يتجاوز كونه وعداً مستقبلياً، ليصبح مؤشراً على تحوّل حاضره. إنّهُ لا يُختزل في أوصافٍ مجرّدة، بل يُقرأ بوصفه تعبيراً عن قربٍ خاص، يناله من استطاع أن يجعل من الزيارة لحظة صدقٍ حقيقي، يلتقي فيها الوعي بالنية، ويتحوّل فيها الحبّ إلى التزام، والموقف إلى طريق.

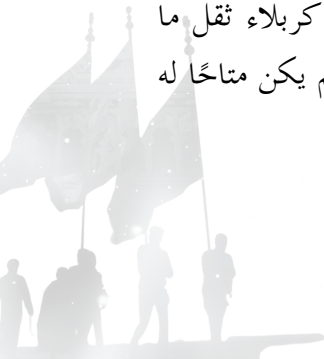




وفي نهاية هذا التأمل، يتبيّن أنّ أعظم ما في هذا الثواب، ليس كثرته، بل نوعيته؛ ليس أنّه كبيرٌ في الكمّ، بل أنّه عميقٌ في الأثر. لأنّه، في حقيقته، ليس شيئاً يُعطى من الخارج، بل حالةٌ يُدخل الله بها عبده في دائرة رحمته الخاصة، حين يراه قد أقبل عليه من باب الإمام الحسين (عليه السلام)، لا بجسده فقط، بل بقلبه وعقله وروحه.

ثانيًا: الأثر النفسي والروحي
يبدو أنّ الروايات التي تحدّثت عن الثواب الأخروي لزيارة الإمام الحسين (عليه السلام) تريد أن تنقلنا من مستوى “الترغيب العددي” إلى مستوى “الفهم الوجودي” لمعنى الثواب نفسه. فهي، وإن استخدمت لغة الوعد بالعطاء مغفرةً، ورفعاً، وأجرًا عظيمًا إلا أنّها في عمقها لا تُقدّم الثواب بوصفه مكافأةً منفصلة عن الفعل، بل بوصفه الامتداد الطبيعي لحقيقة ما جرى في داخل الزائر.

فحين يُقال إنّ الذنوب تُغفر، لا ينبغي أن يُفهم ذلك على أنّه إسقاطٌ خارجي لآثارٍ لم تتغيّر أسبابها، بل على أنّه نتيجة لتحوّل داخلي يجعل الإنسان أقرب إلى الطهارة، وأبعد عن مواطن الانحراف. المغفرة هنا ليست إجراءً حسابيًا، بل إعادة تهيئة للروح، كأنّها استعادة لنقطة الصفاء الأولى، بعد أن يُدرك الإنسان في ضوء تجربة كربلاء ثقل ما يحمله من تناقضات، فيقبل على الله بنوعٍ من الصدق لم يكن متاحًا له من قبل.





وكذلك رفعة الدرجات، فهي لا تُقرأ بوصفها تفضيلاً اعتبارياً، بل بوصفها تعبيراً عن علوِّ حقيقي في مقام القرب. فكلّما ازداد وعي الإنسان، واتّسعت رؤيته، وتعمّق التزامه بالقيم، ارتفع موقعه في سلم الكمال، لا لأنّه طمح إلى الدرجة، بل لأنّه أصبح أهلاً لها. ومن هنا، فإنّ “الدرجة” ليست شيئاً يُمنح من خارج، بل هي اسمٌ لحالةٍ بلغها الإنسان في مسيرته.

وهنا تتجلّى مركزية شرط «عارفاً بحقه». فهذا القيد هو الذي يحوّل الزيارة من حركةٍ جسديةٍ إلى تجربةٍ روحيةٍ ومعرفيةٍ متكاملة. فالمعرفة، كما تقدّم، ليست مجرد إدراكٍ ذهني، بل هي حضورٌ للمعنى في كيان الإنسان، بحيث يُعيد تشكيل نظرتّه، ويُصحّح مواقفه، ويُوقظ فيه حسَّ المسؤولية. وكلّما كانت هذه المعرفة أعمق، كان الأثر الناتج عنها أصدق، وكان ما يُعبّر عنه بالثواب أوسع وأبقى.

وفي هذا الإطار، يصبح من الخطأ أن نقرأ هذه الروايات قراءةً منفصلة عن شرطها، فنحوّلها إلى وعودٍ جاهزة، تُنال بمجرد القيام بالفعل في ظاهره. لأنّ مثل هذه القراءة تُفرّغ النصّ من بعده التربوي، وتُضعف أثره التحويلي، وتجعل العلاقة مع الزيارة علاقةً تحصيلٍ لا علاقةً تحوّل. بينما المقصود، في جوهر الخطاب، هو أن تُصبح الزيارة مدخلاً لإعادة بناء الإنسان، لا وسيلةً لتجاوز مسؤوليته.





كما أنّ الثواب الأخروي، في هذا السياق، لا يُفهم بوصفه مؤجلاً بالكامل إلى ما بعد الموت، بل له جذورٌ تمتدّ في الحاضر. فالقرب من الله الذي هو حقيقة الثواب يبدأ من هنا، من لحظة الصدق، ومن لحظة الانكسار، ومن لحظة الالتفات الحقيقي إلى المعنى. وما يُكشف في الآخرة، إنّما هو تجلٍ أكمل لما تأسّس في الدنيا.

ومن هنا، فإنّ زيارة الإمام الحسين (عليه السلام)، حين تُؤدّى بوعي “عارفاً بحقه”، لا تمنح الإنسان ثواباً فحسب، بل تُدخله في “مسارٍ من القرب”، يصبح فيه أكثر حساسيةً تجاه الحق، وأكثر نفوراً من الباطل، وأكثر استعداداً لأن يعيش وفق ما أدركه. وهذا المسار، بحدّ ذاته، هو أعظم ما يمكن أن يُمنح للإنسان، لأنّه لا يقتصر على لحظة، بل يمتدّ ليصوغ حياته.

وفي المحصّلة، فإنّ الثواب الذي تحدّثت عنه الروايات ليس شيئاً يُضاف إلى الإنسان من الخارج، بقدر ما هو انكشافٌ لما أصبح عليه من الداخل. إنّهُ ليس رقماً في سجلّ، بل حالةٌ في الروح، وليس وعداً منفصلاً عن الفعل، بل نتيجةٌ لصدق ذلك الفعل. ومن هنا، فإنّ أعظم ما يُرجى من هذه الزيارة، ليس كثرة الأجر فحسب، بل أن يبلغ الإنسان من الصدق في معرفته، ومن الإخلاص في قصده، ما يجعله أهلاً لذلك القرب الذي هو جوهر كلّ ثواب





ثالثًا: التحول السلوكي

التحوّل السلوكي ليس أثرًا عابرًا يمرّ على هامش التجربة الروحية، بل هو جوهرها الصامت، وامتحانها الحقيقي الذي يكشف صدقها من زيفها. فكم من دمعَةٍ انحدرت، وكم من قلبٍ اضطرب، ثم ما لبث أن عاد إلى سكونه القديم، كأنّ شيئًا لم يكن. وهنا يتبدّى الفارق الدقيق بين من “تأثّر” ومن “تغيّر”. التأثّر لحظة، أما التغيّر فمسار.

حين يقف الإنسان في حضرة الإمام الحسين (عليه السلام)، فهو لا يقف أمام حدثٍ تاريخيٍّ مجرد، بل أمام مرآةٍ كاشفة، تُسقط عنه أوهام التبرير، وتُرغمه على أن يرى نفسه كما هي، لا كما يحب أن يراها. هناك، في تلك اللحظة الوجدانية المتشعبة بالمعنى، تتفكّك كثير من الأقنعة التي اعتاد أن يرتديها: قناع التسويف، قناع التبرير، قناع “سأفعل لاحقًا”. ويشعر ولو للحظة صادقة أنّ المسافة بينه وبين ما ينبغي أن يكونه، ليست مسافة عادية، بل فجوة تحتاج إلى ردم.

لكنّ هذه المواجهة، على شدّتها، لا تثمر بذاتها إن لم تتحوّل إلى قرار. فالوجدان وحده لا يكفي، والعاطفة مهما بلغت لا تصنع تحوّلًا ما لم تُترجم إلى إرادة. وهنا تبدأ اللحظة الدقيقة: لحظة أن يخرج الإنسان من فضاء الشعور إلى فضاء الفعل. قد تكون البداية متواضعة، بل صغيرة جدًّا في ظاهرها؛ كأن يعاهد نفسه على صلاةٍ في وقتها، أو يضع حدًّا لعادةٍ استهان بها طويلاً، أو يضبط لسانه في موقفٍ كان يبرّر فيه انفعاله. غير أنّ سرّ هذه الخطوات لا يكمن في حجمها، بل في دلالتها: إنّها إعلان داخلي بأنّ هذه الزيارة لم تكن مجرد عبور، بل بداية انعطاف.



والتحوّل بطبيعته لا يسير في خطٍ مستقيم. إنّهُ أشبه بمسارٍ تتجاذبه لحظات صعود وهبوط، شدّ وجذب، حضور وغفلة. فقد يعود الإنسان إلى بعض ما كان عليه، وقد يضعف، وقد يتعثر. غير أنّ الفارق الجوهرى أنّه لم يعد يرى ضعفه كما كان يراه سابقاً؛ لم يعد يتقبّله بالرضا ذاته، ولا يبرّره بالسهولة نفسها. لقد تغيّر ميزانه الداخلى، وصار هناك صوتٌ خافت - لكنه عنيد - يذكرّه بما رآه، وبما عاهد عليه نفسه. وهذا الصوت هو بداية القطة.

إنّ من زار الإمام الحسين (عليه السلام) بوعي، قد لمس في تلك الزيارة نموذجاً إنسانياً متكاملًا، لا في جانبٍ دون آخر، بل في توازنٍ فريد بين العبادة والموقف، بين الرحمة والصلابة، بين الخضوع لله ورفض الظلم. وحين يقيس الإنسان نفسه على هذا النموذج، لا بدّ أن يشعر بالفارق، لا بوصفه إحباطًا، بل بوصفه بوصلة. إنّهُ يدرك أنّه لم يُخلق ليبقى في مستوى التردّد والتنازل، وأنّ في داخله قابلية لأن يكون أفضل مما هو عليه.

ومن هنا، يتحوّل الشعور إلى دافع، والدافع إلى التزام، والالتزام إلى عادة، ثم إلى طبع راسخ. وهذا هو المسار الحقيقى للتحوّل: أن تنتقل القيم من كونها أفكارًا مُعجبة إلى سلوكٍ يوميٍّ مُلزم. فليس المقصود أن يخرج الزائر وهو يحمل ذكرى جميلة، بل أن يخرج وهو يحمل مشروعًا ولو في حدّه الأدنى لإعادة تشكيل نفسه.



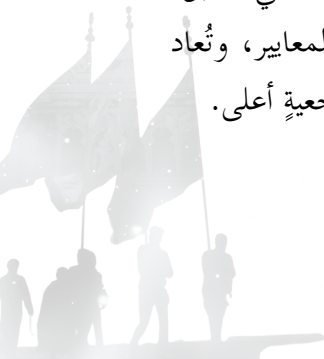
ولعلّ أخطر ما يهدّد هذا التحوّل هو أن يُختزل في لحظة الزيارة نفسها، فيُحبَس في إطارها الزماني، ويُفصل عن امتداده في الحياة اليومية. فالتجربة الروحية التي لا تجد طريقها إلى السلوك، تبقى ناقصة، كأنّها رسالة لم تُقرأ كاملاً.

أمّا حين تتسرّب إلى التفاصيل الصغيرة في التعامل، في الكلمة، في القرار فإنّها تبدأ في إعادة بناء الإنسان من الداخل، بهدوء لا يُلفت النظر، لكن بعمق يغيّر المسار.

وهكذا، لا يكون التحوّل السلوكي ضربةً مفاجئة تغيّر كل شيء دفعةً واحدة، بل نفساً طويلاً من الإصلاح، يبدأ من لحظة صدق، ويتغلّدى على تذكّر، ويثبت بالمجاهدة، حتى يصبح الإنسان دون أن يشعر أقرب إلى ذلك النور الذي وقف يوماً بين يديه.

رابعاً: بناء الهوية الإيمانية

بناء الهوية الإيمانية ليس عمليةً سريعةً تُنجز في لحظة اندفاع، ولا هو انطباعٌ وجدانيٌّ عابر يزول بزوال ظرفه، بل هو تشكّلٌ داخليٌّ عميق، أشبه بإعادة ترتيب البنية الباطنية للإنسان؛ حيث تتبدّل المعايير، وتُعاد صياغة الأولويات، ويُعاد تعريف “الذات” على ضوء مرجعيةٍ أعلى.





فحين يشارك الإنسان في زيارة الأربعين، لا يكون في الحقيقة مجرد حاضِرٍ في حدثٍ شعائري، بل يكون منخرطاً شعورياً ولا شعورياً في عملية إعادة تعريف لنفسه: من أنا؟ ولأيّ خطٍ أنتمي؟ وما الذي ينبغي أن أكون عليه؟ هذه الأسئلة قد لا تُطرح دائماً بصيغةٍ لفظية، لكنها تنبض في عمق التجربة، وتعمل بصمتٍ على إعادة تشكيل الوعي.

إنّ الهوية الإيمانية، في هذا السياق، لا تعني مجرد الانتماء الاسمي أو الشعور العاطفي، بل تعني أن يصبح للإمام الحسين (عليه السلام) موقعٌ مرجعيٌّ في داخل الإنسان؛ موقعٌ يُحتكم إليه عند التردد، ويُستحضر عند القرار، ويُستأنس به عند مواجهة التعقيد. فبدل أن يكون الإمام الحسين صلوات الله عليه ذكرى تُزار، يصبح ميزاناً يُقاس عليه: هل هذا الموقف ينسجم مع خطِّ الإمام الحسين عليه السلام؟ هل هذه الكلمة تُشبهه؟ هل هذا التنازل يليق بمن أعلن يوماً ولاءه له؟

وهنا تتحوّل العلاقة من “ارتباط” إلى “انتماء”، ومن “محبة” إلى “هوية”. فالمحبّ قد يتأثر، لكن صاحب الهوية يتشكّل. والفرق بينهما أنّ الأول يعيش مع الإمام الحسين عليه السلام في لحظات، أمّا الثاني فيحمله في قراراته اليومية، في سلوكه، في نظرتة إلى الحق والباطل، في تعريفه للنجاح والخسارة.





غير أنّ هذه الهوية لا تولد دفعةً واحدة، ولا تتكامل من زيارةٍ واحدة، مهما بلغت شدّتها. إنّها تُبنى عبر التراكم، عبر التكرار الذي لا يكون آلياً، بل واعياً. فكلّ زيارةٍ تُضيف طبقة، وكلّ تأمّلٍ يُعمّق معنى، وكلّ موقفٍ يُتخذ على ضوء تلك القيم يُثبّت جزءاً من هذا البناء. ومع مرور الزمن، تتحوّل هذه الطبقات إلى بنيةٍ راسخة، لا تتزعزع بسهولة؛ لأنّها لم تُبنَ على انفعال، بل على وعيٍ متدرّج.

وفي هذا المسار، يحدث أمرٌ بالغ الأهمية: أنّ القيم التي كانت تُدرك بوصفها “مثالية” أو “مرغوبة” تتحوّل إلى “ضرورية”. لم يعد الإنسان يرى الصدق خياراً حسناً فحسب، بل ضرورة لا يمكن التخلّي عنها؛ ولم يعد يرى الوقوف مع الحق موقفاً بطولياً استثنائياً، بل واجباً طبيعياً لا يحتمل التردد. وهذا التحوّل من الإعجاب بالقيم إلى الالتزام بها هو لبّ الهوية الإيمانية.

ومن ثمّ، تتجلّى آثار هذه الهوية في تفاصيل الحياة اليومية، لا في الشعارات الكبرى فقط. في طريقة الحديث، في أسلوب التعامل، في حدود القبول والرفض، في الصبر عند الابتلاء، وفي الجرأة عند الموقف. يصبح الإنسان أكثر اتساقاً مع ذاته، لأنّ مرجعيته الداخلية أصبحت واضحة، لا متذبذبة، ولأنّ بوصلته لم تعد خاضعة لكلّ مؤثّر خارجي، بل مرتبطة بخطّ اختاره عن وعي.





وعلى هذا الأساس، يتبين أنّ زيارة الأربعين لا تنتهي عند لحظة الوداع، بل تبدأ حقيقتها بعد ذلك. فهي لا تُراد لذاتها فقط، بل لما تزرعه في ما بعدها. إنّها لحظة تأسيس، لا لحظة ختام؛ لحظة زرع في عمق النفس، يحتاج إلى سقي مستمر بالتذكّر، والمراجعة، والمجاهدة.

فمن أحسن الزيارة، لم يعد كما ذهب، لأنّه لم يعد يحمل الذكرى وحدها، بل يحمل معياراً جديداً للحياة. عاد وهو يرى نفسه بعينٍ مختلفة، وقيس خطواته بمقياسٍ آخر، ويشعر أنّه مسؤولٌ عن هذا النور الذي لامس قلبه: أن لا يطفئه، وأن لا يخونه.

وعندها فقط، لا يكون قد عاد إلى حياته كما كانت، بل يكون قد عاد... ليبدأ حياةً أخرى، أعمق وعياً، وأصدق انتماءً، وأشدّ اتصالاً بذلك الخطّ الذي اختاره، لا قولاً فحسب، بل وجوداً ومساراً.



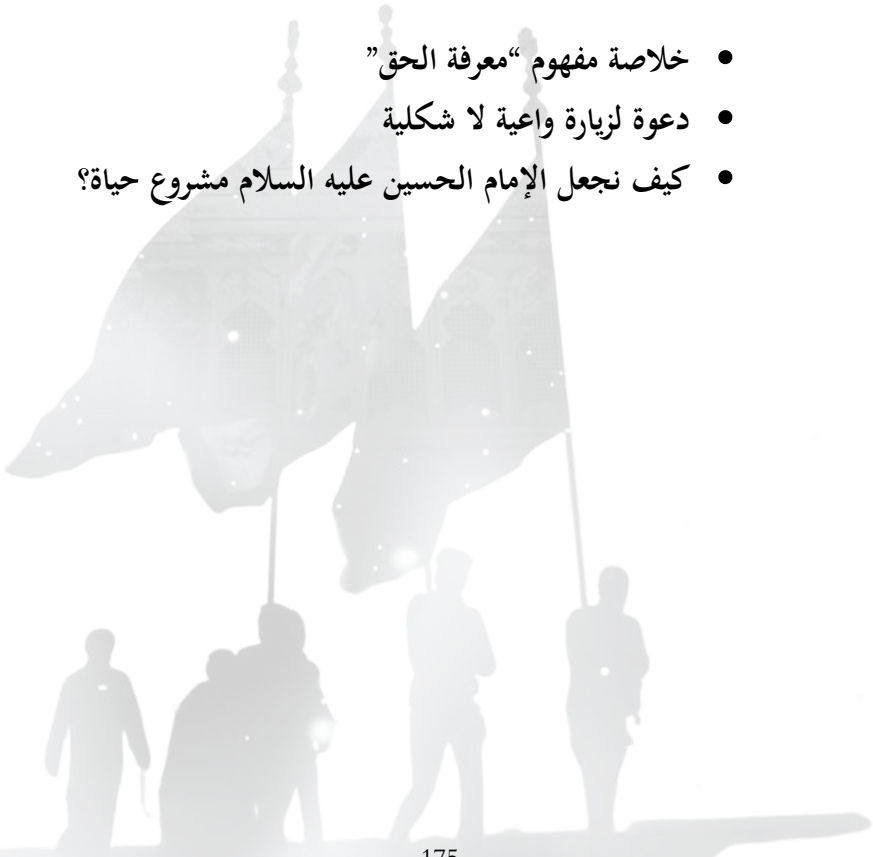


المحور العاشر



المحور العاشر: خاتمة تأملية

- خلاصة مفهوم “معرفة الحق”
- دعوة لزيارة واعية لا شكلية
- كيف نجعل الإمام الحسين عليه السلام مشروع حياة؟





المحور العاشر: خاتمة تأملية

ليست هذه الخاتمة محطة وصول يُطوى عندها الكلام، بل هي عتبة عبورٍ إلى ما هو أعمق من النص، وأشدّ التصاقًا بالواقع.

فما طُرح من حديثٍ عن “معرفة الحق” وارتباطه بالإمام الحسين (عليه السلام) لا يكتمل إذا بقي في دائرة الفهم الذهني، أو انحصر في لحظة التأثر الوجداني، بل إنّ تمامه الحقيقي يبدأ حين يتسرّب إلى طبقات النفس، ويتحوّل من فكرة تُدرّك إلى معيارٍ يُحتكم إليه، ومن معنىٍ يُعجب إلى التزامٍ يُلزم.

إنّ أخطر ما يمكن أن يصيب هذه المعاني هو أن تُختزل في الإعجاب بها، دون أن تُزعزع شيئًا من سكوننا الداخلي، أو تدفعنا إلى إعادة النظر في مساراتنا. فالمعرفة التي لا تُقلق، لا تُغيّر، والمعنى الذي لا يُحرّك الإرادة، يبقى ناقصًا مهما بدا بليغًا.

ومن هنا، فإنّ هذه ليست دعوةً للتذكّر فحسب، بل دعوةٌ للمساءلة: ماذا فعلت هذه المعاني فينا؟ ماذا غيّرت في نظرتنا لأنفسنا؟ وإلى أيّ حدٍّ أصبحت حاضرةً في قراراتنا اليومية؟





لقد تبين أنّ معرفة الحق، حين ترتبط بالإمام الحسين (عليه السلام)، لا تبقى مجرد إدراكٍ نظريٍّ للتمييز بين الصواب والخطأ، بل تتحوّل إلى وعيٍ حيٍّ يُعيد تشكيل علاقة الإنسان بكلّ ما حوله: بنفسه، وبالناس، وبالظروف. إنّها معرفةٌ تُحمّل صاحبها مسؤولية، لأنّها تكشف له الطريق، فلا يعود معذورًا في التردّد، ولا مبرّرًا في التنازل. ومن هنا، تتلاقى المعرفة مع التكليف، ويتحوّل الإدراك إلى التزام.

وفي هذا الأفق، لا تعود العاطفة منفصلةً عن البصيرة، ولا البصيرة جافةً بلا روح، بل يلتقيان في صيغةٍ متوازنة: عاطفةٌ تلهب الدافع، وبصيرةٌ تُحدّد الاتجاه. فكم من عاطفةٍ صادقةٍ ضلّت طريقها لغياب الوعي، وكم من وعيٍ صحيحٍ بقي معطّلًا لغياب الشعور. أمّا حين يجتمعان، فإنّهما يُنتجان إنسانًا قادرًا على أن يشعر بالحق، وأن يسير إليه في آنٍ واحد.

ومن جهةٍ أخرى، تتجلّى حقيقة الزيارة في ضوء ما تقدّم لا بوصفها فعلاً زمنيًا محدودًا، بل بوصفها تجربةً ممتدّة، يُفترض أن تُعيد تشكيل الحياة بعدها. فالزيارة التي تنتهي بانتهائها، لم تبلغ غايتها بعد؛ أمّا التي تستمرّ في الوعي، وتظهر آثارها في السلوك، فهي التي أدّت دورها الحقيقي. وهنا، يتحوّل السؤال من: “كيف زرنا؟” إلى: “كيف نعيش بعد أن زرنا؟”.





إنّ هذه النظرة، إذ تفتح المعنى على أفقٍ أوسع، إنّما تُذكّر بأنّ الطريق لم يُختتم، بل بدأ للتوّ. وأنّ كلّ ما كُتب وُقرئ، إن لم يتحوّل إلى مشروعٍ عمليٍّ ولو في حدوده الدنيا فإنّه يبقى في دائرة الإمكان، لا في حيز التحقّق. فالمطلوب ليس أن نحمل هذه المعاني في الذاكرة، بل أن نحملها في الموقف، في الاختيار، في الكلمة التي نقولها أو نصمت عنها، في الخطوة التي نُقدم عليها أو نتراجع عنها.

وعند هذا الحدّ، يتّضح أنّ “معرفة الحق” ليست معرفةً تُضاف إلى رصيد الإنسان، بل هي تحوّل في كيانه، إن صدق فيها. هي انتقالٌ من حالة المتفرّج إلى حالة المسؤول، ومن موقع التأمل إلى موقع الالتزام. ومن هنا، فإنّ القيمة الحقيقية لهذه الرحلة كلّها، ليست فيما فهمناه فحسب، بل فيما سنكونه بعد هذا الفهم.

فإن بقي كلّ شيء كما هو،
فلم نبلغ من المعنى إلّا ظاهره،
وإن تغيّر فينا شيء ولو يسير

فذلك هو الأثر الذي يُبقي للمعرفة روحها،
ويجعل للنصّ امتداده... في الحياة





أولاً: خلاصة مفهوم “معرفة الحق”
خلاصة مفهوم “معرفة الحق” لا تُختزل في تعريف موجز، ولا تُستوفى بعبارة جامعة، لأنها في عمقها ليست معلومة تُدرك، بل تحوُّلاً يُعاش. إنها انتقالٌ من مستوى النظر إلى مستوى الموقف، ومن حيِّز التصديق النظري إلى ساحة الاختبار العملي. فالحق، كما يتجلَّى في الرؤية القرآنية والولائية، لا يُعرف ليُخزَّن في الذاكرة، بل ليُحمل في المسير، ويترجم في القرار، ويدافع عنه حين يكون الثمن مكلفاً.

ومن هنا، لا يكون الحق منفصلاً عن الامتحان، بل هو ذاته مادّة الامتحان. فكلّ لحظة يمرُّ بها الإنسان، وكلّ خيار يقف أمامه، إنّما هو موضع اختبار لهذه المعرفة: هل سيبقى الحق فكرةً جميلة يؤمن بها، أم سيتحوّل إلى موقف قد يكلفه راحته، أو مصلحته، أو حتى صورته أمام الآخرين؟ وهنا يتمايز الناس، لا بما يعرفون، بل بما يلتزمون.

وفي هذا السياق، تتكشف دوائر المعرفة الثلاث، لا بوصفها مراحل منفصلة، بل بوصفها مستويات متداخلة تُكمل بعضها بعضاً:

فأما دائرة الإدراك، فهي البداية التي لا غنى عنها، إذ لا يمكن للإنسان أن ينحاز إلى ما لا يراه، ولا أن يدافع عمّا لم يتبين له. غير أنّ هذه الدائرة، على أهميتها، تبقى ناقصة إن توقّف الإنسان عندها؛ لأنّ إدراك الحق لا يساوي تلقائياً الالتزام به. كم من إنسان رأى الحق واضحاً، لكنّه آثر السلامة، أو انساق مع التيار، أو خضع لضغط الواقع.



ومن هنا تنبثق دائرة الانحياز، وهي اللحظة التي ينتقل فيها الإنسان من موقع المتفرّج إلى موقع المشارك. إنّها لحظة الاختيار الصريح: أن تكون مع الحق، لا أن تكفي بالإقرار به. فالحياد في مواضع الصراع بين الحق والباطل ليس موقفًا بريئًا، بل هو في كثير من الأحيان تخلّ مستتر عن المسؤولية. والانحياز هنا لا يعني مجرد إعلان لفظي، بل يعني أن تُعيد ترتيب مواقفك وعلاقاتك وقراراتك على ضوء هذا الاختيار.

غير أنّ الانحياز، بدوره، لا يكتمل إلا بدائرةٍ ثالثة، هي دائرة التضحية. فكلّ انحيازٍ صادق للحقّ يترتب عليه ثمن، قلّ أو كثر. وقد يكون هذا الثمن داخليًا، في مجاهدة النفس، أو خارجيًا، في مواجهة الضغوط والاعتراضات. وهنا تتجلّى الحقيقة بأوضح صورها: أنّ من أراد أن يكون مع الحق، فلا بدّ أن يكون مستعدًا لأن يدفع كلفة هذا الموقف. وهذا هو الامتداد الحقيقي لمدرسة الإمام الحسين (عليه السلام)، حيث لم يكن الحقّ شعارًا يُرفع، بل مسارًا يُعاش، مهما بلغ الثمن.

وهنا تكمن خطورة الاكتفاء بالمعرفة السطحية؛ إذ قد يجتمع في الإنسان إدراكٌ واضح للحق، مع عجزٍ أو تردّدٍ في الالتزام به. قد تدمع عينه حزناً، لكن لا تتحرّك إرادته فعلاً. قد يشهد بلسانه، لكن لا ينصر بعمله. فيكون - من حيث لا يشعر - ممّن عرفوا ولم يعملوا، وأقروا ولم يلتزموا، وشهدوا ولم ينصروا.





ومن ثمّ، فإنّ “معرفة الحق” في حقيقتها ليست حالةً ساكنة، بل حركةً دائمة من الوعي إلى الاختيار، ومن الاختيار إلى الثبات، ومن الثبات إلى الاستعداد للتضحية. وهي بهذا المعنى ليست اختباراً يُنجز مرّةً واحدة، بل مسارٌ يتجدّد مع كلّ موقف، ومع كلّ مفترق طريق.

فإن استقرّ الحقّ في الوعي ولم ينزل إلى السلوك، ظلّ معرفةً ناقصة، وإن نزل إلى السلوك ولو في حدوده الأولى، بدأ يتحوّل... إلى حياة.

ثانياً: دعوة لزيارة واعية لا شكلية

الدعوة إلى زيارة واعية لا شكلية ليست مجرد تنبيه أخلاقي، بل هي إعادة تعريف لطبيعة العلاقة مع الإمام الحسين (عليه السلام): هل هي علاقة حضورٍ جسديٍّ عابر، أم علاقة انخراطٍ وجوديٍّ يطال أعماق الإنسان؟ فبين هذين المستويين مسافةٌ شاسعة؛ لأنّ الشكل يمكن أن يتحقّق بأقلّ قدرٍ من الجهد، أمّا الوعي فيتطلّب يقظةً داخلية، واستعداداً لأن يُمسّ الإنسان في منطقه وسلوكه، لا في مشاعره فحسب.

إنّ أخطر ما يهدّد الزيارة هو أن تتحوّل إلى طقسٍ مكتمل الأركان من الخارج، فارغٍ من الداخل؛ حيث تتحرّك الأقدام نحو كربلاء، بينما تبقى القلوب أسيرة اعتيادها، لا تُراجع، ولا تُسائل، ولا تُعيد النظر. وحينئذٍ، يفقد الفعل روحه، وتبقى صورته. وهذا النمط من الزيارة على ما فيه من قيمة شعائرية لا يبلغ الغاية التي أرادها الإمام الحسين (عليه السلام) من استحضار قضيته في وجدان الأمة.



فالزائر الحقيقي، في هذا المنظور، ليس من يقطع المسافة إلى الضريح الشريف، بل من يقطع المسافة إلى المعنى؛ من ينتقل من ظاهر الحركة إلى باطن الرسالة، ومن الانفعال المؤقت إلى التحوّل المستمر. إنّ ذلك الذي لا يكتفي بأن "يكون هناك"، بل يسعى لأن "يكون مختلفاً" بعد أن يكون هناك.

ومن هنا، تتأسّس الزيارة الواعية على أركانٍ لا تقوم بدونها:

أولها: حضور القلب، وهو شرطٌ سابق على كلّ أثر. فليس المطلوب أن يُحضر الإنسان جسده فقط، بل أن يُحضر وعيه، أن يكون منتبهاً لما يعيش، لا غارقاً في التشتّت. حضور القلب يعني أن يشعر أنّه في موقفٍ استثنائي، لا يُشبهه سائر اللحظات، وأنّ ما يسمعه ويقول ويراه، ينبغي أن يترك أثراً يتجاوز تلك الساعة.

وثانيها: استحضار الرسالة، وهو ما ينقل الزيارة من إطار العاطفة إلى أفق الفهم. فالإمام الحسين (عليه السلام) لم يخرج لحدثٍ عابر، بل لمشروعٍ تغييريّ عميق، يتعلّق بإحياء الدين، وإقامة العدل، ومواجهة الانحراف. وإذا لم يستحضر الزائر هذا البعد، فإنّه يبقى متفاعلاً مع الألم، دون أن يتفاعل مع الغاية. أمّا حين يفهم "لماذا خرج الإمام الحسين عليه السلام"، فإنّه يبدأ تلقائياً في إسقاط هذا الفهم على واقعه: أين يقف هو من تلك الغاية؟ وما الذي ينبغي أن يتغيّر في حياته ليكون أقرب إليها؟.



وثالثها: المحاسبة الذاتية، وهي الركن الذي تتحوّل فيه الزيارة من حدثٍ خارجي إلى فعلٍ داخلي. ففي لحظة الوقوف أمام الإمام الحسين (عليه السلام)، لا يكون الإنسان مجرد زائرٍ يحيي، بل شاهدٌ على نفسه. يسأل، لا ليُجيب سريعاً، بل ليهتّز من الداخل: ماذا تغيّر فيّ منذ آخر زيارة؟ هل تقدّمت خطوةً نحو ما يمثّله الإمام الحسين عليه السلام، أم ما زلت أدور في الدائرة نفسها؟ هذه الأسئلة إن صدرت بصدق لا تترك الإنسان كما هو، بل تفتح فيه باباً للمراجعة، وربما للمواجهة مع ذاته.

وهنا تكتسب كلمات الزيارة معناها العميق؛ فهي ليست ألفاظاً تقال، بل مواقف تُستحضر. حين يقول الزائر: “أشهد أنك قد أقمت الصلاة...”، فإنّه لا يكتفي بوصف الإمام صلوات الله عليه، بل يُستدعى ضمناً ليقس نفسه على هذا الشاهد. فالشهادة هنا ليست تقريراً، بل امتحاناً: هل أصبحت الصلاة في حياتي كما كانت في حياة الإمام الحسين عليه السلام؟ هل تحتلّ الموقع ذاته من الأهمية والالتزام؟ أم أنّها ما زالت في هامش الاهتمام، تؤدّي حين يتيسّر، وتُؤجّل حين يشتدّ الانشغال؟

بهذا المعنى، تتحوّل الزيارة الواعية إلى مرآةٍ لا تُجمل، بل تكشف؛ لا تمنح راحةً مؤقتة، بل تزرع قلقاً بناءً يدفع إلى الإصلاح. وهي في حقيقتها ليست نهاية فعل، بل بداية مسار. فمن خرج منها كما دخل، فقد أدّى الشكل، لكنّه لم يلامس الجوهر. أمّا من خرج منها وهو يحمل سؤالاً جديداً، وقراراً ولو صغيراً بالتغيير، فقد بدأ يقترب من روحها.



وعليه، فإنّ الزيارة الواعية ليست تلك التي تُضاف إلى رصيد الإنسان من الذكريات، بل التي تُعيد تشكيله من الداخل، فتغيّر ميزانه، وتصحّح وجهته، وتجعله ولو بدرجةٍ يسيرة أقرب إلى ذلك الخطّ الذي وقف بين يديه.

ثالثاً: كيف نجعل الإمام الحسين عليه السلام مشروع حياة؟ تحويل الإمام الحسين (عليه السلام) إلى “مشروع حياة” ليس شعاراً يُرْفَع، بل بنيةٌ تُبنى، ومساوٍ يُعاش على امتداد العمر. إنّهُ انتقالٌ من التفاعل مع الإمام الحسين صلوات الله عليه بوصفه حالةً وجدانية موسمية، إلى التشكّل به بوصفه مرجعيةً دائمة تُعيد صياغة الوعي والسلوك والقرار. وهنا يتجلّى الفارق الحاسم بين تدينٍ يتغذى على اللحظة، وتدينٍ يتأسّس على الرسالة.

فالإمام الحسين عليه السلام، في هذا الأفق، ليس حدثاً يُستعاد، بل معياراً يُحتكم إليه؛ ليس ذكرى تُستحضر للبكاء فحسب، بل منهجاً يُستدعى للبناء. إنّهُ حضورٌ يتجاوز الزمان، لأنّ القيم التي قام لأجلها من إصلاح، وعدل، وكرامة ليست مؤقتة، بل ممتدّة بامتداد حاجة الإنسان إليها.

ومن هنا، لا يتحقّق هذا التحوّل إلا عبر انتقالاتٍ متدرّجة، تتكامل فيما بينها:

أولها: الانتقال من العاطفة إلى الوعي.





فالعاطفة بما تحمله من حرارة الصدق تمثل باب الدخول، لكنها لا تكفي لبناء مشروع. إنّ البكاء على الإمام الحسين (عليه السلام) قيمة عالية، لأنّه يعبر عن ارتباط وجداني حيّ، غير أنّ هذه العاطفة، إن لم تُرَفَّد بالفهم، قد تبقى محدودة الأثر، سريعة الانطفاء. أمّا حين تُصاحِبها بصيرة، فإنّها تتحوّل إلى طاقةٍ دافعة، تُحرّك الإنسان نحو التساؤل: لماذا خرج الإمام الحسين عليه السلام؟ ما طبيعة الانحراف الذي واجهه؟ وكيف تتجلّى صورته اليوم؟ بهذا يتحوّل الشعور إلى وعي، والوعي إلى بداية تشكّل.

ثمّ يأتي الانتقال الثاني: من الوعي إلى الالتزام.

فالفهم، مهما بلغ عمقه، يبقى ناقصاً إن لم يُترجم إلى سلوك. إنّ مبادئ الإمام الحسين (عليه السلام) كالإصلاح، ومقاومة الظلم، وإحياء القيم لا تُراد لثدرك فقط، بل لتعاش. وهنا يبدأ الامتحان الحقيقي: أن يظهر هذا الوعي في تفاصيل الحياة اليومية، في الصدق حين يكون الكذب أسهل، في العدالة حين تميل المصلحة، في رفض الانحراف حين يُزَيّن، وفي نصرة المظلوم ولو بكلمة صادقة. هذه التفاصيل الصغيرة هي التي تُحوّل الفكرة إلى واقع، وتثبت أنّ الإمام الحسين عليه السلام لم يعد فكرةً مُعجبة، بل أصبح معياراً مُلزماً.

غير أنّ الالتزام الفردي، على أهميته، لا يكتمل دون انتقالٍ ثالث: من الذات إلى المجتمع.



فالإمام الحسين (عليه السلام) لم يكن مشروعه إصلاحًا فرديًا منعزلًا، بل نهضةً تستهدف بنية الأمة. ومن هنا، فإنّ من يحمله مشروعًا لا يكتفي بإصلاح نفسه، بل يشعر بمسؤولية تجاه محيطه. لا بالاندفاع غير المحسوب، بل بالكلمة الواعية التي تُنير، بالموقف الشجاع الذي يُثبت، وبالعَمَل الهادئ الذي يبنى. إنّه يسهم حيثما كان في رفع مستوى الوعي، وفي مقاومة أنماط الظلم والانحراف، وفق قدرته ومجاله.

وبهذا، يتحوّل الانتماء إلى الإمام الحسين عليه السلام من حالة شخصية إلى طاقةٍ إصلاحيةٍ ممتدة.

ثمّ يبقى الانتقال الأعَمَق: من اللحظة إلى الاستمرارية.

فأخطر ما يواجه هذا المشروع أن يُختزل في مواسم محدّدة، فيكون الإمام الحسين عليه السلام حاضراً في زمنٍ، وغائباً في سائر الأزمنة. أمّا المشروع الحقيقي، فيقتضي أن يصبح حضوره ممتداً في كلّ يوم: في القرارات التي تُتخذ، في المواقف التي تُحسم، في الأولويات التي تُرتّب. أن يُستحضر حين يتعارض الحق مع المصلحة، وحين يلوح التنازل مريحاً، وحين يحتاج الإنسان إلى معيارٍ يخرجّه من حيرته. عندها فقط، يصبح الإمام الحسين (عليه السلام) جزءاً من البنية الداخلية للإنسان، لا طيفاً يزوره في أوقاتٍ محدّدة.





وفي ضوء ذلك كله، يتبين أنّ جعل الإمام الحسين عليه السلام مشروع حياة ليس قفزةً مفاجئة، بل بناءً تراكميٍّ يبدأ من لحظة صدق، ويتغذى على وعي، ويطرسّخ بالالتزام، ويتسع إلى المجتمع، ويثبت بالاستمرارية. هو مسارٌّ طويل، لكنّ كلّ خطوةٍ فيه مهما بدت صغيرة تُقَرِّب الإنسان من أن يكون أقرب إلى ذلك الخطّ الذي أعلن الانتماء إليه.

فليس المطلوب أن تُكثر الحديث عن الإمام الحسين عليه السلام، بل أن نقلّل المسافة. بيننا وبين مبادئه، حتى يصبح السؤال اليومي: لا ماذا نقول عنه... بل كيف نكون معه.





الخانمہ





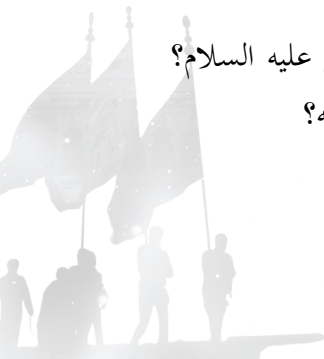
الخاتمة

في ختام هذا المسار التأملي، لا تنتهي الفكرة كما تنتهي الفصول، ولا يُطوى المعنى كما تُطوى الصفحات، بل يبقى مفتوحًا على أفقٍ أبعد من الحروف، ممتدًا في داخل الإنسان حيث تتشكل مواقفه وتُصاغ اختياراته. هنا، السؤال يتحول إلى امتحان وجودي يتردد صده في عمق الضمير:

هل الإمام الحسين عليه السلام في وعينا مجرد عنوانٍ للحزن، أم أنه مشروع نهضة يُراد له أن يُبعث فينا من جديد؟.

إن تحويل الإمام الحسين عليه السلام إلى حالة وجدانية صرفة، محصورة في الدموع والمواساة، مع ما للدمعة من قدسية وصدق، قد يختزل الرسالة في بعدها العاطفي، ويُقيها أسيرة اللحظة، بينما الإمام الحسين صلوات الله عليه في حقيقته التاريخية والرسالية لم يكن لحظة عابرة، بل كان تحوُّلاً نوعيًا في مسار الوعي الإنساني؛ كان صرخةً في وجه الانحراف، وإعادة تعريف لمعنى الوقوف مع الحق حين تتكالب عليه قوى التزييف والطغيان.

ومن هنا، فإن السؤال لا يعود: هل نبكي الإمام الحسين عليه السلام؟ بل: ماذا يصنع الإمام الحسين عليه السلام بنا بعد أن نبكيه؟





الإمام الحسين عليه السلام لا ينتظر منا أن نُكثر من الحضور في المجالس بقدر ما ينتظر أن نحضر نحن في ميادين القرار، في لحظات الاختبار التي يُقاس فيها صدق الانتماء. فكم من موقفٍ يوميٍّ صغير، قد يبدو عابراً، هو في حقيقته امتدادٌ لكربلاء بصيغتها المعاصرة: حين تختار الصدق في بيئةٍ يُكافأ فيها الكذب، حين تنحاز إلى العدل في ظرفٍ تُزَيَّن فيه المصالح، حين تقف مع المظلوم ولو خذله القريب قبل البعيد... هناك، في تلك التفاصيل التي لا يراها الناس كبيرة، يُعاد إحياء الإمام الحسين عليه السلام فيك، لا كشعار، بل كحضورٍ فعليٍّ يُترجم في السلوك.

إن الانتقال من دائرة الإعجاب إلى دائرة الاتباع ليس انتقالاً لغويّاً، بل هو تحوّل في البنية الداخلية للإنسان؛ أن تتجاوز مرحلة الانبهار بالقيمة إلى مرحلة الالتزام بها، وأن تغادر مساحة التقديس المجرد إلى ميدان الاقتداء العملي. فالتقديس، إن لم يُفضِ إلى اقتداء، قد يتحول إلى حجابٍ ناعم يُخدّر الضمير، بينما الاقتداء يقتضي كلفة، ويتطلب شجاعة في مواجهة الذات قبل مواجهة الآخرين.

وعند هذه النقطة تحديداً، يبدأ المعنى الحقيقي لعاشوراء في التشكّل؛ إذ لا تعود ذكرى تُستحضر في يومٍ محدد، ولا طقساً يُمارس في موسمٍ معلوم، بل تتحول إلى روحٍ سارية في نسيج الحياة، إلى معيارٍ داخلي يُقاس به كل موقف: هل هو أقرب إلى خط الإمام الحسين عليه السلام أم أبعد؟ هل يُعبّر عن وعيٍ حسينيٍّ أم عن انحرافٍ مبرّر بثقافة الواقع؟.



حينها فقط، تبدّل علاقتنا بالزمن؛ فلا ننتظر عاشوراء لنستحضر الإمام الحسين عليه السلام، بل نصير نحن الامتداد الزمني لعاشوراء، نحمل معنا معناها في كل يوم، ونُعيد إنتاج رسالتها في كل ظرف. يصبح الإمام صلوات الله عليه عندئذٍ ليس حدثًا في التاريخ، بل قوةً حيّة في الحاضر، تُعيد تشكيل الوعي، وتدفع الإنسان إلى أن يكون شاهدًا على الحق، لا مجرد متفرّج عليه.

وهنا، لا تُغلق الخاتمة، لأنها في حقيقتها بداية؛ بداية رحلةٍ مع الذات، يُسائل فيها الإنسان مواقفه، ويُعيد ترتيب أولوياته على ضوء ذلك النداء الحسيني الذي لم يخفت: أن لا يرى الظلم فيسكت، ولا يرى الحق فيتردد، ولا يرى نفسه خارج معادلة المسؤولية.

فإذا بلغنا هذا المستوى من الوعي، لم تعد عاشوراء يومًا في السنة، بل صارت زمنًا داخليًا دائمًا، يسكننا بقدر ما نسكنه... ويقودنا، إن صدقنا، إلى أن نكون ولو بقدر من الذين لم يكتفوا بحب الإمام الحسين عليه السلام، بل ساروا في الطريق الذي رسمه بدمه





زبارة الإمام الحسين عليه السلام في الروايات: قراءة
منجبة بين النصر والذلالة





مقدمة

إنّ الروائية الواردة في زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) لا يمكن التعامل معها بوصفها نصوصاً متفرقة تُقرأ على نحو تجزيئي، بل هي بنية معرفية متكاملة تتقاطع فيها مستويات متعدّدة: مستوى الاعتقاد الذي يؤسّس لمعنى الإمامة والولاية، ومستوى الوجدان الذي يحرك الانتماء ويغذي العاطفة، ومستوى الفقه الذي يحدّد مشروعية الفعل وصيغته، ثم مستوى التربية الذي يصوغ الإنسان وفق نموذجٍ رساليٍّ واعٍ. ومن هنا، فإن أي مقارنة علمية لهذا الحقل لا بد أن تنطلق من رؤية منهجية تجمع بين تحليل النص في ذاته، واستنطاق دلالاته، وتمحيص أسانيده، وفهم أساليبه التعبيرية ضمن أفق الخطاب الديني العام.

فعلى مستوى المتن، تبرز الحاجة إلى تصنيف الروايات وفق محاورها الموضوعية؛ فثمة روايات تؤكّد أصل المشروع وتربطه بجذور قرآنية وسننية، وأخرى تُبرز البعد الثوابي للزيارة وما تحمله من آثار أخروية، وثالثة تكشف عن أبعادها التربوية في بناء الوعي الرسالي، ورابعة تُشير إلى آثارها الاجتماعية في ترسيخ الهوية الجماعية. هذا التصنيف لا يهدف إلى التفكير بقدر ما يسعى إلى إعادة تركيب الصورة الكلية، بحيث تُقرأ كل رواية في سياقها الوظيفي، لا بمعزل عن بقية منظومة الروايات الشريفة.



أما على مستوى اللغة، فإن النصوص المرتبطة بزيارة الإمام الحسين (عليه السلام) تتسم بكثافة بلاغية لافتة، حيث تتداخل فيها أساليب الترغيب والترهيب، والتكثيف الرمزي، والاستعارة، والمجاز، بل وأحياناً المبالغة المقصودة التي تُفهم في إطارها التداولي لا الحرفي. إن اللغة هنا ليست ناقلاً محايداً للمعنى، بل هي أداة تشكيل وجداني وتعبئة روحية، تسعى إلى نقل المتلقي من حالة السكون إلى حالة الفعل. ومن هنا، فإن القراءة الحرفية الجافة قد تفضي إلى سوء فهم، بينما القراءة البلاغية الواعية تكشف عن عمق المقاصد ومرامي الخطاب.

وفيما يتصل بالسند، فإن المنهج العلمي يقتضي عدم التسوية بين جميع الروايات من حيث الحجية، بل لا بد من إخضاعها لقواعد علم الرجال والدراية، وتمييز الصحيح من الضعيف، والمعتبر من غيره، مع الالتفات إلى خصوصية هذا الحقل الذي تكثر فيه روايات الفضائل. وهنا يبرز دور الجمع بين المنهج السندي والمنهج الدلالي؛ إذ قد تكون بعض الروايات ضعيفة من حيث الإسناد، لكنها منسجمة مع أصول قطعية أو مؤيدة بقرائن متعددة، فتكتسب حينئذٍ نوعاً من الاعتبار في دائرة الفضائل، لا في دائرة التشريع الملزم. هذا التوازن يمنع من الإفراط في القبول غير المنضبط، كما يمنع من التفريط الذي يُفضي إلى إفراغ التراث من مضمونه الحي.



وتأتي مسألة “المبالغة” في بعض نصوص الزيارة بوصفها إحدى الإشكالات المنهجية التي تحتاج إلى معالجة دقيقة؛ إذ إن ما يُتوهم فيه الغلو أو الإفراط، كالتعبير عن ثوابٍ عظيم أو منزلة استثنائية، ينبغي أن يفهم ضمن سنن الخطاب الديني الذي يعتمد أحياناً على التكتيف والتحفيز، لا سيما في سياقات ترسيخ القيم الكبرى.

فالمبالغة هنا ليست خروجاً عن الحقيقة، بل يراد منه تعظيم الفعل في وجدان المتلقي، وربطه بمنظومة القيم التي يجسدها الإمام الحسين (عليه السلام).

وعند جمع هذه المستويات النص، والدلالة، والسند، والأسلوب تتكوّن لدينا رؤية جامعة تمكّننا من قراءة روايات زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) قراءة متوازنة، لا تختزلها في بعدها العاطفي، ولا تحصرها في إطار فقهي ضيق، ولا ترفضها بدعوى بعض الإشكالات الشكلية، بل تستوعبها بوصفها خطاباً رسالياً مركّباً، يراد له أن يصنع إنساناً مرتبطاً بالقضية الحسينية على مستوى الوعي والسلوك معاً.

ومن هنا، فإن الزيارة لا تعود مجرد ممارسة شعائرية، بل تتحول في ضوء هذه القراءة المنهجية إلى فعل معرفي وتربوي متكامل، يُعيد وصل الإنسان بمصدر القيم، ويضعه في مواجهة مسؤوليته التاريخية والأخلاقية. وبهذا، تتجلّى الزيارة بوصفها نصّاً حيّاً، لا يُقرأ فحسب، بل يُعاش ويُترجم في الواقع، لتبقى كربلاء حاضرة في الضمير، لا كذكرى، بل كمعيار.



أولاً: تصنيف الروايات روايات الثواب (الترغيب التعبدي)

تمثّل هذه الطائفة من الروايات إحدى أبرز البُنى التحفيزية في خطاب زيارة الإمام الحسين (عليه السلام)، حيث تتكفّل بيان ما أُعدّ للزائر من أجرٍ عظيم، يُصاغ غالبًا بصيغٍ رقمية أو تمثيلية من قبيل: «كمن حجّ كذا حجة»، أو «كُتب له كذا من الحسنات»، أو «عُفّر له ما تقدّم من ذنبه». وهذه الصياغات، على ما فيها من كثافة عددية، لا ينبغي أن تُقرأ بوصفها مجرد إخبار حسابيّ جامد، بل من جهة أخرى بوصفها بنية بلاغية تربوية تستهدف تحريك الإرادة الإنسانية، واستنهاض الهمة نحو فعلٍ تعبديّ يتجاوز حدوده الظاهرة إلى أفقٍ أعمق من القرب الإلهي.

إن الوظيفة المركزية لهذه الروايات تتمثّل في بناء “الدافعية التعبدية”، عبر ربط الزيارة بسلم القُرب العبادية الكبرى، كالحج والجهاد وسائر الأعمال ذات الثقل الشرعي والروحي. فحين يُشبّه ثواب الزيارة بثواب الحج، لا يكون القصد إنشاء معادلة فقهية تُسقط الحج أو تستغني عنه، بل لها وجه في إقامة جسرٍ رمزيّ يربط بين فعلٍ قد يتيسّر لكل أحد (كالزيارة) وفعلٍ قد لا يتيسّر إلا بشروطٍ خاصة (كالحج)، بما يُنتج حالة من التوسعة في أبواب القرب، دون أن يُحدث خللاً في بنية التكاليف. وأيضًا لا ينفى حصول الأجر المستفاد من هذه المقارنات.



ومن هنا تتضح أنّ هذه الروايات لا تُنشئ بديلاً عن الفرائض، ولا تُقدّم الزيارة بوصفها مزاحماً لواجب شرعي، بل تُنشئ “أفقاً ترغيبيّاً” يُعيد ترتيب القيمة الشعورية للأعمال في وجدان المكلف ولا ينتفي أيضاً الحصول على الجزاء الإلهي العظيم. فالفرائض تبقى في موقعها الأصلي من الإلزام والتقدّم، بينما تأتي هذه النصوص لتقول إنّ الزيارة بما تحمله من انتماءٍ واعٍ لخطّ الإمام الحسين (عليه السلام) يمكن أن ترتقي بالإنسان في مدارج القرب، إذا أُنجزت في سياق الطاعة لا في مقابلها.

كما أنّ فهم هذه الروايات يقتضي التفكيك بين مستويين: مستوى “البيان التحفيزي” ومستوى “التقرير التشريعي”. فالأول يعتمد على أساليب التكثير والمضاعفة، وربما المبالغة المقصودة بلاغيّاً، بهدف التأثير في النفس الإنسانية التي تتفاعل مع لغة الوعد والرجاء، بينما الثاني يُعنى بتحديد الوظائف الشرعية بدقّة وضبط. وإذا لم يُراعَ هذا التفكيك، فقد يُساء فهم النص، إمّا بإطلاقٍ غير منضبط يُفضي إلى توهم الاستغناء عن الفرائض، أو بتشكيكٍ مفرط يُفضي إلى إفراغ النص من قوّته التحفيزية. غير أننا على يقين راسخ لا يداخله شك بأن الوارد في هذه الروايات الشريفة من جزاء وثواب متحقق ما أن تتحقق شروطها، وبكلام آخر تتحقق بشرطها وشروطها.





وعليه، فإن روايات الثواب في باب زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) تُقرأ ضمن منظومة أوسع من الخطاب الديني الذي يسعى إلى صناعة “الإنسان الراغب في القرب”، لا عبر الإلزام وحده، بل عبر فتح آفاق الرجاء، وتوسيع دائرة الأمل، وربط الأعمال وإن بدت بسيطة في ظاهرها بمقاصد كبرى في باطنها. إنَّها لغةٌ تُخاطب القلب بقدر ما تُخاطب العقل، وتُنشئ في داخل الإنسان حالة من التوق إلى الله سبحانه وتعالى، من خلال بوابة الإمام الحسين صلوات الله وسلامه عليه، بوصفه رمزًا للطاعة الخالصة والتضحية المطلقة.

وبهذا المعنى، لا تكون الزيارة مجرد فعلٍ يُؤدَّى طلبًا للثواب، بل تتحوّل في ضوء هذا الرغبة التعبدية إلى مسارٍ روحيٍّ يتكامل فيه الحب مع الطاعة، والولاء مع العمل، فيفتح أمام الزائر أفقٌ جديد، لا يقف عند حدود العدد، بل يمتد إلى عمق التحوّل الذي تُحدثه هذه الزيارة في بنية الإنسان وسلوكه.

روايات الآثار الدنيوية (التربية والبركة)

تندرج هذه الطائفة من الروايات ضمن البعد التطبيقي لخطاب زيارة الإمام الحسين (عليه السلام)، حيث لا تقتصر على بيان الأجر الأخروي، بل تتجاوز ذلك إلى الكشف عن آثارٍ تمتد إلى حياة الإنسان اليومية، فتتحدث عن سعة الرزق، ودفع البلاء، وطول العمر، وقضاء الحوائج، وما إلى ذلك من تجليات البركة في الواقع المعيشي.



وهذه النصوص لا تسعى إلى تحويل الزيارة إلى وسيلة نفعية ضيقة، بل إلى إعادة ربط الإنسان بمنظومة تكوينية يرى فيها أنّ السلوك العبادي ليس معزولاً عن مجريات الحياة، بل هو جزء من شبكة أسباب تؤثر في تشكيل الواقع.

إن الوظيفة التربوية لهذه الروايات تتجلى في ترسيخ مبدأ “وحدة السلوك والنتيجة” فالفعل الروحي، بما ينطوي عليه من توجه إلى الله سبحانه وتعالى، وانخراط في خطّ أوليائه، لا يبقى حبيس الباطن، بل ينعكس بنحو من الأنحاء في الخارج، ضمن سنن إلهية تحكم العلاقة بين الإنسان وربّه، وبين الإنسان وعالمه. ومن هنا، فإن الحديث عن البركة ليس توصيفاً غيبياً منفصلاً عن الواقع، بل هو تعبير عن نمط من التفاعل بين العبد والسنن الإلهية، حيث يُفتح للإنسان بابٌ من التيسير، أو يُدفع عنه لوّنٌ من العسر، نتيجة انخراطه في مسار الطاعة.

غير أنّ الفهم المنهجي الدقيق لهذه الروايات يقتضي ضبطها ضمن قاعدة “الافتضاء لا العلّية التامة”. فالزيارة، في هذا الإطار، ليست سبباً مستقلاً يُنتج الأثر بشكلٍ حتميٍّ ومباشر، بل هي أحد الأسباب التي تعمل ضمن منظومةٍ أوسع من الشروط والموانع. فالإخلاص في النية، والاستقامة في السلوك، ومراعاة السنن الكونية، كلّها عناصر تتداخل في تشكيل النتيجة النهائية. وبعبارة أدق، فإن الزيارة تفتح باب القابلية لنزول البركة، لكنها لا تُلغي سائر القوانين التي تحكم الإنسان في هذا العالم والعوالم الأخرى.



وهذا الضابط يمنع من الوقوع في قراءتين متقابلتين كلتاهما غير دقيقة: قراءة تبسيطية تتعامل مع الروايات بوصفها وعوداً آلية تُفضي إلى نتائج حتمية بغض النظر عن سلوك الإنسان العام، وقراءة تُسقط هذه النصوص بدعوى عدم تحقق آثارها في بعض الموارد. إنّ المنهج المتوازن يُبقي على دلالة النص، ويُدرجه في سياقه السنني، بحيث يفهم أنّ تخلف الأثر في بعض الحالات لا يُبطل القاعدة، بل يكشف عن وجود مانع، أو فقدان شرط، أو حكمة إلهية أعمق لا يُحيط بها الإنسان.

كما أنّ لهذه الروايات بُعداً تربوياً دقيقاً في إعادة تشكيل علاقة الإنسان بالدنيا نفسها؛ فهي لا تدعوه إلى التعلّق بها، بل إلى إدارتها ضمن أفق إيماني، يرى فيها ساحةً لتجلّي البركة الإلهية، لا غايةً مستقلة. فالزائر، حين يقصد الإمام الحسين (عليه السلام) بنية صادقة، لا يذهب ليطلب الدنيا بوصفها هدفاً، بل ليطلب الله سبحانه وتعالى، فتأتي الدنيا في بعض تجلياتها تابعة لهذا التوجّه، لا سابقةً عليه.

وعليه، فإن روايات الآثار الدنيوية لا تُقرأ بوصفها وعوداً مادية، بل بوصفها إشارات إلى عمق الترابط بين الباطن والظاهر، وبين العبادة والحياة. إنها تفتح أمام الإنسان أفقاً يرى فيه أنّ كل خطوة نحو الله جل وعلا، مهما بدت بسيطة، يمكن أن تُثمر أثراً في واقعه، إذا ما اندمجت ضمن منظومة الطاعة، وخضعت لقوانينها الدقيقة. وبهذا، تتحول الزيارة إلى فعلٍ جامع، يربط بين إصلاح الداخل وتيسير الخارج، في توازنٍ دقيق يحفظ للإنسان وعيه، وللنص هيئته، وللجنة الإلهية نظامها.



روايات الآثار الأخروية (المصير والشفاعة)

هذه الطائفة من الروايات الامتداد الأقصى لخطاب زيارة الإمام الحسين (عليه السلام)، إذ تنقل الفعل التعبدي من حدوده الزمنية المحدودة إلى أفقٍ أخرويٍّ مفتوح، حيث تتجلى معاني الغفران، ودخول الجنة، والنجاة من النار، وشمول الشفاعة. وفي هذا المستوى، لا تعود الزيارة مجرد ممارسة شعائرية ذات أثرٍ آني، بل تتحول إلى عنصرٍ مؤثرٍ في صياغة المصير النهائي للإنسان، بما يحمله من دلالاتٍ عقدية عميقة ترتبط بمفهوم الولاية، ومعنى الانتماء، وحدود العلاقة بين العمل والجزاء.

إنّ تحرير مفهوم الشفاعة، كما يرد في هذه الروايات، يُعدّ ضرورةً منهجية لا غنى عنها، لتجنّب إساءة الفهم أو الانزلاق إلى تصوّرات تُفَرِّغ الخطاب من محتواه الأخلاقي. فالشفاعة، في منطق هذه النصوص، ليست "ترخيصًا للمعصية"، ولا مظلةً تبرّر الانفلات من الالتزام، بل هي آلية تدارك ورحمة تُمنح لمن بقي على أصل الولاء، وسعى ولو مع تقصير في خطّ الطاعة، دون أن ينقلب عليه أو يجحده. إنها تعمل داخل منطق العدل الإلهي، لا خارجه؛ إذ لا يُتصوّر أن تتحوّل الشفاعة إلى نقضٍ لمبدأ المسؤولية، أو إلى تعطيلٍ لقانون الجزاء.



ومن هنا، فإن العلاقة بين الشفاعة والعمل ليست علاقة تناقض، بل علاقة تكامل؛ فالعمل الصالح يُنشئ القابلية، والشفاعة تُتِمّ النقص، في إطارٍ من التوازن بين العدل والفضل. وإذا غاب هذا التوازن، وقع الإنسان إمّا في وهم الاتكال الذي يُفرغ الدين من محتواه العملي، أو في يأسٍ قاتل يُغلق أبواب الرجاء. أما هذه الروايات، فهي تسعى إلى بناء حالة وسطى، يُحافظ فيها الإنسان على جدية الالتزام، دون أن يفقد الأمل في رحمة الله.

وعليه، فإن روايات الآثار الأخروية في زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) لا تُفهم بوصفها وعودًا مطلقة منفصلة عن شروطها، ولا كخطابٍ عاطفيٍّ صرف، بل كنصوصٍ تؤسّس لرؤية متكاملة تربط بين الولاء والعمل، وبين الرجاء والمسؤولية، وبين الحضور في الدنيا والحصاد في الآخرة. وبهذا، تُصبح الزيارة فعلًا ذا بعدين متلازمين: بُعدٌ يُحيي القلب في الحاضر، وبُعدٌ يرسم للإنسان موقعه في الأبد، ضمن منطقٍ إلهيٍّ يجمع بين العدل والرحمة، ويجعل من الإمام الحسين (عليه السلام) جسرًا يُعبر به السائرون من حدود التقصير إلى آفاق النجاة.





الزيارة كحالة حضور روحي

حين يُستحضر معنى الزيارة في أفقه العميق، فإن أول ما يتبدى هو أنها ليست انتقالاً في الجغرافيا بقدر ما هي انتقالٌ في الوعي؛ ليست مجرد وقوف الجسد عند الضريح الشريف، بل حضور القلب في محضر المعنى. ذلك الحضور الذي تتحدث عنه اللغة بوصفه نقيض الغفلة، حيث لا يكون الإنسان موزَّعاً بين صورٍ شتى، بل مجتمعاً على ذاته، مستيقظاً في مقامه، واعياً لمن يُخاطب، ولماذا يُخاطب، وكيف ينبغي أن يكون وهو في حضرة هذا الخطاب.

في هذا السياق، يتشكّل حضور النية بوصفه البوابة الأولى؛ إذ يُعاد تعريف الدافع من جذوره. الزيارة هنا لا تعود عادةً موسمية يُعاد إنتاجها بحكم العرف، بل تصبح قصدَ لقاء، وتجديدَ عهدٍ يُستأنف في كل مرة. إنها لحظة مراجعة داخلية، يسأل فيها الزائر نفسه: ماذا أريد من هذه الوقفة؟ وأي موقعٍ أطلبه في هذا الخطّ الذي أمثله أمامه؟

ثم يأتي حضور الخطاب، حيث تتحوّل الألفاظ من أصواتٍ متكرّرة إلى معانٍ مُعاشة. حين يقول الزائر: “السلام عليك يا أبا عبد الله”، فهو لا يُلقي تحيةً في فراغ، بل يدخل في علاقةٍ حقيقية مع مخاطبٍ حيٍّ في ميزان الولاية. والسلام هنا ليس مجرد تحية، بل هو إعلان عهدٍ وأمان، واصطفافٍ ضمن جبهة الحق. إنه قولٌ يحمل قائله مسؤولية ما يقول، ويطلبه أن يكون بمستوى هذا الإعلان.



وأما حضور المعية، فهو ذروة هذا المسار؛ أن لا يشعر الزائر أنّه واقفٌ على هامش واقعةٍ تاريخية، بل داخل سياقٍ ممتدٍّ من عاشوراء، ما يزال يتجدّد في كل زمان. هناك، تتلاشى المسافة بين “كان” و “يكون”، ويصبح السؤال: أين أقف أنا الآن من هذا الخطّ؟ هل أنا في امتداده، أم على تخومه، أم في مقابله؟

ومن هنا، تنقلب المقاييس: فالمسافة الحقيقية ليست بينك وبين كربلاء، بل بينك وبين معنى كربلاء. قد يقترب الجسد حتى يلامس التراب، وتبقى الروح في أقصي البعد، وقد تتباعد الخطى آلاف الأميال، ويقرب القلب حتى يكون “معه” حيث يكون الحق. تلك هي المسافة التي يُراد اختصارها في الزيارة، لا مسافة الطريق.





عارفاً بحقه - طبقات المعرفة

هذه العبارة التي تتكرر في الروايات ليست شرطاً شكلياً يُستوفى لفظاً، بل هي محكّ القبول وروح العمل. والمعرفة هنا ليست بُعداً واحداً، بل طبقات تتكامل لتصنع حالةً وجودية متماسكة.

في طبقتها الأولى، تأتي المعرفة الاعتقادية، حيث يُقرّر الزائر بإمامته (عليه السلام)، بوصفه حجة الله، ويعي أنّ خروجه لم يكن حركةً عارضة في سياق نزاعٍ سياسي، بل موقفاً إلهياً يستبطن معيار الحق. هذه المعرفة تُثبت الأساس الذي يُبنى عليه كلّ ما بعده.

ثم ترتقي إلى المعرفة الرسالية، حيث لا يكتفي الإنسان بسرد الحدث، بل ينفذ إلى مقاصده: الإصلاح، إحياء الصلاة، مقاومة الانحراف، نصرة المظلوم. هنا تتحوّل كربلاء من واقعة تُروى إلى مشروع يُفهم، ومن سردٍ تاريخي إلى قراءة هادفة.

غير أنّ المعرفة تبلغ ذروتها حين تصبح معرفةً وجودية، أي حين تنقلب من إدراكٍ ذهني إلى انجيازٍ داخلي. هناك يتبدّل الميزان: ما وافق خطّ الإمام الحسين عليه السلام يُستقبل بالقبول، وما خالفه يُستشعر فيه النفور. هذه معرفة لا تحتاج إلى كثير بيان، لأنّها تُرى في السلوك قبل أن تُقال في اللسان.





وأخيرًا، تكتمل به المعرفة الالتزامية، حيث تُترجم هذه الطبقات كلّها إلى عملٍ ملموس: صدق، وعدل، وصلاة، ومقاومة للظلم. فليس من المعقول أن يخرج الزائر “عارفًا بحقه” ثم يبقى على ما كان عليه قبل الزيارة؛ إذ لو لم تُحدث المعرفة أثرًا، دلّ ذلك على أنّها لم تتجاوز سطح الإدراك.





ثلاثية الحب والزيارة والشفاعة

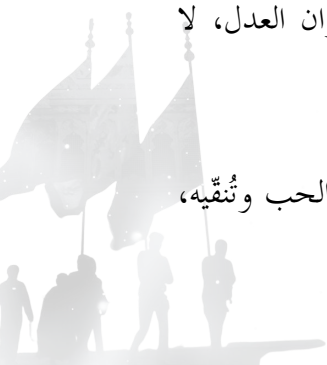
في عمق التجربة الحسينية، تتشكّل دائرة روحية متكاملة من ثلاثة عناصر: الحب، والزيارة، والشفاعة، بحيث يغدّي كلّ منها الآخر، ولا يستغني أحدها عن البقية.

الحب هو الجذر الأول؛ ليس عاطفةً عابرة، بل قوّة جذب تعيد ترتيب الأولويات في داخل الإنسان. من أحبّ الإمام الحسين عليه السلام أحبّ ما أحبّ، وانجذب إلى قيمه، ونفر ممّا يناقضها. إنّه ميلٌ يعيد تشكيل الذوق الأخلاقي، قبل أن يكون مجرد انفعال وجداني.

ثم تأتي الزيارة بوصفها تجسيد هذا الحب في فعلٍ حيّ. فالمحبّة إذا بقيت حبيسة الشعور خمدت مع الزمن، أمّا حين تُترجم إلى حضور، وسلام، وتذكّر، وتجديد عهد، فإنها تستعيد حرارتها وتزداد صفاءً. الزيارة هنا هي لغة الحب العملية، التي تخرجه من الباطن إلى السلوك.

وأما الشفاعة، فهي الأثر الذي ينفّث حين يصدق الحب ويقترن بالالتزام. ليست مكافأةً على مجرد العاطفة، بل ثمرة ولاءٍ حقيقي سعى صاحبه أن يكون منسجماً مع خطّ الولي، وإن لم يخلُ من تقصير. فهي تداركٌ للعترات، لا ترخيصٌ لها؛ رحمةٌ تعمل ضمن ميزان العدل، لا بديلاً عنه.

وبذلك، تتّضح البنية: الحب يؤلّد الزيارة، والزيارة تُنمّي الحب وتُنقّيه، وإذا صدق هذا المسار، انفتح أفق الشفاعة في نهايته.





البكاء والتفاعل العاطفي

في المدرسة الحسينية، لا يفهم البكاء بوصفه ضعفًا، بل بوصفه لغةً حين تعجز العبارة، ومنفدًا من منافذ التزكية. إنه لحظة انكشافٍ داخلي، تتفاعل فيها الذاكرة مع القيم، ويتحرك فيها القلب من سكونه.

في بعده الأول، يكون البكاء طهارةً؛ فالدمعة الصادقة تذيب قسوة القلب، وتعيد إليه حساسيته التي قد تبهت تحت وطأة الاعتياد. إنها استعادةٌ للقدرّة على التأثّر، ومن ثم على التوبة.

لكنّ البكاء لا يبلغ كماله إلا إذا صار وعيًا؛ إذ ليس كل بكاءٍ يفتح بصيرة. البكاء الذي يُراد هو ذاك الذي يُؤلّد سؤالًا: لماذا بكى الإمام الحسين عليه السلام؟ لماذا قُتل؟ وما الذي يُطلب مني الآن؟ فإذا لم تتحوّل الدمعة إلى سؤال، ثم إلى موقف، بقي أثرها ناقصًا.

ومن هنا، يتحوّل البكاء إلى التزام؛ إذ إنّ الدمعة، في حقيقتها، إعلان انحياز. ومن يعلن انحيازه، لا بد أن يترجمه في سلوكه: نصرّة لمظلوم، ورفضًا لمنكر، وثباتًا على صلاة، وصدقًا في القول والعمل. وإلا بقي الانحياز دعوى لا شاهد لها.





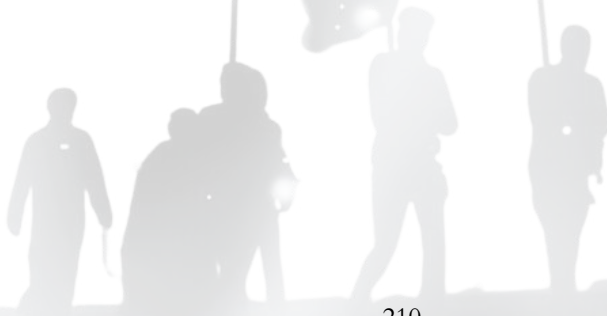
وفي كل ذلك، يبقى التوازن بين العاطفة والعقل شرطاً لسلامة المسار؛ فالعاطفة هي الوقود الذي يحرك، والعقل هو الموجه الذي يضبط الاتجاه. فإذا انفصل الوقود عن التوجيه احترق بلا أثر، وإذا انفصل التوجيه عن الوقود جفّ بلا حركة. أمّا الزيارة الكاملة، فهي تلك التي تتوحد فيها حرارة الشعور مع بصيرة الوعي، فينتج عنهما سلوكٌ حيّ، يُعيد إنتاج المعنى في الواقع.

وهكذا، تتجلى الزيارة في هذا الأفق لا كفعلٍ عابر، بل كحالة حضورٍ شامل، تعيد بناء الإنسان من داخله، وتضعه في مواجهة مسؤوليته: أن يكون، بقدر ما يستطيع، امتداداً لذلك الخطّ الذي وقف يوماً ليقول للباطل: لا..





أربعون حبیباً فی فضل زبائرہ (علیہ السلام):





الحديث الأول:

عن هارون بن خارجة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: {وَكَلَّ اللَّهُ بِقَبْرِ الْحُسَيْنِ أَرْبَعَةَ آلَافٍ مَلَكٍ شَعَثَ غَبْرٌ يَبْكُونَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَمَنْ زَارَهُ عَارِفًا بِحَقِّهِ شِيعَوْهُ حَتَّى يَبْلُغُوهُ مَأْمَنَهُ، وَإِنْ مَرَضَ عَادُوهُ غَدَوَةٌ وَعَشِيَّةٌ، وَإِنْ مَاتَ شَهِدُوا جَنَازَتَهُ وَاسْتَغْفَرُوا لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}.

هذا النصّ الشريف الذي ينقله هارون بن خارجة عن الإمام الصادق (عليه السلام) ليس مجرد خبرٍ عن واقعة غيبية، بل هو نافذة تُفتح على عالمٍ آخر، عالمٍ يتداخل فيه الغيب بالشهادة، وتتجلّى فيه منزلة الإمام الحسين (عليه السلام) في نظام الوجود، لا في حدود التاريخ فحسب.

حين يقول الإمام صلوات الله عليه: «وَكَلَّ اللَّهُ بِقَبْرِ الْحُسَيْنِ أَرْبَعَةَ آلَافٍ مَلَكٍ شَعَثَ غَبْرٌ يَبْكُونَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، فإننا أمام صورة ذات دلالات كثيفة. فالتعبير بـ «وَكَلَّ» يوحي بالتكليف المستمر، لا بالفعل العابر؛ أي أنّ الله تعالى جعل من هذا المقام الحسيني موضع خدمة ملائكية دائمة، وكأنّ القبر الشريف تحوّل إلى مركز إشعاعٍ روحيّ تنتزّل إليه الملائكة كما تنتزّل على المواطن المقدّسة الكبرى. أمّا وصفهم بـ «شعث غبر» فهو تعبير يحمل رمزية الحزن العميق والانخراط الكامل في حالة العزاء، كأنّ هؤلاء الملائكة قد شاركوا في مأساة كربلاء وجدائيًا، فصار بكاءهم امتدادًا لبكاء السماء على الإمام الحسين عليه السلام، لا مجرد فعلٍ وظيفي.



وهنا تبدى حقيقة دقيقة: إنّ البكاء في هذا النص ليس بكاء عاطفياً سطحياً، بل هو موقف وجودي؛ إذ إنّ الإمام الحسين (عليه السلام) لم يكن حادثه عابرة، بل تجلياً للصراع بين الحقّ والباطل، ولذلك صار البكاء عليه موقعاً من هذا الصراع، حتى على مستوى الملاء الأعلى.

ثمّ ينتقل الحديث إلى الزائر: «فمن زاره عارفاً بحقه». وهذه العبارة هي المفتاح الحقيقي لفهم بقیة الرواية. فليست الزيارة هنا حركة جسدٍ إلى مكان، بل حركة وعيٍ إلى مقام. “عارفاً بحقه” تعني إدراك موقع الإمام الحسين عليه السلام في الإمامة، وفهم نهضته، والالتزام بخطّه الرسالي. فالزيارة التي تنفصل عن المعرفة قد تُنتج أثراً عاطفياً، لكنّها لا تبلغ هذا الأفق العالي من الكرامة الذي تصفه الرواية.

وحين تتحقّق هذه المعرفة، تبدأ سلسلة من العناية الإلهية المدهشة: «شيّعوه حتى يبلغوه مأمنه». إنّها ليست مجرد مرافقة رمزية، بل دلالة على أنّ هذا الزائر يدخل في رعاية خاصة، تُلازمه حتى يصل إلى “مأمنه”، وهو تعبير مفتوح يمكن أن يُفهم على أكثر من مستوى:

مأمنه في الدنيا من المخاطر، أو مأمنه في الآخرة من أهوال الحساب. وكأنّ الزيارة الواعية تُنشئ علاقة حماية مستمرة بين الإنسان وعالم الغيب.





ثم يرتقي النص إلى مستوى أعمق من الرعاية: «وإن مرض عادوه غدوةً وعشيّةً».

هنا تتحوّل الملائكة من حالة الحزن على الإمام الحسين عليه السلام إلى حالة الرحمة لزوّاره. فالزائر لا يُترك وحده في ضعفه الإنساني، بل تُحيط به عناية غيبية تتردّد عليه صباحًا ومساءً، وكأنّ زيارة الإمام الحسين عليه السلام قد أدرجت اسمه في سجلّ خاصّ من الرعاية الإلهية.

وأما الذرّوة، فهي في قوله: «وإن مات شهدوا جنازته واستغفروا له إلى يوم القيامة». هذه العبارة تُنهي الصورة بامتدادٍ أخرويٍّ عظيم. فالملائكة لا تكتفي بمرافقته في حياته، بل تشارك في توديعه، ثم تستمرّ في الاستغفار له إلى يوم القيامة. وهذا يعني أنّ أثر الزيارة لا ينتهي عند لحظةٍ زمنية، بل يتحوّل إلى رصيدٍ دائم في ميزان العبد، يتغذى باستمرار من دعاء الملائكة واستغفارهم.

ومن خلال هذا البناء المتكامل للرواية، يتّضح أنّ زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) بشرط المعرفة ليست عملاً مستحبّاً بسيطاً، بل هي مشروع ارتباطٍ وجوديٍّ مع خطّ الإمام الحسين عليه السلام، يُثمر رعايةً في الدنيا، وأمنًا في البرزخ، ونجاةً في الآخرة.





إنَّ الإمام الحسين (عليه السلام) في هذا النص لا يُقدَّم بوصفه شخصية تاريخية يُزار قبرها، بل بوصفه محورًا حيًّا في شبكة الهداية الإلهية، تتفاعل معه الملائكة، وتتشابك معه مصائر الزائرين. ومن هنا نفهم لماذا ظلَّت كربلاء، عبر القرون، ليست مجرد أرض، بل قلبًا نابضًا يستقطب الأرواح، ويعيد تشكيل الوعي، ويمنح الزائرين نصيبًا من ذلك النور الذي لم ينطفئ يومًا منذ عاشوراء.





الحديث الثاني:

عن الحسين بن محمد قال: قال أبو الحسن بن موسى (ع): (أدنى ما يثاب به زائر أبي عبد الله (عليه السلام) بشط الفرات إذا عرف حقه وحرمته وولايته أن يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر)

هذه الرواية تضعنا أمام مقياسٍ مختلف تمامًا لفهم “الثواب”، وتعيد تعريف العلاقة بين الإنسان والإمام الحسين (عليه السلام) بوصفها علاقةً تتجاوز حدود العمل الجزئي إلى تحوّل في المصير. حين يقول الإمام (عليه السلام): «أدنى ما يثاب به زائر أبي عبد الله...»، فإنّ التعبير نفسه يلفت النظر قبل مضمونه. فـ“الأدنى” هنا ليس أمرًا بسيطًا أو هامشيًا، بل هو حدُّ أدنى من عطاءٍ إلهيٍّ يفوق التّصوّر. وكأنّ الرواية تريد أن تقول: إنّ ما يُعطى للزائر فوق هذا الحدِّ أعظم وأوسع، لكن حتى هذا “الأدنى” وحده كافٍ ليقبّل حياة الإنسان رأسًا على عقب.

ثمّ يحدّد النصّ مكان الزيارة: «بشطّ الفرات». وهذا ليس توصيفًا جغرافيًا فقط، بل هو استدعاء لذاكرة كربلاء بكلّ ما فيها من عطشٍ ودمٍ وحرمان. الفرات، الذي كان قريبًا من الإمام الحسين (عليه السلام) في الجغرافيا وبعيدًا عنه في الواقع، يتحوّل في الرواية إلى شاهدٍ على المأساة، وإلى رمزٍ للمفارقة بين فيض الماء ومنع الشربة. فزيارة الإمام الحسين عليه السلام عند هذا الموضع ليست زيارة مكانٍ فحسب، بل هي دخولٌ في قلب الحدث، واستحضارٌ حيٍّ لمعاناةٍ أرادها الإمام الحسين عليه السلام أن تكون درسًا خالدًا.



لكِنَّ المفتاح الحقيقي، كما في الرواية السابقة، يكمن في قوله: «إذا عرف حقّه وحرّمته وولايته». هنا تتكثّف الشروط في ثلاثة أبعاد مترابطة:

معرفة الحقّ: أي إدراك أنّ الإمام الحسين عليه السلام إمامٌ مفترض الطاعة، وأنّ نهضته لم تكن خروجًا عاطفيًا، بل قيامًا إلهيًا لحفظ الدين.

معرفة الحرمة: أي استشعار قدسيّة هذا المقام، وأنّ التعامل مع الإمام الحسين عليه السلام ليس كالتعامل مع أيّ شخصية تاريخية، بل مع رمزٍ مقدّسٍ تتعلّق به إرادة الله في الهداية.

معرفة الولاية: وهي الأعمق، إذ تعني الارتباط العملي بخطّ الإمام الحسين عليه السلام، والانتماء الواعي لمنهجه، لا مجرد الحبّ العاطفي.

عند تحقّق هذه الثلاثية، تأتي النتيجة التي تبدو للوهلة الأولى مذهلة: «أن يُغفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر». وهذه العبارة تحتاج إلى قراءة دقيقة، لأنها لا تعني إطلاقًا فتح باب التهاون أو الترخيص في الذنب، بل تشير إلى تحوّل جذريّ في الإنسان. فالمغفرة هنا ليست مجرد محو حسابيّ للذنوب، بل هي إعادة صياغة للروح، بحيث يصبح هذا الإنسان في موقعٍ جديد من القرب الإلهي.



إنَّ “غفران ما تقدّم” واضح المعنى، لكنَّ “ما تأخّر” يفتح أفقًا أعمق؛ إذ يفهم في سياق أنّ من وصل إلى هذا المستوى من المعرفة والارتباط بالإمام الحسين عليه السلام، فإنّه يدخل في حالة من الهداية والرعاية تجعله محفوظًا. في الجملة. من الانزلاق المستقبلي، أو على الأقلّ مشمولًا بعفوٍ خاصّ إن زلّ. وكأنّ الزيارة الواعية تُنشئ حصانةً روحية، لا تُسقط التكليف، ولكن تعزّز القدرة على الثبات.

وبهذا، يتّضح أنّ الرواية لا تتحدّث عن “ثواب زيارة” بالمعنى الشائع، بل عن تحوّل وجوديّ: انتقال الإنسان من حالة التراكم الذنبي إلى حالة الصفاء، ومن الانفصال إلى الارتباط، ومن الضياع إلى الانتماء لخطّ الإمام الحسين (عليه السلام).

إنّ الإمام الحسين عليه السلام في هذا النص ليس بابًا للمغفرة فحسب، بل هو طريقٌ لإعادة بناء الإنسان. فمن زاره بهذه المعرفة، لم يعد هو الإنسان نفسه الذي جاء، بل صار كأنّه وُلد من جديد، يحمل في داخله أثر تلك الزيارة، ويمضي في حياته وهو مشمولٌ بعينٍ من الرحمة لا تغفل، وبظلّ ولايةٍ لا تنقطع.





الحديث الثالث:

عن صالح بن عقبة، عن زيد الشحام، قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): ما لمن زار قبر الحسين (عليه السلام)، قال: كان كمن زار الله في عرشه، قال: قلت: ما لمن زار أحدا منكم، قال: كمن زار رسول الله (صلى الله عليه وآله).

هذه الرواية من النصوص التي تُثير في ظاهرها دهشةً، لأنها تستخدم تعبيراتٍ عالية السقف: «كمن زار الله في عرشه»، و*«كمن زار رسول الله»*. لكنّها في عمقها ليست مبالغَةً خطابية، بل بناءً دقيق لعلاقة الزيارة بمنظومة القرب الإلهي.

حين يُسأل الإمام (عليه السلام): «ما لمن زار قبر الحسين؟»، فيجيب: «كان كمن زار الله في عرشه»، فإنّ هذه العبارة لا يمكن أن تُفهم على ظاهرها الحسيّ، لأنّ الله تعالى منزّه عن المكان والجهة. ف«العرش» هنا ليس مكاناً يُزار، بل هو رمزٌ في اللسان القرآني لأعلى مراتب التجلّي الإلهيّ والسيادة المطلقة. وعليه، فإنّ معنى “زيارة الله في عرشه” هو بلوغ أقصى درجات القرب المعنويّ، حيث يكون العبد في حضرة الطاعة الخالصة والانكشاف الروحيّ.





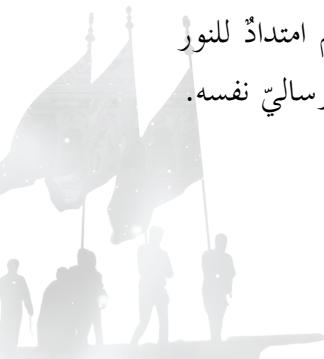
ومن هنا، فالرواية تُعيد تعريف زيارة الإمام الحسين (عليه السلام): ليست انتقالًا جغرافيًا إلى قبر الشريف، بل ارتقاءً روحيًا إلى مقام القرب.

لماذا؟ لأن الإمام الحسين عليه السلام يمثل في هذا تصوّر المرأة الصافية لإرادة الله؛ فمن وقف عنده بوعي، فكأنّه وقف عند تجلّي الحقّ في الأرض.

ثم إنّ هذا المعنى لا يُفهم إلا إذا ربطناه بشرطٍ ضمنّي تكرر في الروايات السابقة: المعرفة. فالزيارة التي تبلغ هذا الأفق ليست كلّ زيارة، بل هي زيارة من عرف الإمام الحسين عليه السلام إمامًا، وفهم نهضته، وارتبط بولايته. عندئذٍ تصبح الزيارة عبورًا من عالم الظاهر إلى عالم الحقيقة.

أمّا الشقّ الثاني من الرواية، حين يسأل الراوي: «ما لمن زار أحدًا منكم؟»، فيأتي الجواب: «كمن زار رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فهو يكشف عن قاعدةٍ مترابطة:

أنّ الأئمة (عليهم السلام) ليسوا كيانات منفصلة، بل هم امتدادٌ للنور المحمديّ. فزيارتهم ليست زيارة أفراد، بل زيارة الخطّ الرساليّ نفسه.





وهنا تتجلى وحدة المسار:

- زيارة الإمام الحسين عليه السلام وصول إلى مقام القرب الإلهي.
- زيارة الأئمة عليهم السلام اتصال برسول الله صلى الله عليه وآله.

وهذا يعني أنّ السلسلة كلّها متّصلة: من الله إلى رسوله صلى الله عليه وآله، ومن رسوله صلى الله عليه وآله إلى أوصيائه صلوات الله عليهم. فمن دخل من هذا الباب، لم يدخل على شخص، بل دخل على الحقيقة التي يحملها هذا الشخص.

إنّ الرواية، بهذا البيان، تريد أن تنقلنا من الفهم العاطفي للزيارة إلى الفهم المعرفي الوجودي. فليست القضية أنّ الزائر ينال ثواباً عظيماً فحسب، بل أنّه - إن وعى - يدخل في مدار القرب، ويقف عند عتبة هي من أقرب العتبات إلى الله سبحانه وتعالى.

ولهذا، فإنّ التعبير بـ «كمن زار الله في عرشه» ليس مبالغة، بل هو كشف عن حقيقة: أنّ الإمام الحسين (عليه السلام) أصبح، بدمه ونهضته، نقطة التقاء بين الأرض والسماء، فمن قصده بصدق ومعرفة، فقد قصد هذا اللقاء نفسه، ووقف - روحياً - في حضرة القرب التي لا يُنال مثلها إلا عبر أبواب اصطفاها الله لعباده





الحديث الرابع:

عن عبد الله بن سنان قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: {قبر الحسين عليه السلام عشرون ذراعاً مكسراً روضة من رياض الجنة منه معراج إلى السماء فليس من ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا وهو يسئل الله تعالى أن يزور الحسين عليه السلام ففوج يهبط وفوج يصعد}.

هذه الرواية تفتح أمامنا أفقاً آخر في فهم كربلاء، لا بوصفها أرضاً احتضنت حادثة، بل بوصفها موضعاً متحوّلاً في نظام الوجود، تتقاطع فيه الأرض مع السماء، والزمن مع الأبد.

حين يقول الإمام الصادق (عليه السلام): «قبر الحسين عشرون ذراعاً مكسراً روضة من رياض الجنة»، فهو لا يحدّد مساحةً هندسية بقدر ما يكشف عن حقلٍ قدسيٍّ محدّد داخل هذا العالم الترابي. “عشرون ذراعاً مكسراً” تعني نطاقاً معلوماً في الأرض، لكن وصفه بـ “روضة من رياض الجنة” ينقلنا من عالم القياس المادي إلى عالم القيمة الغيبية.

فالروضة في التعبير الديني ليست مجرد بستان، بل موضع تنزّل الرحمة وامتداد النعيم. وكأنّ قطعةً من الجنّة قد أنزلت إلى الأرض، أو فُتحت فيها نافذةٌ على ذلك العالم الآخر.





وهنا ينبغي أن نلتفت: إنّ هذه الروضة ليست كذلك لأنّها أرض بذاتها، بل لأنّها احتضنت جسد الإمام الحسين (عليه السلام)، الذي تحوّل بدمه وتضحّيته إلى محورٍ تتجلّى عنده الإرادة الإلهية في أسمى صورها. فالقيمة ليست في التراب، بل في الحدث الذي قدّسه.

ثمّ يأتي التعبير الأعمق: «منه معراج إلى السماء». هذه الجملة تختصر المسافة بين العالمين. فالمعراج هو طريق الصعود، وهو المصطلح الذي استُخدم في وصف ارتقاء النبي (صلى الله عليه وآله) إلى السماوات. وعندما يُقال إنّ من هذا الموضع “معراجاً”، فإنّ المعنى أنّه ممّرٌ روحيّ مفتوح، تتصاعد منه الأعمال، وتنزل إليه الرحمات. ليس معراجاً حسّيّاً يُرى، بل معراجٌ في نظام الغيب، يجعل هذا المكان نقطة اتصال دائمة بين الأرض والسماء.

ولهذا لا يكون مستغرباً أن يكمل الإمام عليه السلام: «فليس من ملك مقرب ولا نبيّ مرسل إلا وهو يسأل الله أن يزور الحسين». هنا تنتقل من وصف المكان إلى بيان شوق الملائكة الأعلى إليه. فالزيارة، التي نتصوّرها فعلاً إنسانياً، تتحوّل إلى مطلبٍ للملائكة والأنبياء. لماذا؟ لأنّ الإمام الحسين (عليه السلام) يمثّل قَمّة الطاعة والفداء، والاقتراب من موضعه هو اقتراب من هذا المعنى الكامل للعبودية.





إنّ الملائكة، وهم عباد لا يعصون الله سبحانه وتعالى، يطلبون الإذن لزيارة هذا المقام، لأنّهم يحتاجون إلى عبادةٍ إضافية، بل لأنّهم يتشرّفون بالقرب من موضعٍ تجلّت فيه الحقيقة الإلهية بأوضح صورها. وكذلك الأنبياء، الذين هم صفوة الخلق، يرون في زيارة الإمام الحسين عليه السلام امتدادًا لمسيرتهم الرسالية، لأنّ نهضته كانت حفظًا لجوهر دعوتهم.

ثمّ تختم الرواية بالمشهد الحركي: «ففوج يهبط وفوج يصعد». إنّها صورة دائمة، لا تنقطع. حركة مستمرة من الملائكة: نزولٌ من السماء إلى هذا المقام، وصعودٌ منه إلى السماء.

وهذا التصوير يكشف عن أنّ كربلاء ليست نقطة ساكنة، بل مركز في الكون، تتردّد فيه حركة الغيب بلا انقطاع.

وهنا تتكامل الصورة:

- أرض محدّدة، لكنّها روضة من الجنّة.
- موضع في الدنيا، لكنّه معراج إلى السماء.
- مكان يزوره البشر، لكن تتمنّى زيارته الملائكة والأنبياء.
- سكون ظاهري، لكنّه في الحقيقة حركة دائبة بين عالمين.





إنّ هذه الرواية تريد أن تُعيد تشكيل وعينا بالمكان الحسيني: فليس
القصْد أن نراه مجرّد مزار، بل أن ندرك أنّنا حين نقف هناك، فإنّنا
نقف في نقطة التقاءٍ كونية، حيث تتجاوز الرحمة الإلهية مع التضحية
الحسينية، وحيث يُفتح للإنسان بابٌ ليصعد - بروحه ومعرفته - في ذلك
المعراج الذي لم يُغلق منذ يوم عاشوراء.





الحديث الخامس:

عن أبي جعفر (ع) قال: {مُرّوا شيعتنا بزيارة قبر الحسين عليه السلام فإنّ إتيانه يزيد في الرزق، ويمدّ في العمر ويدفع مدافع السوء، وإتيانه مفترض على كل مؤمن يقرّ له بالإمامة من الله}.

هذه الرواية تنتقل بزيارة الإمام الحسين (عليه السلام) من إطارها الشعائري إلى نظام متكامل من الأثر في حياة الإنسان؛ فهي لا تتحدّث عن ثوابٍ أخرويٍّ فحسب، بل تكشف عن امتداد تأثير هذه الزيارة في الرزق، والعمر، ودفع البلاء، بل وفي صميم الالتزام العقدي.

يبدأ النصّ بصيغة لافتة: «مُرّوا شيعتنا...». هذه ليست مجرد نصيحة، بل توجيه رساليّ صادر عن الإمام (عليه السلام)، وكأنّ الزيارة ليست خياراً ثانوياً، بل جزءاً من بناء الهوية الشيعية نفسها. فالإمام صلوات الله وسلامه عليه لا يكتفي ببيان فضلها، بل يجعلها ممّا ينبغي أن يؤمّر به ويدعى إليه، لأنّها تؤدّي وظيفة تتجاوز حدود الفرد إلى حفظ الخطّ والانتماء.

ثمّ تأتي الآثار الثلاثة التي قد تبدو للوهلة الأولى دنيوية:
«يزيد في الرزق، ويمدّ في العمر، ويدفع مدافع السوء».
لكنّ هذه الآثار ليست منفصلة عن البعد الروحي، بل هي نتيجة له.





زيادة الرزق هنا لا تعني فقط التوسعة المادّية، وإن كانت تشملها، بل تشير إلى بركةٍ تُلقى في حياة الإنسان، فيفتح الله له أبوابًا لم تكن في الحسبان. فالارتباط بالإمام الحسين (عليه السلام) وهو عنوان العطاء الإلهي في أعلى مراتبه يجعل الإنسان داخل دائرة الفيض، لا على هامشها.

وأما امتداد العمر، فليس بالضرورة أن يُفهم دائمًا بالكمّ الزمني فقط، بل قد يكون امتدادًا في القيمة والبركة. كم من إنسانٍ عاش قليلًا لكن أثره امتدّ طويلًا، وكم من عمرٍ مديدٍ بلا أثر. زيارة الإمام الحسين عليه السلام، بما تُحدثه من تحوّل في الوعي والاتجاه، تمنح العمر معنى، فيتحوّل إلى حياةٍ ممتدّة في الأثر والذكر والبركة.

وأما دفع مدافع السوء، فهو من أعمق الآثار؛ إذ يشير إلى نوعٍ من الحماية الغيبية. “مدافع السوء” توحى بالأحداث التي تندفع نحو الإنسان من حيث لا يشعر: بلاء، مصائب، انحرافات، أو حتى لحظات سقوط.

فالزيارة، إذا اقترنت بالمعرفة والارتباط، تُنشئ حول الإنسان سياقًا من العناية، لا يمنع الابتلاء مطلقًا، ولكن يدفع كثيرًا من شروره، ويخفّف من حدّته، ويهدي الإنسان إلى حسن التعامل معه.





ثم تبلغ الرواية ذروتها في قولها: «وإتيانه مفترض على كل مؤمن يقرّ له بالإمامة من الله».

وهنا ينبغي التوقف بدقّة، لأنّ “الافتراض” في لسان الروايات لا يُفهم دائماً بمعنى الوجوب الفقهي الصريح، بل قد يدلّ على اللزوم العقديّ والالتزام العمليّ. أي أنّ من يعتقد بإمامة الحسين (عليه السلام)، فإنّ مقتضى هذا الاعتقاد أن يتّجه إليه، ويزوره، ويجدّد عهده به.

فالقضية ليست: هل الزيارة مستحبة أو واجبة بالمعنى الفقهي فحسب؟ بل: هل يمكن لإنسانٍ يعتقد بإمامة الحسين عليه السلام أن يبقى بعيداً عنه، لا يزوره، ولا يتفاعل مع قضيتته؟

من هنا نفهم أنّ الزيارة تصبح ترجمةً حيّة للإيمان بالإمامة. فمن أقرّ له بالإمامة صلوات الله وسلامه عليه من الله، فإنّ هذا الإقرار يطلب تجلّيه في الفعل، وأبرز تجلّياته هو الحضور عند قبره، والانخراط في خطّه.

وعليه، فالرواية ترسم لنا صورةً متكاملة:

- الزيارة توجيةً رساليّ ينبغي أن يُحافظ عليه.
- وهي سببٌ لفيضٍ دينويّ: رزقاً، وعمراً، ودفْعاً للبلاء.
- وهي في عمقها التزامٌ عقديّ، يعبر عن صدق الانتماء للإمام.





إنَّ الإمام الحسين (عليه السلام) في هذا النصِّ ليس بابًا للثواب فقط، بل هو محور انتظام حياة الإنسان: من رزقه، إلى عمره، إلى سلامته، إلى عقيدته. فمن دخل هذا المحور بصدق، لم يخرج منه إلا وقد تغيّرت معادلة حياته، وصار في مدارٍ تُدار فيه أموره بعنايةٍ تختلف عما كانت عليه قبل أن يتّصل بذلك النور.





الحديث السادس:

قال أبو عبد الله (ع): (من زار قبر الحسين عليه السلام جعل ذنوبه جسراً على باب داره ثم عبرها كما يخلف أحدكم الجسر ورائه إذا عبر).

هذه الرواية من أبلغ النصوص تصويراً لمعنى التحول بعد الزيارة، إذ لا تكفي ببيان المغفرة كمفهوم ذهني، بل تجسدها في مشهد حي يكاد يُرى بالعين: «جعل ذنوبه جسراً على باب داره ثم عبرها...».

نحن هنا أمام صورة رمزية مركبة، تتداخل فيها الحركة مع المعنى، والزمن مع المصير.

حين يقول الإمام (عليه السلام): «جعل ذنوبه جسراً»، فإنّ الذنوب – التي هي في العادة أثقال تُقيّد الإنسان وتمنعه من التقدّم – تتحوّل إلى شيء يُعبر عليه. هذه مفارقة عميقة: ما كان سبباً للسقوط يصبح وسيلة للنجاة. وليس المعنى أنّ الذنب بذاته صار محموداً، بل أنّ الزيارة أحدثت في الإنسان انقلاباً في موقع الذنب من حياته؛ فلم يعد قيداً يجرّه إلى الخلف، بل صار تجربةً تجاوزها، وعلامةً على مرحلة انتهت.





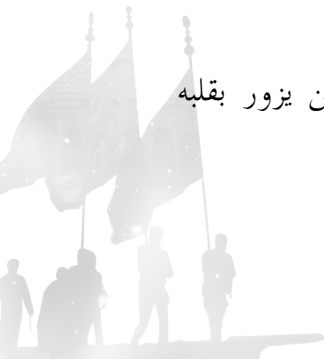
ثم يحدّد موضع هذا الجسر: «على باب داره». وهذا التحديد دقيق للغاية؛ لأنّ “باب الدار” هو الحدّ الفاصل بين الداخل والخارج، بين الماضي والمستقبل. وكأنّ الذنوب كلّها قد جُمعت عند عتبة الانتقال، لا داخل الحياة الجديدة. فالزائر، بعد عودته، يقف عند هذا الباب، فيجد ماضيه متراكماً هناك، لكنّه لا يعود إليه، بل يعبره.

وهنا تأتي الذروة: «ثمّ عبرها كما يخلّف أحدكم الجسر وراءه إذا عبر».

هذا التشبيه يكشف عن معنى الحسم؛ فليس العبور هنا تردّداً أو التفتّافاً إلى الوراء، بل هو قطعٌ نهائيّ. الإنسان حين يعبر جسراً لا يحمل الجسر معه، ولا يعود ليقيم عليه، بل يتركه خلفه ويمضي. كذلك الزائر الحقيقيّ: لا يحمل ذنوبه معه بعد الزيارة، ولا يبقى أسيراً لها، بل يتجاوزها ويدخل في مرحلةٍ أخرى.

لكنّ هذا كلّّه لا يفهم على أنّه إسقاطٌ للتكليف أو ترخيصٌ في المعصية، بل هو مشروط كما في سائر الروايات بـ الزيارة الواعية المرتبطة بالمعرفة والولاية.

فهذه الصورة لا تُعطى لمن يزور بجسده فقط، بل لمن يزور بقلبه وعقله، ويتحوّل فعلاً في داخله.





إنّ الرواية لا تتحدّث عن مغفرةٍ حسابيةٍ فحسب، بل عن إعادة تموضع الإنسان بالنسبة لماضيهِ. فبدل أن يكون الماضي عبئًا يسحبه، يصبح مرحلةً مطويةً خلفه. وهذا هو جوهر التوبة الحقيقية، لكن هنا تأتي زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) كعاملٍ مُعجِّل ومُعمِّق لهذا التحوّل، لأنّها تربط الإنسان بمصدرٍ من أصفى مصادر النور والهداية.

وبهذا، فإنّ الإمام الحسين (عليه السلام) لا يُقدّم في هذا النصّ كمن يمحو الذنوب فقط، بل كمن يُخرج الإنسان من أسرها. فالفرق كبير بين أن تُغفر لك ذنوبك، وبين أن تتحرّر من سلطانها. وهذه الرواية تشير إلى المرتبة الثانية: مرتبة العبور، لا مجرد المحو.

إنّها دعوة ضمنيّة لأن تكون الزيارة بدايةً لا نهاية؛ أن تكون جسرًا نعبّر به من حياةٍ مثقّلةٍ بالماضي إلى حياةٍ مفتوحةٍ على الأمل، حيث يمضي الإنسان وقد ترك وراءه ما كان يقيّده، واتّجه نحو أفقٍ جديدٍ في ظلّ الإمام الحسين (عليه السلام)، الذي جعل من دمه طريقًا لعبور كلّ من أراد أن ينجو.





الحديث السابع:

قال الإمام الصادق (ع): {من أتى الحسين عليه السلام عارفاً بحقه كتبه الله عزّ وجل من أعلى عليين}.

هذه الرواية، على قصر ألفاظها، تحمل مضموناً بالغ العمق، لأنها تربط بين فعل الزيارة وأعلى مراتب المصير الأخروي: «من أعلى عليين». فهي لا تتحدّث عن ثوابٍ عارض، بل عن تثبيت موقع الإنسان في سلّم القرب الإلهي.

حين يقول الإمام (عليه السلام): «من أتى الحسين عارفاً بحقه»، فإنّ الشرط يتكرّر بوصفه الركيزة التي يدور عليها كلّ هذا الفضل. فـ“الإتيان” ليس مجرد وصولٍ جسديّ، بل هو حركة وعي والتزام. و“معرفة الحقّ” هنا تعني إدراك أنّ الإمام الحسين (عليه السلام) إمامٌ منصوب من الله سبحانه وتعالى، وأنّ نهضته كانت تجسيداً للحقّ الإلهي في مواجهة الانحراف، وأنّ الارتباط به هو ارتباطٌ بهذا الحقّ نفسه. فكلّما تعمّقت هذه المعرفة، صار الإتيان إليه أصدق، وصار الأثر أعظم.

ثمّ تأتي النتيجة: «كتبه الله عزّ وجل من أعلى عليين».

وهنا ينبغي التوقّف عند هذا التعبير القرآني العميق: عليّون.

في اللسان القرآني، “عليّون” هو أعلى سجلّ يُكتب فيه مقام المقرّبين، وهو تعبير عن الذروة في القرب والرفعة. ليس مجرد مكانٍ في الجنّة، بل مرتبة من الصفاء والعلوّ، حيث تُدوّن أسماء الذين بلغوا درجاتٍ سامية في الطاعة والصدق.



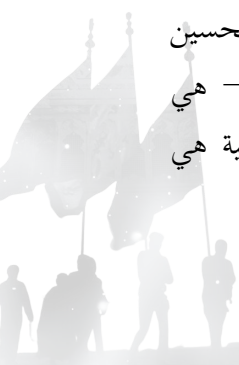
فالكتابة في “أعلى عليّين” تعني أنّ هذا الإنسان لم يُدرج في زمرة الناجين فقط، بل في طبقة المقرّبين، الذين ارتفعت أرواحهم حتى صارت في أعلى درجات القبول.

لكن لماذا يُعطى هذا المقام لزائر الإمام الحسين (عليه السلام)؟

الجواب يكمن في طبيعة الإمام الحسين عليه السلام نفسه. فالإمام الحسين عليه السلام لم يكن مجرد إمام يُطاع، بل كان ذروة التجلّي العملي للإخلاص والتضحية؛ قدّم كلّ شيء في سبيل الله، حتى صار معياراً يُقاس به صدق الانتماء إلى الحقّ. فمن أتى إليه عارفاً بحقّه، فكأنّه أعلن انتماءه إلى هذا الخطّ في أعلى درجاته، لا قولاً فحسب، بل موقفاً وولاءاً.

وعندئذٍ، فإنّ هذا الانتماء لا يبقى بلا أثر، بل يُترجم في سجلّ الوجود: يُكتب صاحبه في “أعلى عليّين”، لأنّه ارتبط بمن هو في قمّة القرب. ومن زاوية أعمق، يمكن فهم هذه الرواية على أنّها بيانٌ لحقيقة:

أنّ الطريق إلى أعلى عليّين يمرّ عبر الإمام الحسين (عليه السلام)، لا بمعنى الوساطة الشكلية، بل بمعنى أنّ القيم التي جسدها الإمام الحسين عليه السلام — من الإخلاص، والصبر، والصدق، والتضحية — هي نفسها القيم التي ترفع الإنسان إلى تلك المرتبة. فالزيارة الواعية هي إعلان الدخول في هذا المسار.





وعليه، فالرواية لا تمنح وعدًا مجردًا، بل ترسم معادلة واضحة:

- معرفة حقيقية بالإمام الحسين عليه السلام،
- ارتباط صادق به،
- فيثمر ذلك تسجيلًا في أعلى مراتب القرب.

إنّها دعوة لأن لا تكون الزيارة مجرد عادة، بل سُلّمًا للارتقاء؛ لأنّ من وقف عند الإمام الحسين عليه السلام بوعي، لم يبقَ في مستواه السابق، بل بدأ صعودًا روحيًا، يُتَوَجَّح في ميزان الله بأن يُكتب اسمه في ذلك السجلّ العلويّ الذي لا يُكتب فيه إلا من بلغوا ذروة الصدق في السير إلى الله سبحانه وتعالى.





الحديث الثامن:

عن الريّان بن شبيب، عن الرضا (ع) في حديث أنّه قال له: {يا ابن شبيب إن سرّك أن تلقى الله ولا ذنب عليك فزر الحسين، يا ابن شبيب إن سرّك أن تسكن الغرف المبنية في الجنة مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فالعن قتلة الحسين، يا ابن شبيب إن سرّك أن يكون لك من الثواب مثل ما لمن استشهد مع الحسين عليه السلام فقال متى ذكرتهم: يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً}.

حين يلتفت الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) إلى ابن شبيب، فإننا لا نكون أمام نصيحة عابرة، بل أمام خطابٍ يُراد له أن يعيد تشكيل الإنسان من داخله، ويأخذه في رحلةٍ تبدأ من تطهير الروح، ولا تنتهي إلا عند أبواب القرب الإلهي.

إنّه لا يحدثه عن عملٍ جزئيّ، بل عن طريقٍ كامل، تتدرّج فيه النفس من حالٍ إلى حال، حتى تبلغ مقاماً لم تكن تتصوّره لنفسها.

يبدأ الإمام صلوات الله عليه بكلمةٍ تبدو يسيرة، لكنها في حقيقتها تهزّ كيان الإنسان: «يا ابن شبيب إن سرّك أن تلقى الله ولا ذنب عليك فزر الحسين».





هنا لا يَعِدُ بمغفرةٍ محدودة، بل يرسم صورة اللقاء مع الله سبحانه وتعالى وقد تجرّد الإنسان من أثقاله كلّها. لكنّ هذا التجرّد لا يأتي من فعلٍ ظاهريٍّ، بل من عبورٍ داخليٍّ؛ فزيارة الإمام الحسين بن علي (عليه السلام) ليست حركة جسدٍ نحو قبر الشريف، بل رجوع روحٍ إلى حقيقتها، وانكسار قلبٍ عند مدرسةٍ دفعت كلّ شيءٍ في سبيل الله. هناك، عند ذلك الضريح، لا يبقى الإنسان كما كان؛ بل يشعر أنّ شيئاً من داخله يُغسل، وأنّ ماضيه الثقيل بدأ يتفكّك، وكأنّه يُهيّأ للوقوف بين يدي الله خفيفاً، نقيّاً، كما لو أنّه وُلد من جديد.

ثمّ لا يتركه الإمام صلوات الله وسلامه عليه عند حدود التطهير، بل ينقله إلى مستوى أعمق، حيث لا يكفي أن يكون الإنسان طاهراً، بل لا بدّ أن يكون صاحب موقف. فيقول له: «وإن سرّك أن تسكن الغرف المبنية في الجنة مع النبي... فالعن قتلة الحسين». هنا تتغيّر زاوية النظر؛ فالقرب من النبي محمد (صلى الله عليه وآله) لا يُنال بالمحبّة المجردة، بل بالانحياز الواضح. إنّ اللعن في هذا السياق ليس كلمة تُقال، بل هو موقفٌ يُتخذ؛ إعلان براءة من خطّ الظلم، ورفضٌ واعٍ لكلّ ما واجه الإمام الحسين في كربلاء. وكأنّ الإمام يريد أن يقول: لا يمكن أن تسكن مع النبي صلى الله عليه وآله، وأنت متردّد في تحديد موقعك من المعركة التي امتدّت من رسالته إلى نهضة الإمام الحسين عليه السلام. فإمّا أن تكون مع هذا الخطّ بكلّ وضوح، أو تبقى بعيداً عن تلك المنازل العالية.



ثمّ يبلغ الخطاب ذروته، حين يفتح بابًا كان يبدو مغلقًا إلى الأبد. يقول: «وإن سرك أن يكون لك من الثواب مثل ما لمن استشهد مع الإمام الحسين عليه السلام... فقل متى ذكرتهم: يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزًا عظيمًا». هنا يتجاوز الإمام عليه السلام حدود الزمن؛ فالشهادة مع الإمام الحسين عليه السلام كانت لحظةً وانتهت، لكن روحها لم تنته. إنّ هذا التمنيّ، إذا خرج من قلب صادق، ليس مجرد حسرة، بل هو إعلان استعداد، وكشف عن انتماء حقيقي. حين يقول الإنسان هذه الكلمات بصدق، فإنّه يضع نفسه في ذلك الصفّ، لا بالجسد، بل بالروح والموقف. وكأنّ كربلاء تعود لتفتح أبوابها، لا لمن حضرها يوم عاشوراء فقط، بل لكلّ من حمل في داخله الاستعداد لأن يكون هناك لو أُتيح له ذلك.

وهكذا، تتكامل الصورة التي يرسمها الإمام الرضا (عليه السلام): يبدأ الإنسان بالزيارة، فيتطهّر، ثمّ يحدّد موقفه، فينحاز، ثم يرتقي ببنّيته، فيشارك. ومن هذا التدرّج، لا يبقى الإمام الحسين عليه السلام حادثهً في التاريخ، بل يتحوّل إلى طريق حيّ، يدخل فيه الإنسان خطوةً خطوة، حتى يجد نفسه وقد صار جزءًا من تلك الحقيقة الكبرى التي انطلقت من كربلاء، وما زالت تمتدّ في كلّ زمان.





الحديث التاسع:

عن بشير الدهان، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: {إن الرجل ليخرج إلى قبر الحسين (عليه السلام)، فله إذا خرج من أهله بأول خطوة مغفرة من ذنوبه، ثم لم يزل يقدر بكل خطوة حتى يأتيه، فإذا أتاه نجاه الله فقال: عبدي سلمي أعطك، ادعني أجبك، اطلب مني أعطك، سلمي حاجتك أفضيها لك، قال: وقال أبو عبد الله (عليه السلام): وحق على الله أن يعطي ما بذل.

هذه الرواية تفتح لنا باباً واسعاً لفهم رحلة زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) لا كنقطة وصول، بل كمسار متكامل يبدأ من اللحظة الأولى للخروج من البيت، ويمتد حتى لحظة الوقوف عند الضريح، بل ويتجاوزها إلى مقام المناجاة والاستجابة.

حين يقول الإمام الصادق (عليه السلام): «إنَّ الرجل ليخرج إلى قبر الحسين...»، فإنَّه يلفت نظرنا إلى أنَّ الزيارة لا تبدأ عند القبر الشريف، بل تبدأ من النية، من تلك اللحظة التي يقرّر فيها الإنسان أن يتوجّه إلى الإمام الحسين عليه السلام. فبمجرّد أن يخطو الخطوة الأولى خارج داره، يحدث التحوّل: «بأول خطوة مغفرة من ذنوبه». وكأنَّ الطريق نفسه يتحوّل إلى طريق تطهير، لا يحتاج الإنسان فيه إلى الانتظار حتى يصل، بل يبدأ الغفران معه منذ البداية.



ثمّ يستمرّ هذا المسار التصاعدي: «ثم لم يزل يقُدّس بكل خطوة حتى يأتيه».

“يُقَدّس” هنا تعبير عميق؛ لا يعني فقط المغفرة، بل التنقية والترقية التدريجية. مع كلّ خطوة، ينفصل الإنسان أكثر عن أثقاله، ويقترب أكثر من حالة الصفاء. كأنّ المسافة التي يقطعها بجسده، يقطعها في داخله أيضاً، فيرتقي من حالٍ إلى حال، حتى يصل وقد تغيّر عمّا كان عليه حين خرج. فإذا بلغ هذا المقام، تأتي اللحظة التي تمثّل ذروة الرحلة: «فإذا أتاه نجاه الله...».

هنا يتحوّل المشهد من حركة الإنسان إلى إقبال الله عليه. لم يعد الزائر هو الطالب فقط، بل صار مخاطباً من الله نفسه: «عبيد سلني أعطك، ادعني أجبك، اطلب مني أعطك، سلني حاجتك أقضها لك».

إنّ عرضَ إلهيّ مفتوح، تكرار الأوامر فيه (سلني، ادعني، اطلب) ليس للتأكيد اللفظي فقط، بل لبيان سعة الباب، وكأنّ الله يريد أن يزيل عن العبد كلّ تردّد، ويقول له: لا تتردّد، أنت الآن في موضع الإجابة، فاطلب ما شئت.

وهذا يكشف عن حقيقة دقيقة: أنّ الوقوف عند الإمام الحسين (عليه السلام)، بعد هذه الرحلة من التزكية، يجعل الإنسان في أعلى حالات القرب القابل للاستجابة. فالدعاء هنا ليس كأَيّ دعاء، بل هو دعاءٌ خرج من قلبٍ قد تهيّأ، وتطهّر، وارتبط بمصدرٍ عظيم من القرب الإلهي.



ثمّ يختم الإمام (عليه السلام) بقوله: «وَحَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُعْطِيَ مَا بَذَلَ».

وهذه العبارة تُشعر بعهدٍ إلهيّ قائم على العدل والفضل معًا. فـ“ما بَذَلَ” يشمل:

- ما بذله الزائر من جهدٍ في الطريق
- وما بذله من وقتٍ
- وما تحمّله من مشقّة
- بل وما بذله من صدق النية والتوجّه

فهذا البذل لا يضيع، بل يُقابَل بعطاءٍ إلهيّ مناسب له، بل أوسع منه.

وهكذا، ترسم الرواية مشهدًا متكاملًا:

يخرج الإنسان من بيته مثقلًا،

فَتُغْفَر ذنوبه مع أول خطوة،

ثمّ يتطهّر تدريجيًّا في طريقه،

حتى يصل وقد صار في حالٍ أخرى،

ثمّ يُفتح له باب المناجاة بلا حجاب،

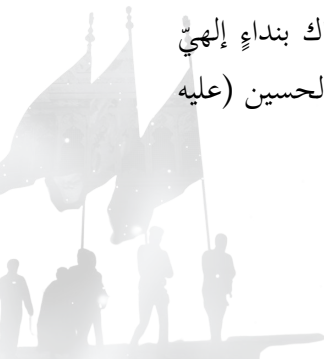
ويُعْطَى على قدر ما بذَلَ... بل بما يفوقه.

إنّها ليست رحلة إلى قبر، بل رحلة من الأرض إلى القرب، يسير فيها

الإنسان بجسده، لكنّ روحه هي التي تصل، وتُستقبل هناك بنداءٍ إلهيّ

لم يُفتح لكلّ أحد، بل لمن صدق في المسير إلى الإمام الحسين (عليه

السلام)





الحديث العاشر:

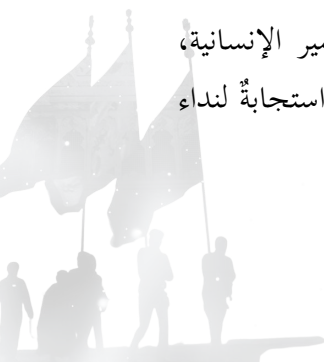
عن هارون بن خارجة، عن أبي عبد الله (عليه السلام)، قال: {قال الحسين (عليه السلام):

انا قتيل العبرة قتلت مكروبا وحقيق علي ان لا يأتيني مكروب قط الا رده الله واقبله إلى أهله مسرورا}.

هذه الكلمة المروية عن الإمام جعفر الصادق صلوات الله وسلامه عليه عن جدّه الإمام الحسين بن علي (عليها السلام) ليست مجرد وصفٍ لحالٍ عاطفي، بل إعلانٌ عن حقيقة رسالية ممتدّة، تجعل من الإمام الحسين عليه السلام ملاذًا لكلّ قلبٍ مثقل، ومن دمه طريقًا لتفريج الكروب.

حين يقول: «أنا قتيل العبرة»، فإنّ التعبير يتجاوز المعنى الظاهري للبكاء. فـ"العبرة" ليست دمعَةً تسيل فحسب، بل حالة وجدانية عميقة، تختلط فيها المعرفة بالحزن، والولاء بالانكسار. كأنّ الإمام الحسين (عليه السلام) يقول:

إنّ قضيتي ليست حدثًا يُنسى، بل جرحٌ مفتوح في ضمير الإنسانية، وكلّ دمعَةٍ تُذرف عليّ إنما هي تفاعلٌ مع هذا الجرح، واستجابةٌ لنداء الحقّ الذي قُتل مظلومًا.





ثم يتابع: «قُتلت مكروبًا».

وهنا ينتقل من وصف الأثر إلى وصف الحال. فالكرب الذي عاشه الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء لم يكن ألمًا شخصيًا فقط، بل كان كرب الرسالة وهي تُحاصر، وكرب الحقّ وهو يُذبح أمام صمت العالم. لقد حمل همّ الأمة، وهمّ الدين، وهمّ الانحراف الذي أراد أن يتلع الحقيقة، حتى بلغ هذا الكرب ذروته في تلك اللحظة التي وقف فيها وحيدًا، لكنّه لم يتراجع.

ومن هذا العمق في الكرب، تتولّد تلك القاعدة العجيبة: «وَحَقِيقُ عَلِيٍّ أَنْ لَا يَأْتِينِي مَكْرُوبٌ قَطُّ إِلَّا رَدَّهَ اللَّهُ وَأَقْلَبَهُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا».

هذه ليست مجرد وعدٍ عاطفي، بل سنّة من سنن الرحمة المرتبطة بالإمام الحسين صلوات الله وسلامه عليه. فكما تحمّل هو الكرب الأعظم، صار بابًا لتفريج كرب الآخرين. وكأنّ الله تعالى جعل من مصيبتهم جسرًا لعبور الناس من أحزانهم إلى الفرج.

لكن ينبغي أن يُفهم هذا المعنى بدقّة:

ليس المقصود مجرد الحضور الجسدي أو الطلب اللفظي، بل الإتيان إلى الإمام الحسين عليه السلام بقلبٍ منكسر، مرتبط به، واعٍ لمعناه. فحين يأتيه المكروب بهذه الحالة، فإنّه لا يبقى كما هو؛ لأنّه يدخل في مجال رحمةٍ خاصّة، تتغيّر فيه المعادلات.



قد يكون الفرج:

- بتبدّل الظروف،
 - أو بانكشاف طريقٍ لم يكن يُرى،
 - أو وهو الأعمق بتحوّل داخلي يجعل الإنسان يرى البلاء بعينٍ أخرى، فينقلب حزنه سكينه، وضيئه سعة.
- ولهذا يقول: «أقلبه إلى أهله مسرورًا».

فالرجوع ليس رجوعًا عاديًا، بل عودةً مختلفة؛ يعود الإنسان وقد خفّ حمّله، وتبدّل حاله، وكأَنّه خرج من دائرة الكرب إلى أفقٍ من الطمأنينة.

إنّ الإمام الحسين (عليه السلام) في هذه الرواية لا يُقدّم فقط كشهيد يُكى عليه، بل كملجأٍ روحيٍّ حيٍّ، تستجيب عنده القلوب المنكسرة، وتجد فيه الأرواح المثقلة طريقها إلى الانفراج. فكما كان قتله مأساةً عظيمة، صار بإرادة الله باب رحمةٍ مفتوحًا، لا يُغلق في وجه من قصده بصدق.

وهكذا، يتحوّل البكاء عليه من مجرد حزن إلى صلةٍ حيّة، يتحوّل معها الكرب إلى رجاء، والدمعة إلى بداية فرج، لأنّها متّصلة بقلبٍ ذاق أعظم كرب، فصار أفدر بابٍ لتفريج كرب الآخرين





الحديث الحادي عشر:

عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر وجعفر بن محمد (سلام الله عليهما) يقولان: { إن الله عوّض الحسين عليه السلام من قتله أنّ الإمامة من ذريته والشفاء في تربته وإجابة الدعاء عند قبره، ولا تعدّ أيام زائريه جائئًا وراجعًا من عمره }.

هذه الرواية التي ينقلها محمد بن مسلم عن الإمامين محمد الباقر وجعفر الصادق (عليهما السلام) تضعنا أمام قانون إلهي في التعويض؛ تعويض لا يُقاس بميزان البشر، بل بميزان السماء، حيث تتحوّل المأساة العظمى إلى ينابيع دائمة من الفيض والرحمة.

حين يقولان: «إنّ الله عوّض الحسين من قتله...»، فليس المقصود تعويضًا شخصيًا، لأنّ الإمام الحسين بن علي (عليها السلام) بلغ من الكمال ما لا يحتاج معه إلى جبر نقص. بل هو تعويضٌ رساليّ كونيّ، أراد الله به أن يجعل من دم الإمام الحسين عليه السلام مصدرًا لامتداد الهداية في الأرض، بحيث لا تكون كربلاء نهاية، بل بداية.

أوّل وجوه هذا التعويض: «أنّ الإمامة من ذريته».

وهنا يظهر البعد الاستمراري؛ فمحاولة إنهاء خطّ الإمام الحسين عليه السلام بقتله تحوّلت إلى عكسها تمامًا، إذ صار الامتداد القياديّ للأمة في ذريته. وكأنّ الدم الذي أريق في كربلاء لم يُطفئ النور، بل زاده إشعاعًا، فاستمرّت الإمامة من نسله لتكون شاهدًا دائمًا على أنّ الحقّ لا يُقضى عليه بالقتل.



ثم يأتي الوجه الثاني: «والشفاء في تربته».

وهذا تعبير يحمل بُعدين: ظاهرًا وباطنًا.

في ظاهره، ما عُرف عبر التاريخ من الاستشفاء بتربة الإمام الحسين عليه السلام بإذن الله سبحانه وتعالى، لكن في عمقه هو أوسع من ذلك؛ فهذه التربة التي اختلطت بدم التضحية صارت موضع بركة خاصة، وكأنّها تحمل أثر ذلك الحدث العظيم، فتكون سببًا للشفاء، لا لأنّها مادّة بحدّ ذاتها، بل لأنّها متّصلة بمصدرٍ من أعظم مصادر القرب الإلهي.

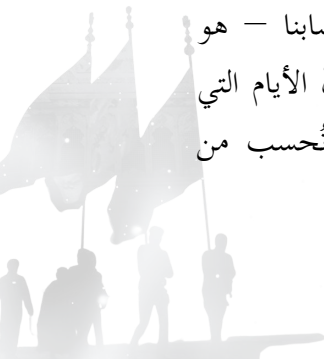
ثم يرتقي النصّ إلى بعدٍ ثالث: «وإجابة الدعاء عند قبره».

وهنا تتجلّى كربلاء بوصفها موضع استجابة. فالوقوف عند قبر الإمام الحسين (عليه السلام) ليس مجرد حضور، بل هو دخول في فضاءٍ تتكثّف فيه الرحمة، وتُفتح فيه أبواب الإجابة. لأنّ هذا الموضع شهد أعظم إخلاصٍ وأصدق تضحية، فصار منسوبًا إلى الإجابة، وكأنّ الدعاء هناك يمرّ عبر قناةٍ مفتوحة إلى السماء.

وأما الوجه الرابع، فهو من أدقّ وأعمق ما في الرواية:

«ولا تُعدّ أيام زائريه جائيًا وراجعًا من عمره».

هذه العبارة تُعيد تعريف الزمن نفسه. فالعمر - في حسابنا - هو مجموع الأيام التي يعيشها الإنسان، لكن الرواية تقول: إنّ الأيام التي يقضيها في طريق زيارة الإمام الحسين عليه السلام لا تُحسب من عمره. وكأنّها مستثناة من الفناء الزمنيّ.





وهذا يمكن فهمه على مستويين:

- إما أنّها لا تُنقص من العمر المقدّر، بل تكون زيادةً في البركة،
- أو أنّها من شدّة قيمتها تُرفع من حساب الزمن العادي، فلا تُدرج ضمن الأيام التي تستهلك من رصيد الحياة.

وفي كلا الحالين، فإنّ الرسالة واضحة:

أنّ السير إلى الإمام الحسين عليه السلام ليس استهلاكاً للعمر، بل استثماراً فيه على نحوٍ خارج عن المألوف.

وهكذا، تتكامل وجوه التعويض الأربعة:

- استمرار الإمامة في ذريته يعني حفظ خطّ الهداية
- الشفاء في تربته يعني امتداد الرحمة في المادة
- إجابة الدعاء عند قبره يعن فتح باب السماء للناس
- خروج زمن الزائر من حساب العمر يعني تكريم المسير إليه

إنّها معادلة إلهية مذهشة:

قُتل الإمام الحسين (عليه السلام) مظلوماً،

فجعل الله من موضع قتله مركزاً للحياة الروحية،

ومن دمه سبباً لاستمرار النور،

ومن زيارته طريقاً يفيض بالبركة في الدنيا والآخرة.

وبهذا، لا تبقى كربلاء مأساةً تُبكي فقط، بل تتحوّل إلى نظام عطاءٍ

مفتوح، كلّ من دخل فيه بصدق، نال نصيباً من ذلك التعويض الذي

أراد الله أن يكون خالداً إلى يوم القيامة





الحديث الثاني عشر:

عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنه قال: { ما من أحد يوم القيامة إلا وهو يتمنى أنه زار الحسين بن علي (عليهما السلام) لما يرى لما يُصنع بزوار الحسين بن علي من كرامتهم على الله }.

هذه الرواية عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) تضعنا أمام مشهدٍ أخرويٍّ كاشف، لا يُراد به مجرّد الترغيب، بل إيقاظ الوعي قبل أن يأتي وقت الندم الذي لا يُجدي. يقول الإمام صلوات الله وسلامه عليه: «ما من أحدٍ يوم القيامة إلا وهو يتمنى أنه زار الحسين بن علي...».

هذه العبارة شاملة: «ما من أحد»، أي أنّ التمني لا يختصّ بطبقة دون أخرى، بل يعمّ الخلق حين تنكشف الحقائق، وتظهر القيم على حقيقتها، لا كما كانت تُرى في الدنيا. هناك، في ساحة القيامة، لا تبقى المقاييس الدنيوية هي الحاكمة، بل يُعاد ترتيب كلّ شيء وفق ميزان القرب من الله سبحانه وتعالى.

لكن لماذا يصل الجميع إلى هذا التمني؟

الجواب يأتي في تنمّة الحديث: «لما يرى لما يُصنع بزوار الحسين بن علي من كرامتهم على الله».





مشهد الكرامة الذي يُعرض أمام الخلائق. يرى الناس على اختلاف مراتبهم مقام زوّار الإمام الحسين بن علي (عليها السلام)، وكيف أنّهم يُعاملون بعنايةٍ خاصّة، وتكريمٍ استثنائي، فيدركون أنّ هناك عملاً كان متاحاً في الدنيا، لكنّهم لم يُدركوا قيمته كما ينبغي.

وهنا ينبغي أن نفهم:

إنّ هذا التَمَنّي ليس تَمَنّيّاً عابراً، بل هو تَمَنّي الحسرة؛ حين يرى الإنسان نتيجة عملٍ لم يقم به، وقد كان في متناوله. وكأنّ الرواية تريد أن تنقلنا إلى ذلك الموقف قبل أن نصل إليه، لتقول لنا: ما ستمنّاه هناك، اصنعه هنا.

إنّ “الكرامة على الله” التي ينالها الزائر ليست أمراً شكلياً، بل هي انعكاس لعلاقةٍ حقيقية نشأت في الدنيا:

• علاقة معرفة بالإمام الحسين عليه السلام.

• وارتباط بولايته

• وانخراط في خطّه

فالزائر لم يكن مجرّد عابرٍ إلى قبر الشريف، بل كان داخلياً في مدرسة، متأثراً بقضية، متحوّلاً في وعيه وسلوكه. وعند القيامة، تتجلّى هذه الحقيقة في صورة تكريمٍ إلهيٍّ ظاهر، يراه الجميع.





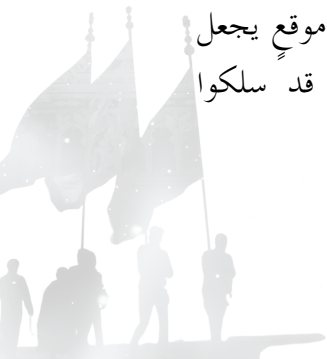
ومن زاوية أعمق، يمكن فهم الرواية على أنّها تكشف عن اختلاف في إدراك القيمة بين الدنيا والآخرة. ففي الدنيا، قد يُراحم الإنسان على أمورٍ كثيرة، ويغفل عن زيارة الإمام الحسين عليه السلام أو يؤجلها، ظنّاً أنّها عمل من جملة الأعمال.

لكن في الآخرة، حين تُرفع الحجب، يتبيّن أنّ هذا العمل كان يحمل وزناً يفوق كثيراً ممّا شغل به نفسه.

وهكذا، فإنّ الرواية لا تكتفي ببيان فضل الزيارة، بل تصنع مقارنة ضمنيّة:

- بين من زار وعرف، فنال الكرامة
 - ومن لم يفعل، فبقي يتمنّى
- إنّها دعوة صامتة، لكنّها عميقة الأثر:
- أن لا نؤجّل ما سيكون غداً موضع تمنّي عام،
وأن ندرك أنّ بعض الأعمال وإن بدت بسيطة في ظاهرها تحمل في باطنها مفاتيح لمراتب لا تُدرك إلا حين يُكشف الغطاء.

فالإمام الحسين (عليه السلام) في هذا النصّ ليس فقط باباً للشواب، بل ميزاناً تتجلّى عنده حقيقة الأعمال، حتى يصبح زوّاره في موقع يجعل الآخرين، يوم القيامة، ينظرون إليهم ويتمنّون لو كانوا قد سلكوا طريقهم





الحديث الثالث عشر:

عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: { من أراد أن يكون في جوار نبّيه، وجوار علي (ع) وفاطمة (ع) فلا يدع زيارة الحسين عليه السلام }.

هذه الرواية عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) تكشف بوضوح لافت أنّ زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) ليست عملاً معزولاً في منظومة الثواب، بل هي طريقٌ موصل إلى أعلى دوائر القرب، حيث جوار النبي المصطفى الأكرم (صلى الله عليه وآله)، وعلي بن أبي طالب أمير المؤمنين (عليه السلام)، والسيدة العظيمة فاطمة الزهراء (عليها السلام).

حين يقول الإمام صلوات الله عليه: «من أراد أن يكون في جوار نبّيه... فلا يدع زيارة الحسين»، فهو لا يقدّم مجرد فضيلة، بل يضع شرطاً وجودياً لهذا الجوار. فالقضية ليست رغبةً تُتمنى، بل طريقٌ يُسلك، ومن أهمّ معالم هذا الطريق: الارتباط بالإمام الحسين عليه السلام.

إنّ “الجوار” هنا ليس مجرد قربٍ مكانيّ، بل هو مقام روحيّ؛ أن يكون الإنسان في دائرة أولئك الذين اصطفاهم الله، وأن يعيش في أفقهم، ويتّصل بنورهم. وهذا المقام لا يُنال إلا لمن انسجم مع خطّهم، وتخلّق بقيمتهم، وسار في نهجهم.



وهنا تتجلى العلاقة العميقة:

فالإمام الحسين (عليه السلام) ليس منفصلاً عن هذا النور، بل هو امتداده الحيّ. إنّ تجلّي عمليّ لرسالة النبي المصطفى صلى الله عليه وآله، وامتداد لعدالة علي أمير المؤمنين صلوات الله عليه، ومرآة لنقاء فاطمة صلوات الله عليها. فمن ارتبط به بصدق، فإنّه في الحقيقة يرتبط بهم جميعاً.

ولهذا، فإنّ الإمام عليه السلام لم يقل: “فليزر الحسين” فقط، بل قال: «فلا يدع زيارة الحسين».

وهذا التعبير يحمل معنى المداومة وعدم التفريط؛ لأنّ الأمر ليس زيارةً واحدة تُؤدّى، بل علاقة تُحفظ، وعهد يُجدّد، ومسار يُلازم الإنسان.

ومن زاوية أعمق، يمكن فهم الرواية على أنّها تكشف عن وحدة الطريق:

فلا يمكن أن يطلب الإنسان جوار النبي صلى الله عليه وآله، وهو غافل عن الإمام الحسين عليه السلام، لأنّ الإمام الحسين عليه السلام هو الذي حفظ دين النبي بدمه.

ولا يمكن أن يطلب القرب من علي، وهو بعيد عن نهضة الإمام الحسين عليه السلام، لأنّ الإمام الحسين عليه السلام هو الامتداد العملي لخطّ علي أمير المؤمنين صلوات الله عليه.

ولا يمكن أن يرجو جوار السيدة العظيمة الزهراء فاطمة صلوات الله عليها، وهو غير متفاعل مع مصيبة ولدها، لأنّ قلبها معلق به.





إنّها شبكة واحدة من النور، لا تتجزأ.

وعليه، فزيارة الإمام الحسين (عليه السلام) في هذا النصّ ليست مجرد عملٍ يُثاب عليه، بل هي مفتاح انتماء؛ من خلالها يُثبت الإنسان موقعه من هذا الخطّ النورانيّ، ويؤكد أنّه لا يقف خارج هذا الامتداد، بل داخله.

إنّ من يواظب على هذه الزيارة، بوعيٍّ وصدق، لا يكون فقط زائرًا، بل يصبح من أهل هذا البيت عليهم السلام في المعنى الروحيّ، ومنسوبًا إلى دائرتهم، حتى إذا جاء يوم القيامة، لم يكن طلب الجوار أمنية بعيدة، بل كان نتيجة طبيعية لمسارٍ عاشه، وسار فيه، وثبت عليه.

وهكذا، تختصر الرواية الطريق:

تريد الجوار الأعلى؟

فلا تترك باب الإمام الحسين عليه السلام... فهو الباب الذي يُدخل إلى هناك.





الحديث الرابع عشر:

عن زرارة قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: { إِنَّ لَزَّوَارِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَضْلاً عَلَى النَّاسِ ». قلت وما فضلهم؟ قال: «يدخلون الجنة قبل الناس بأربعين عاماً وسائر الناس في الحساب».

هذه الرواية التي ينقلها زرارة عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) تُدخلنا إلى مشهدٍ من مشاهد يوم القيامة، حيث تتجلى فوارق الأعمال لا في ظاهرها، بل في حقيقتها ووزنها عند الله سبحانه وتعالى.

حين يقول الإمام عليه السلام: «إِنَّ لَزَّوَارِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ فَضْلاً عَلَى النَّاسِ»، فهو يقرّر أصلاً: أَنَّ هذه الفئة ليست كسائر الناس في ذلك اليوم، بل لها موقعٌ متميّز. لكنّ زرارة، بدقّة السائل الباحث، لا يكتفي بالإجمال، فيسأل: ما هذا الفضل؟

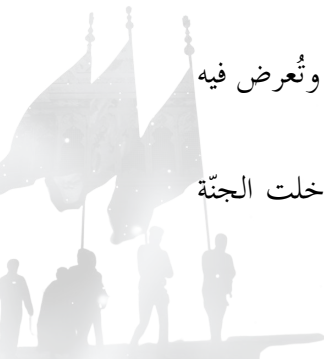
فيأتي الجواب كاشفاً:

«يدخلون الجنة قبل الناس بأربعين عاماً وسائر الناس في الحساب».

هنا ينكشف مشهدٌ حادّ المفارقة:

الناس منشغلون بالحساب، في موقفٍ تتكاثف فيه الأسئلة، وتُعرض فيه الأعمال، وتُوزن فيه التفاصيل الدقيقة...

وفي مقابل ذلك، هناك فئة قد تجاوزت هذه المرحلة، ودخلت الجنة قبل غيرها بمدّةٍ طويلة.





الحديث الرابع عشر:

عن زرارة قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: { إِنَّ لَزَّوَارِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَضْلاً عَلَى النَّاسِ ». قلت وما فضلهم؟ قال: «يدخلون الجنة قبل الناس بأربعين عاماً وسائر الناس في الحساب».

هذه الرواية التي ينقلها زرارة عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) تُدخلنا إلى مشهدٍ من مشاهد يوم القيامة، حيث تتجلى فوارق الأعمال لا في ظاهرها، بل في حقيقتها ووزنها عند الله سبحانه وتعالى.

حين يقول الإمام عليه السلام: «إِنَّ لَزَّوَارِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ فَضْلاً عَلَى النَّاسِ»، فهو يقرّر أصلاً: أَنَّ هذه الفئة ليست كسائر الناس في ذلك اليوم، بل لها موقعٌ متميّز. لكنّ زرارة، بدقّة السائل الباحث، لا يكتفي بالإجمال، فيسأل: ما هذا الفضل؟

فيأتي الجواب كاشفاً:

«يدخلون الجنة قبل الناس بأربعين عاماً وسائر الناس في الحساب».

هنا ينكشف مشهدٌ حادّ المفارقة:

الناس منشغلون بالحساب، في موقفٍ تتكاثف فيه الأسئلة، وتُعرض فيه الأعمال، وتُوزن فيه التفاصيل الدقيقة... وفي مقابل ذلك، هناك فئة قد تجاوزت هذه المرحلة، ودخلت الجنة قبل غيرها بمدّةٍ طويلة.



والتعبير بـ “أربعين عاماً” لا ينبغي أن يُقرأ كرقمٍ حسابيٍّ صرف، بل كدلالة على تقدّم زمنيٍّ واضح في المصير، وكأنّ هؤلاء قد أُعفوا من الانتظار الطويل الذي يمرّ به غيرهم. إنّهُ تقديمٌ في الدخول، وهو من أعظم صور الكرامة؛ لأنّ الانتظار في ذلك اليوم ليس كأَي انتظار، بل هو موقف ثقيل، تتمنّى فيه النفوس الخلاص.

لكن السؤال الأعظم: لماذا يُمنح زوّار الإمام الحسين بن علي (عليهما السلام) هذا الامتياز؟

الجواب لا يُفهم من هذه الرواية وحدها، بل من مجموع ما ورد في شأن الزيارة:

أنّها إذا اقترنت بالمعرفة والولاية ليست عملاً جزئياً، بل انخراط في خطّ الإمام الحسين عليه السلام، الذي هو خطّ الحقّ الخالص. فمن عاش هذا الارتباط، وتحوّل به، لم يعد في موقعٍ يحتاج إلى ذلك التفصيل الطويل في الحساب، لأنّ مساره كان واضحاً، وانتماءه كان صريحاً.

إنّ تقديمهم في الدخول هو، في الحقيقة، تجلٍّ لسبقهم في الدنيا؛ فكما سبقوا إلى الإمام الحسين عليه السلام، ولّبوا النداء، وارتبطوا به، يُقدّمون يوم القيامة، فيسبقون غيرهم إلى النتيجة.





ومن زاوية أخرى، يمكن أن نرى في هذه الرواية نوعاً من التعويض المعنوي؛

فكثير من زوّار الإمام الحسين عليه السلام عبر التاريخ تحمّلوا مشقّات، وخاطروا، وساروا في طرقٍ محفوفة بالمخاطر، وواجهوا تضيقاً أو حرماناً... فجاء هذا التقديم الأخرى ليكون صورةً من صور الوفاء الإلهي لهذا المسير.

وهكذا، فإنّ الرواية لا تتحدّث عن امتيازٍ بلا سبب، بل عن نتيجة لمسار:

مسار يبدأ بخطوة نحو الإمام الحسين عليه السلام،

ثم يتحوّل إلى ارتباط،

ثم إلى انتماء،

حتى إذا جاء يوم القيامة، ظهر هذا الانتماء في صورة تقديم في المصير.

إنّه مشهدٌ يريد الإمام (عليه السلام) أن ينقله إلينا الآن، ونحن في الدنيا، لنفهم أنّ بعض الأعمال التي قد نراها يسيرة، تحمل في طيّاتها مفاتيح لتجاوز أعظم المواقف وأشدّها، وأنّ من طرق باب الإمام الحسين عليه السلام بصدق، لا يقف طويلاً على أبواب الحساب.





الحديث الخامس عشر:

عن أبي عبد الله (ع) قال: { كَانَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ (ع) ذات يوم في حجر النبي (ص) يلاعبه ويضاحكه، فقالت عائشة: يا رسول الله ما أشدَّ إعجابك بهذا الصَّبِيِّ، فقال لها ويلك وكيف لا أحبه ولا أعجب به وهو ثمرة فؤادي وقرة عيني، أما أنَّ أمتي ستقتله فمن زاره بعد وفاته كتب الله له حجة من حججِي، قالت: يا رسول الله: حجة من حججك؟ قال: نعم، حجتين من حججِي، قالت: يا رسول الله حجتين من حججك؟! قال: نعم وأربعة، قال فلم تزل تزاده ويزيد ويضعف حتى بلغ سبعين حجة من حجج رسول الله بأعمارها }.

هذه الرواية تفتح لنا نافذة وجدانية عميقة على العلاقة الخاصة التي كانت تربط النبي (صلى الله عليه وآله) بسبطه الإمام الحسين (عليه السلام)، ولكنها في الوقت ذاته لا تقف عند حدود العاطفة المجردة، بل تمضي بنا إلى أفق أبعد، حيث تبرز المحبة بالنبوة، والحنان بالبصيرة، واللعب البريء بإرهاصات المأساة القادمة.

يبدأ المشهد بصورة مفعمة بالدفع: الإمام الحسين (عليه السلام) صغير، في حجر جده رسول الله صلى الله عليه وآله، يلاعبه ويضاحكه. ليس هذا مجرد لعب عابر، بل هو تعبير عن احتضان النبوة لامتدادها الرسالي، فالإمام الحسين عليه السلام هنا ليس حفيداً فحسب، بل هو "ثمرة الفؤاد" كما وصفه النبي صلى الله عليه وآله، أي خلاصة الامتداد الروحي والعاطفي والرسالي.



وحين تصف عائشة شدة إعجاب النبي صلى الله عليه وآله بهذا الصبي، فإنها تنظر إلى ظاهر العلاقة، إلى مشهد الجدّ مع حفيده، لكن النبي صلى الله عليه وآله يكشف عن عمق آخر لا تدركه النظرة السطحية.

يقول: «ويلك وكيف لا أحبه»، وكأن في العبارة استنكارًا لأي محاولة لفصل هذه المحبة عن حقيقتها. فحب الإمام الحسين عليه السلام ليس عاطفة شخصية، بل هو امتداد لحب إلهي، لأن الإمام صلوات الله عليه يمثل خط الرسالة واستمرارها. ثم يضيف صلى الله عليه وآله: «وهو ثمرة فؤادي وقرة عيني»، ليؤكد أن هذا الارتباط ليس عاديًا، بل هو ارتباط وجودي، فالإمام الحسين عليه السلام جزء من قلب النبي صلى الله عليه وآله، ومن نوره، ومن مشروعه.

لكن الرواية لا تبقى في دائرة الفرح، بل تنقلب فجأة إلى نبوءة موجعة: «أما أن أمتي ستقتله». هنا ينتقل النص من مشهد اللعب إلى مشهد الدم، ومن الضحكة إلى المأساة. النبي صلى الله عليه وآله يرى ما لا يُرى، ويقرأ المستقبل بعين الوحي، فيكشف أن هذا الصبي الذي يضاحكه اليوم، ستغدو به الأمة التي تنتسب إليه. وهذه المفارقة بحد ذاتها تحمل شحنة هائلة من الألم: أمة تتغنى بحب النبي صلى الله عليه وآله، ولكنها تقتل أعز ما لديه.





ثم تأتي النقلة الثالثة في الرواية، وهي الأهم في بعدها التربوي والروحي: «فمن زاره بعد وفاته كتب الله له حجة من حججى». هنا لا يكتفى النبي صلى الله عليه وآله بالإخبار عن المأساة، بل يفتح باباً للأمة كي تعوّض تقصيرها، وتعبر عن ولائها الحقيقي. زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) ليست مجرد عمل شعائري، بل هي موقف، وانتماء، وتجديد للعهد مع خطه.

وتبدأ عائشة في الاستفهام المتكرر: «حجة من حججك؟ حجتين؟ أربعة؟»...

وهذا التكرار في السؤال يقابله تصاعد في الجواب، حتى يصل العدد إلى سبعين حجة. هذا التصاعد ليس حساسياً بقدر ما هو تعبيرى، يراد به الإشارة إلى عظمة هذا العمل، وأن ثوابه يفوق التصور. فالمسألة ليست أرقاماً جامدة، بل دلالة على أن الارتباط بالإمام الحسين (عليه السلام) يعادل أعظم القربات.

وإذا تأملنا في هذا التضعيف المتكرر، نجد أنه يكشف عن حقيقة عميقة: أن زيارة الإمام الحسين عليه السلام ليست مجرد زيارة لقبر، بل هي ارتباط بمشروع، واستحضار لثورة، وتجديد للوعي بقيم الحق والعدل والتضحية. ولذلك كان ثوابها بهذا الحجم، لأنها تعيد للإنسان توازنه، وتربطه بجوهر الدين.





وهكذا، فإن الرواية ترسم لنا ثلاث طبقات مترابطة:
طبقة المحبة النبوية للإمام الحسين عليه السلام، وطبقة المأساة التي
ستقع عليه، وطبقة المسؤولية التي تُلقى على عاتق الأمة بعد ذلك. فهي
تبدأ بلحظة حنان، وتمرّ بنبوءة ألم، وتنتهي بدعوة مفتوحة للوفاء.

وفي هذا كله، يظهر الإمام الحسين (عليه السلام) لا كشخصية تاريخية
فحسب، بل كميزان دائم: من أحبه ووالاه وسار في خطه، فقد اقترب
من قلب النبي صلى الله عليه وآله، ومن أعرض عنه أو تنكّر لقضيته،
فقد ابتعد عن روح الرسالة، مهما ادّعى الانتساب إليها.





الحديث السادس عشر:

عن أبي عبد الله (ع) قال: {من زاره كان الله له من وراء حوائجه، وكفى ما أهمه من أمر دنياه، وإنه يجلب الرزق على العبد، ويخلف عليه ما ينفق، ويغفر له ذنوب خمسين سنة، ويرجع إلى أهله وما عليه وزر ولا خطيئة إلاّ وقد محيت من صحيفته، فإن هلك في سفره نزلت الملائكة فغسلته، وفتح له باب إلى الجنة فيدخل عليه روحها حتى ينشر، وإن سلم فتح له الباب الذي ينزل منه رزقه، ويجعل له بكل درهم عشرة آلاف درهم وادّخر ذلك له فإذا حشر قيل له: لك بكل درهم عشرة آلاف درهم، إنّ الله نظر لك فذخرها لك عنده}.

هذه الرواية تُقرأ وتفتح للإنسان أفقاً آخر لفهم العلاقة مع الإمام الحسين (عليه السلام)، حيث تتحول الزيارة من فعلٍ محدود في الزمان والمكان، إلى حالة ارتباط وجودي تمتد آثارها في الدنيا والآخرة معاً.

تبدأ الرواية بعبارة لافتة: «كان الله له من وراء حوائجه». وهي عبارة لا تُفهم على نحوٍ سطحي، كأنها وعدٌ بتيسيرٍ آليٍّ لكل مطلب فقط، بل تشير إلى نوعٍ من العناية الإلهية الخاصة، حيث يتدخل اللطف الإلهي في ترتيب حياة العبد، فيكون الله سبحانه وكيلاً عنه فيما يعجز عنه، ومهيئاً على تفاصيل مسيره. هذا المعنى يضع الزائر في دائرة الرعاية، لا لأنه تحرك بجسده نحو القبر، بل لأنه تحرك بروحه نحو خط الإمام الحسين عليه السلام، فاستحق أن يُجعل الله له من وراء حاجاته.



ثم تقول الرواية: «وكفى ما أهمه من أمر دنياه»، وكأنها تشير إلى حالة من السكينة تُمنح للزائر، لا بمعنى زوال المشكلات بالضرورة، بل بمعنى تبدل موقعها في نفسه؛ فتصغر الهموم حين يكبر المعنى، ويخفّ الثقل حين يتصل القلب بمصدر القوة. إن من يقف عند الإمام الحسين (عليه السلام)، وهو يستحضر تضحيته وصبره، يعيد ترتيب أولوياته، فتراجع ضغوط الدنيا أمام وضوح الغاية.

وتنتقل الرواية إلى بعدٍ آخر: «وإنه يجلب الرزق على العبد، ويخلف عليه ما ينفق». هنا لا يُراد فقط الوعد بزيادة مادية، بل الإشارة إلى سَنَةِ قرآنية عميقة، وهي أن العطاء في سبيل الله سبحانه وتعالى لا ينقص، بل يتحول إلى نماءٍ مضاعف، ظاهرًا أو خفيًا. فالإنفاق في طريق زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) ليس خسارة، بل استثمار في ميزانٍ إلهي مختلف، لا يُقاس بمنطق السوق، بل بمنطق البركة.

ثم تأتي العبارة الثقيلة: «ويغفر له ذنوب خمسين سنة». هذا الرقم، في السياق الروائي، لا يُفهم كحدٍّ رياضي، بل كدلالة على سعة المغفرة. وكأن الرواية تقول: إن هذه الزيارة، إذا صدرت عن وعيٍ وصدق، يمكن أن تُحدث انقلابًا حقيقيًا في سجل الإنسان، فتطوي صفحاتٍ طويلة من التقصير. لكن هذا مشروط ضمناً بأن تكون الزيارة حالة توبةٍ وتجديد، لا مجرد عادةٍ أو مظهر.



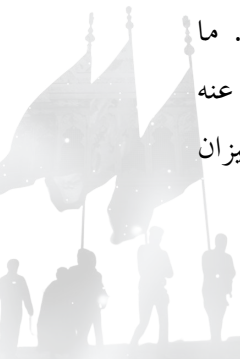


و يبلغ النص ذروته حين يقول: «ويرجع إلى أهله وما عليه وزر ولا خطيئة إلا وقد محيت». هنا تتجلى الزيارة كولادة جديدة، كأن الإنسان يخرج من هذا المسير وقد أُعيد تشكيله روحياً. وهذا المعنى يتناغم مع جوهر كربلاء نفسها، التي لم تكن حدثاً عابراً، بل مشروعاً لإعادة بناء الإنسان.

ثم تفتح الرواية باباً آخر، أكثر رهبة وطمأنينة في آنٍ واحد: «فإن هلك في سفره نزلت الملائكة فغسلته...». هنا يتحول طريق الزيارة إلى طريقٍ مُقدَّس، حتى إن الموت فيه لا يُعد خسارة، بل انتقالاً مُحتفى به في السماء. الملائكة تتولى تغسيله، وأبواب الجنة تُفتح له، وكأن هذا المسافر لم يكن يتحرك في جغرافيا الأرض فقط، بل كان يسير في طريقٍ موصول بالسماء.

وإن عاد سالماً، فإن الأثر لا ينقطع: «فتح له الباب الذي ينزل منه رزقه». إنها إشارة إلى أن هذا المسار يترك أثراً مستمراً في حياة الإنسان، فيفتح له أبواباً لم تكن مفتوحة من قبل، أو يبارك له فيما لديه.

أما الخاتمة، فهي من أكثر المقاطع دلالة: «ويجعل له بكل درهم أنفقه عشرة آلاف درهم... فإذا حشر قيل له...». هذا التصوير لا يُراد به الحساب العددي بقدر ما يُراد به ترسيخ فكرة الادخار الأخروي. ما يُنفق هنا لا يضيع، بل يُحوَّل إلى رصيد محفوظ عند الله، يُكشف عنه يوم القيامة، حين يرى الإنسان أن ما ظنه قليلاً كان عظيماً في ميزان الحق.





في مجموعها، ترسم هذه الرواية صورة متكاملة: زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) ليست حركة جسدية نحو قبر، بل هي دخول في دائرة لطفٍ إلهي، تبدأ آثارها من طمأنينة القلب، وتمرّ بسعة الرزق ومغفرة الذنوب، وتمتد إلى كرامة الموت، وتُختتم بادخارٍ أخروي يفوق كل تصور. إنها، في جوهرها، دعوة إلى أن يتحول الإمام الحسين عليه السلام في حياة الإنسان من ذكرى تُزار، إلى محورٍ يُعاش، ومن قبرٍ يُقصد، إلى طريقٍ يُسلك.





الحديث السابع عشر:

عن منصور ابن حازم قال: سمعت الصادق (عليه السلام) يقول: { من أتى عليه حول لم يأت قبر الحسين (عليه السلام) نقص الله من عمره حولاً، ولو قلت أن أحدكم يموت قبل أجله بثلاثين سنة لكنت صادقاً وذلك إنكم تتركون زيارته فلا تدعوها يمدّ الله في أعماركم، ويزيد في أرزاقكم وإذا تركتم زيارته نقص الله من أعماركم وأرزاقكم، فتنافسوا في زيارته ولا تدعوا ذلك، فإنّ الحسين بن علي (عليهما السلام) شاهد لكم عند الله تعالى وعند رسوله (ص) وعند علي وعند فاطمة (عليهما السلام). }

هذه الرواية لا تتحدث بلغة الترغيب العاطفي فحسب، بل تتخذ نبرة أشبه بالتحذير الهادئ الذي يكشف عن سنّة خفية في علاقة الإنسان بولايته للإمام الحسين (عليه السلام).

فهي لا تكتفي ببيان فضل الزيارة، بل تذهب إلى أبعد من ذلك، فتربط بين الإعراض عنها وبين نوعٍ من الخسارة الواقعية في العمر والرزق، وكأنها تريد أن تقول:

إن المسألة ليست عملاً مستحباً على هامش الحياة، بل هي عنصر داخل في نظام البركة الإلهية.





الحديث السابع عشر:

عن منصور ابن حازم قال: سمعت الصادق (عليه السلام) يقول: { من أتى عليه حول لم يأت قبر الحسين (عليه السلام) نقص الله من عمره حولاً، ولو قلت أن أحدكم يموت قبل أجله بثلاثين سنة لكنت صادقاً وذلك إنكم تتركون زيارته فلا تدعوها يمدّ الله في أعماركم، ويزيد في أرزاقكم وإذا تركتم زيارته نقص الله من أعماركم وأرزاقكم، فتنافسوا في زيارته ولا تدعوا ذلك، فإنّ الحسين بن علي (عليهما السلام) شاهد لكم عند الله تعالى وعند رسوله (ص) وعند علي وعند فاطمة (عليهما السلام). }

هذه الرواية لا تتحدث بلغة الترغيب العاطفي فحسب، بل تتخذ نبرة أشبه بالتحذير الهادئ الذي يكشف عن سنّة خفية في علاقة الإنسان بولايته للإمام الحسين (عليه السلام).

فهي لا تكتفي ببيان فضل الزيارة، بل تذهب إلى أبعد من ذلك، فتربط بين الإعراض عنها وبين نوعٍ من الخسارة الواقعية في العمر والرزق، وكأنها تريد أن تقول:

إن المسألة ليست عملاً مستحباً على هامش الحياة، بل هي عنصر داخل في نظام البركة الإلهية.





يبدأ الإمام (عليه السلام) بعبارة صادمة في ظاهرها: «من أتى عليه حول لم يأت قبر الحسين نقص الله من عمره حولاً». هذه الجملة لا ينبغي أن تُفهم على نحو جامد، كأن العمر يُقتطع حسابياً، بل هي إشارة إلى معنى أعمق، وهو أن العمر ليس مجرد عدد سنوات، بل هو مقدار ما يُبارك فيه من حضورٍ وفاعلية. فقد يعيش الإنسان سنواتٍ طويلة، لكنها خاوية من الأثر، وقد يعيش أقل، لكنه ممتلئ بالبركة. ومن هنا، فإن ترك الزيارة يحرم الإنسان من أحد منابع هذه البركة، فينقص من «حقيقة عمره» وإن بقيت «صورته الزمنية».

ثم يؤكد الإمام صلوات الله عليه هذا المعنى بتعبير أشد: «ولو قلت إن أحدكم يموت قبل أجله بثلاثين سنة لكنت صادقاً». هذا الأسلوب ليس مبالغة خطابية، بل هو تأكيد على أن هناك آجالاً مشروطة، ترتبط بأفعال الإنسان واختياراته، وأن صلته بأولياء الله ومنهم الإمام الحسين (عليه السلام) تدخل في هذه المعادلة. فليست الحياة قدراً جامداً منفصلاً عن السلوك، بل هي قابلة للزيادة والنقصان ضمن سنن إلهية دقيقة.

وتنتقل الرواية إلى بيان الوجه الآخر: «فلا تدعوها يمدّ الله في أعماركم ويزيد في أرزاقكم». هنا يظهر التوازن؛ فكما أن الترك موجب للنقص، فإن الإقبال سبب للزيادة. وهذه الزيادة لا تُحصَر في الكم فقط، بل تشمل الكيف: بركة في الوقت، سعة في الرزق، توفيق في المسير. إن زيارة الإمام الحسين (عليه السلام)، حين تكون نابعة من وعي، تعيد وصل الإنسان بمصدر الهداية، وهذا الوصل ينعكس على تفاصيل حياته كلها.



ثم تأتي دعوة واضحة: «فتنافسوا في زيارته ولا تدعوا ذلك». استخدام لفظ “التنافس” هنا لافت، لأنه ينقل الزيارة من دائرة العمل الفردي البسيط إلى ساحة السباق الروحي، حيث يُدعى المؤمنون إلى أن يتسابقوا في تحصيل هذا القرب. وكأن الإمام (عليه السلام) يريد أن يزرع في الوعي الجماعي أن هذه الزيارة ليست خيارًا ثانويًا، بل ميدانًا من ميادين التفاضل.

وتختتم الرواية بفقرة ذات بعد عقائدي عميق: «فإن الحسين بن علي شاهد لكم عند الله وعند رسوله وعند علي وعند فاطمة». هنا تنكشف الغاية الكبرى: الزيارة ليست مجرد حركة نحو الإمام عليه السلام، بل هي بناء علاقة تجعل الإمام الحسين (عليه السلام) شاهدًا للإنسان. والشهادة هنا ليست مجرد حضور، بل هي نوع من التزكية والدفاع والانتساب. أن يكون الإمام الحسين عليه السلام شاهدًا لك، يعني أنك دخلت في خطه، وانتميت إلى مشروعه، وصرت محسوبًا في جبهة الحق التي يمثلها.

وبذلك، ترسم الرواية معادلة واضحة: الزيارة ليست طقسًا يُؤدّى، بل صلة تُحفظ؛ فإن حُفظت، أثمرت امتدادًا في العمر وسعة في الرزق وشهادة في الآخرة، وإن أهملت، انعكس ذلك نقصًا في البركة وانقطاعًا عن هذا الامتداد. إنها دعوة لأن يتحول الإمام الحسين (عليه السلام) من ذكرى موسمية، إلى حضور دائم في حياة الإنسان، يمدّه بالحياة في أعماق معانيها، لا في ظاهرها فقط.



الحديث الثامن عشر

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: {من لم يأت قبر الحسين عليه السلام حتى يموت كان منتقص الإيمان، منتقص الدين، إن أدخل الجنة كان دون المؤمنين فيها.}

هذه الرواية تأتي بنبرة مختلفة عن سابقتها؛ فهي لا تكتفي بالترغيب، ولا تقف عند بيان الثواب، بل تمضي إلى تشخيص حالة وجودية في إيمان الإنسان، وتكشف عن خلل بنيوي حين تنقطع صلته بالإمام الحسين (عليه السلام).

يقول الإمام (عليه السلام): «من لم يأت قبر الحسين حتى يموت كان منتقص الإيمان، منتقص الدين». هذه العبارة لا تُفهم على أنها حكمٌ بإخراج الإنسان من دائرة الإيمان، بل هي توصيف لنقص في كماله وتمامه. فالإيمان في الرؤية العميقة ليس مجرد تصديق قلبي أو أداء شكلي للعبادات، بل هو منظومة ولاء وانتماء، تتجسد في الارتباط بخط أولياء الله. والإمام الحسين (عليه السلام) يمثل قمة هذا الخط، لأنه تجسيد حيّ للدين في أعلى درجات التضحية والصدق.

من هنا، فإن عدم زيارته لا يُقرأ كتركٍ لعملٍ مستحب فحسب، بل كعلامة على ضعف الارتباط بهذا الامتداد الرسالي. ليس لأن الطريق إلى قبره شرطٌ مادي للإيمان، بل لأن الزيارة في جوهرها تعبير عن حضور الإمام الحسين عليه السلام في وجدان الإنسان.



فمن لم يتحرك إليه لا بجسده ولا بروحه، يكشف بشكلٍ أو بآخر عن فتورٍ في هذا الارتباط.

ثم تأتي العبارة الثانية: «إن أدخل الجنة كان دون المؤمنين فيها». وهنا تتضح الصورة أكثر؛ فالقضية ليست حرماناً من النجاة، بل تفاوت في المقامات. فكما أن أهل الجنة ليسوا في درجة واحدة، كذلك يرتبط علوّ الدرجة بمدى عمق الانتماء والولاء. والإمام الحسين (عليه السلام) بوصفه ميزاناً للحق، يكون القرب منه سبباً للعلو، والبعد عنه ولو نسبياً سبباً للدون.

وهذا “الدون” لا يُفهم كعقوبة منفصلة، بل كنتيجة طبيعية: فمن لم يتغذَّ بروح كربلاء، ولم يتشرب قيمها من تضحية وصبر وصدق، لن يبلغ في كماله ما يبلغه من عاش هذا الارتباط. إن زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) ليست مجرد انتقال مكاني، بل هي عملية إعادة تشكيل للإنسان، وكلما تعمّق هذا الارتباط، ارتفع مقامه.

وفي عمق الرواية، يمكن أن نلمح دعوة ضمنية: أن لا يكون الإمام الحسين (عليه السلام) غائباً عن حياة الإنسان حتى يفجأه الموت وهو لم يقف على بابهِ، ولم يجدّد عهده معه. فالمسألة ليست في الخطوات التي تُقَطَّع نحو القبر، بل في المسافة التي تُقَطَّع داخل النفس، بين الغفلة واليقظة، بين الانتماء الشكلي والانتماء الحقيقي.





وهكذا، فإن الرواية ترسم معيارًا دقيقًا: كمال الإيمان يُقاس بمدى حضور الإمام الحسين عليه السلام في حياة الإنسان، وزيارته إحدى أبرز تجليات هذا الحضور. فمن حافظ على هذه الصلة، ارتقى في مدارج الكمال، ومن أهملها، بقي في دائرة النقص، وإن نجا. إنها ليست تهديدًا بقدر ما هي كشفٌ لموقع الإمام الحسين (عليه السلام) في الدين، بوصفه قلبًا نابضًا، لا هامشًا يمكن الاستغناء عنه.





الحديث التاسع عشر

عن أبي محمد (ع) قال: { لا تدع زيارة الحسين بن علي (عليهما السلام) ومُر أصحابك بذلك يمد الله في عمرك، ويزيد في رزقك، ويحييك الله سعيداً، ولا تموت إلا شهيداً، ويكتبك سعيداً }.

تمضي هذه الرواية في خطٍ واضح من خطاب الأئمة (عليهم السلام)، لكنها تضيف نبرة توجيهٍ مباشر، أقرب إلى الوصية العملية التي تُراد أن تتحول إلى سلوكٍ دائم في حياة المؤمن، لا إلى فكرةٍ تُحفظ في الذاكرة.

يقول الإمام (عليه السلام): «لا تدع زيارة الحسين بن علي»، وهذه الصيغة بصيغة النهي تكشف أن المسألة ليست مجرد استحبابٍ عابر، بل هي أمرٌ يُخشى من التفريط فيه. كأن الإمام صلوات الله عليه يضع الزيارة في موقعٍ ينبغي أن يُصان من الإهمال، لأنها تمثل خيط اتصالٍ حيوي بين الإنسان وبين مدرسة الإمام الحسين (عليه السلام).

ثم لا يكفي بذلك، بل يضيف: «ومُر أصحابك بذلك»، لينقل الزيارة من دائرة الفرد إلى دائرة الجماعة، فتتحول إلى ثقافة عامة، يتواصى بها المؤمنون كما يتواصون بالصلاة والحق والصبر. وهذا بحد ذاته يكشف عن بعدها الرسالي، لا الفردي فقط.



ثم تبدأ الرواية ببيان الآثار: «يمدّ الله في عمرك، ويزيد في رزقك». وهنا يتكرر المعنى الذي مرّ في روايات أخرى، لكن مع تأكيد جديد على أن الزيارة تدخل في نظام البركة الإلهية. فالعمر لا يُقاس بطوله فقط، بل بامتداده المؤثر، والرزق لا يُقاس بكثرته فحسب، بل بصفائه وبركته. ومن يرتبط بالإمام الحسين (عليه السلام)، إنما يرتبط بقيم تعيد ترتيب حياته، فينعكس ذلك اتساعاً في معيشتها، أو طمأنينةً فيها، أو توفيقاً في وجوها.

ثم ترتفع الرواية إلى مستوى أعمق: «ويحييك الله سعيداً». هذه العبارة لا تتعلق بطروف الحياة الظاهرة بقدر ما تتعلق بحالتها الباطنية. فالسعادة هنا ليست رفاهاً، بل انسجام داخلي، ورضا، ووضوح في الاتجاه. من يعيش مع الإمام الحسين (عليه السلام)، لا يعيش تائهاً، بل يحمل بوصلة واضحة، وهذا بحد ذاته جوهر السعادة.

وتبلغ الرواية ذروتها في قولها: «ولا تموت إلا شهيداً». وهذه العبارة تحتاج إلى فهم دقيق؛ فهي لا تعني بالضرورة أن كل زائر يُقتل في ساحة قتال، بل تشير إلى مقام معنوي، وهو أن يموت الإنسان على حالة من الصدق والولاء، بحيث تكون خاتمته خاتمة أهل التضحية. فالشهادة هنا ليست فقط صورة الدم، بل حقيقة الانتماء الذي يبلغ بالإنسان أن يختم حياته وهو في خط الإمام الحسين (عليه السلام)، لا منحرفاً عنه.





ثم تختتم: «ويكتبك سعيداً». وكأن البداية والنهاية تلتقيان: حياة في سعادة، وخاتمة تُختتم بها في سجل السعداء. وهذه الدائرة المتكاملة تعكس أثر الزيارة حين تتحول إلى حالة وعيٍ وارتباط، لا مجرد عادة.

في مجموعها، تكشف الرواية عن ثلاثة مستويات مترابطة: أمرٌ بالحفاظ على الزيارة ونشرها، ثم آثار دنيوية من بركة العمر والرزق، ثم آثار باطنية وأخروية من السعادة وحسن الخاتمة. وهي بذلك ترسم صورة الزيارة كجسرٍ بين الدنيا والآخرة، يمرّ عبره الإنسان ليعيد بناء حياته على ضوء الإمام الحسين (عليه السلام)، فيحيا سعيداً، ويُختتم له بسعادة.





الحديث العشرون

عن أبي جعفر (ع) في حديث قال: {من كان لنا محباً فليرغب في زيارة قبر الحسين (ع)، فمن كان للحسين (ع) محباً زوّاراً، عرفناه بالحب لنا أهل البيت، وكان من أهل الجنة، ومن لم يكن للحسين (ع)، زوّاراً كان ناقص الإيمان}.

هذه الرواية تضع معياراً دقيقاً يربط بين الدعوى والحقيقة، بين محبة تُقال ومحبة تُبرهن. فهي لا تتحدث عن الحب بوصفه شعوراً عاطفياً مجرداً، بل بوصفه التزاماً يُترجم إلى سلوك، وتحديدًا إلى صلة حيّة بالإمام الحسين (عليه السلام).

يقول الإمام (عليه السلام): «من كان لنا محباً فليرغب في زيارة قبر الحسين». هنا لا يكتفي الإمام صلوات الله عليه بإثبات وجود المحبة، بل يطلب لها علامة. وكأن الرواية تُخضع المحبة للاختبار:

إن كنت صادقاً في حبك لأهل البيت عليهم السلام، فلتكن لك رغبة حقيقية في زيارة الإمام الحسين عليه السلام. هذه الرغبة ليست مجرد نية عابرة، بل شوق يدفع إلى الحركة، واستعداد لتحمل الكلفة، لأن الحب في منطقه العميق لا يبقى ساكناً.



ثم يأتي البيان الأوضح: «فمن كان للحسين محبًا زوّارًا، عرفناه بالحب لنا أهل البيت». هنا تتحول الزيارة إلى معيار معرفي؛ بها يُعرف الصادق من المدّعي. فليست كل محبة تُدعى معتبرة، بل المحبة التي تترك أثرًا عمليًا. ومن أعظم آثارها أن يتحرك الإنسان نحو الإمام الحسين (عليه السلام)، لأن الإمام صلوات الله عليه هو الامتداد الحي لرسالة أهل البيت عليهم السلام، وهو المحكّ الذي يُكشف عنده صدق الانتماء.

ومن هنا نفهم أن الزيارة ليست عملاً منفصلاً، بل هي تعبير مركزي عن الولاء. فمن يواظب عليها، إنما يعلن بالفعل لا بالقول أنه مرتبط بهذا الخط، مستعد لأن يجدّد عهده به، وأن يعيش قيمه في واقعه.

ثم تقول الرواية: «وكان من أهل الجنة». وهذه النتيجة لا تُفهم على أنها ثواب مستقل فحسب، بل هي ثمرة طبيعية لذلك الارتباط. فمن عاش مع الإمام الحسين (عليه السلام)، وتغذى بروحه، وسار في خطه، فإن مصيره أن يُحشر مع من أحبّ، لأن التكوين الداخلي للإنسان يتشكل بحسب ما يرتبط به.

وفي المقابل، تأتي العبارة الحاسمة: «ومن لم يكن للحسين زوّارًا كان ناقص الإيمان». وهذا لا يعني نفي الإيمان، بل الإشارة إلى خللٍ في اكتماله. فكما أن الإيمان درجات، كذلك الارتباط بالإمام الحسين (عليه السلام) أحد عناصر كماله. ومن غاب عنه هذا البعد، بقي إيمانه مبتورًا من جهةٍ أساسية، لأنه فقد صلةً مباشرةً بمركز من مراكز الهداية.



وفي عمق الرواية، نلاحظ أنها لا تتحدث عن الزيارة كحركة موسمية، بل كهوية: «زوّارًا» بصيغة الاستمرار. أي أن يكون الإنسان معروفًا بهذه الصلة، ملازمًا لها، يعيشها كجزء من تكوينه الروحي. إنها دعوة لأن يُترجم الحب إلى فعل، وأن لا يبقى الإمام الحسين (عليه السلام) فكرةً في القلب، بل حضورًا في الطريق، وخطوةً تُقطع نحوه، وعهدًا يتجدّد عند بابه، حتى يُعرف الإنسان في ميزان السماء بأنه من أهل هذا الحب.





الحديث الحادي والعشرون

عن الفضيل بن يسار قال: قال أبو محمد (عليه السلام): { ما أجفاكم يا فضيل لا تزورون الحسين، أما علمت أنّ أربعة آلاف ملك شعثاً غبراً ييكونه إلى يوم القيامة } .

في هذه الرواية تبدّى نبرة عتابٍ رقيق، لكنها عتابٌ مشحون بمعرفة عميقة بحقيقة ما يجري حول قبر الإمام الحسين (عليه السلام)، وما يعنيه أن يغيب الإنسان عن هذا المشهد.

يخاطب الإمام (عليه السلام) الفضيل بقوله: «ما أجفاكم يا فضيل لا تزورون الحسين». لفظة “الجفاء” هنا ليست مجرد تقصيرٍ عابر، بل تعبير عن فتورٍ في العلاقة، عن بُعدٍ لا ينسجم مع طبيعة المحبة الصادقة.

فالجفاء في منطق أهل البيت عليهم السلام ليس قسوة ظاهرة فقط، بل هو أيضاً ترك ما ينبغي أن يُلازم القلب من وصلٍ ووفاء.

وكأن الإمام صلوات الله عليه يريد أن يقول: كيف يستقيم أن تدعوا القرب، وأنتم تتركون أحد أعظم مظاهر هذا القرب؟





ثم يفتح الإمام عليه السلام نافذة على عالمٍ آخر: «أما علمت أنَّ أربعة آلاف ملكٍ شعثًا غبرًا سيكونه إلى يوم القيامة». هنا ينتقل الخطاب من مستوى التكليف إلى مستوى الكشف. فالزيارة لم تعد مجرد فعلٍ إنساني، بل صارت دخولًا إلى مشهد كوني، حيث الملائكة وهم أهل الطهارة والقرب يقفون في حالة حزن دائم، بثيابٍ يغلب عليها أثر السفر والتعب، «شعثًا غبرًا»، في إشارة إلى دوام الانكسار والحزن على مصاب الإمام الحسين (عليه السلام).

هذه الصورة تحمل دلالات متعددة؛ فهي أولاً تكشف أن فاجعة كربلاء ليست حدثًا تاريخيًا انتهى، بل جرحٌ مفتوح في نظام الوجود، تتفاعل معه الملائكة كما يتفاعل المؤمنون، بل أكثر. وثانيًا، تضع الإنسان أمام مقارنة صامتة: إذا كانت الملائكة، مع ما لها من مقام، لا تفارق هذا الحزن ولا تنقطع عن هذا الحضور، فكيف يليق بالإنسان الذي يدّعي الولاء أن يغيب؟.

وصفهم بأنهم «يكونه إلى يوم القيامة» يرسخ فكرة الاستمرارية؛ فالمسألة ليست لحظة عاطفية، بل حالة دائمة. وهذا يعني أن الارتباط بالإمام الحسين (عليه السلام) ينبغي أن يكون هو الآخر مستمرًا، لا موسميًا ولا طارئًا.

ومن جهة أخرى، فإن ذكر عدد «أربعة آلاف» لا يُراد به الحصر بقدر ما يُراد به الإشارة إلى الكثرة والعظمة، أي أن هذا الحضور الملائكي ليس هامشيًا، بل هو مشهد واسع، ممتد، يشكّل فضاءً من الحزن المقدّس الذي يحيط بقبر الإمام الحسين عليه السلام.



في عمق الرواية، يتضح أن العتاب ليس غايةً بحد ذاته، بل وسيلة لإيقاظ الحسن: أن يشعر الإنسان بأنه حين يترك الزيارة، لا يترك عملاً مستحباً فحسب، بل يبتعد عن ساحةٍ يغمرها الحضور الإلهي والملائكي، وعن حالةٍ من التفاعل الكوني مع قضية الإمام الحسين (عليه السلام).

وهكذا، تُرسم صورة دقيقة: هناك ملائكة في حال بكاء دائم، وحضور لا ينقطع، ووفاء لا يفتر... وفي المقابل، إنسان قد يغفل أو يتكاسل. والرواية تأتي لتعيد التوازن، لتدعو الإنسان أن يلتحق بهذا الموكب، وأن لا يكون غريباً عن مشهدٍ تشارك فيه السماء نفسها.

إنها دعوة لأن يتحول الحزن على الإمام الحسين (عليه السلام) من حالة عابرة إلى موقف، ومن شعور إلى صلة، ومن ذكرى إلى حضور دائم، بحيث لا يكون الإنسان “جافياً”، بل منخرطاً في هذا الوفاء الذي لا ينقطع.





الحديث الثاني والعشرون

عن أم سعيد الأحمسيّة ، قالت: قال لي أبو عبد الله (عليه السلام): { يا أم سعيد تزورين قبر الحسين (عليه السلام). قالت: فقلت: نعم، قال: يا أم سعيد زوريه فإنّ زيارة الحسين واجبة على الرجال والنساء }.

تأتي هذه الرواية بصيغة هادئة في ظاهرها، لكنها تحمل في عمقها نقلة مهمة في فهم موقع زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) في حياة المؤمن، وخصوصاً في شمولها للرجال والنساء معاً، بلا تفريق ولا تقييد.

يبدأ المشهد بسؤال بسيط من الإمام (عليه السلام): «يا أم سعيد تزورين قبر الحسين؟» وكأن الإمام عليه السلام لا يقرر ابتداءً، بل يستنطق الواقع، يستفهم عن هذه الصلة: هل هي حاضرة أم غائبة؟ وحين تجيب بالإيجاب، لا يكتفي بالتثبيت، بل ينتقل إلى توجيهٍ أعمق: «زوريه». هذا الأمر يحمل معنى الاستمرار، أي لا تجعل الزيارة حدثاً عابراً، بل حالة متجددة.

ثم تأتي العبارة المفصلية: «فإن زيارة الحسين واجبة على الرجال والنساء». وهنا ينبغي التوقف بدقة عند لفظ “الوجوب”. فليس المقصود بالضرورة الوجوب الفقهي الاصطلاحي الذي يترتب على تركه إثم مباشر، بل وجوبٌ بمعناه الأوسع: أي أنها من لوازم الطريق، ومن مقتضيات الصلة الصادقة، بحيث لا ينبغي التفريط بها لمن أراد كمال الارتباط بالإمام الحسين (عليه السلام).



واللافت في الرواية أنها تصرّح بشمول النساء: «على الرجال والنساء». وهذا يحمل دلالة واضحة على أن الزيارة ليست شأنًا ذكوريًا أو وظيفة خاصة بطبقة دون أخرى، بل هي حقٌّ ومسؤولية مشتركة. المرأة، كما الرجل، مدعوة لأن تكون في هذا المسار، أن ترتبط بالإمام الحسين (عليه السلام)، وأن تحضر عنده، وأن تعيش هذا الامتداد الروحي.

وفي هذا البعد، يمكن أن نلمح صدىً لكربلاء نفسها؛ فالإمام الحسين (عليه السلام) لم يكن مشروعًا رجاليًا صرفًا، بل شاركت فيه المرأة بوعي عميق، وكانت شريكة في حمل الرسالة بعد الواقعة. ومن هنا، فإن دعوتها إلى الزيارة هي امتداد لدورها في ذلك الخط، لا أمر طارئ عليها.

كما أن توصيف الزيارة بأنها “واجبة” في هذا السياق، يوحي بأن علاقتنا بالإمام الحسين عليه السلام ليست ترفًا روحيًا، بل ضرورة في بناء الوعي الديني. فالإمام الحسين (عليه السلام) يمثل نقطة صفاء في فهم الدين، وزيارته تعيد ربط الإنسان بجوهر الرسالة، بعيدًا عن التشويش والانحراف.

ومن زاوية أخرى، فإن هذه الرواية ترفع الزيارة من مستوى “الاختيار الفردي” إلى مستوى “الهوية الجماعية”. فحين يُقال إنها على الرجال والنساء، فهذا يعني أنها عنصر مشترك في تشكيل المجتمع المؤمن، وثقافة ينبغي أن تسري في الجميع، لا أن تبقى محصورة في فئة دون أخرى.



وهكذا، ترسم الرواية صورة واضحة:
الزيارة ليست امتيازًا، بل مسؤولية؛ وليست حكرًا، بل شراكة؛
وليست فعلاً موسميًا، بل صلة مستمرة. وهي في ذلك دعوة لأن يكون
الإمام الحسين (عليه السلام) حاضرًا في حياة الجميع، رجالًا ونساءً،
بوصفه محورًا يلتقى عنده، وتُبنى عليه معالم الوعي والولاء.





الحديث الثالث والعشرون

عن أبي الحسن (ع) موسى بن جعفر الكاظم قال: {من أتى قبر الحسين عليه السلام في السنة ثلاث مرّات أمن من الفقر}.

هذه الرواية، على قصر عبارتها، تحمل معنى دقيقاً يرتبط بعلاقة الإنسان بمصدر البركة، لا بمجرد وعدٍ ماديٍّ مباشر. فهي لا تقول فقط إن الزيارة تُثيب، بل تُدخلها في معادلة “الأمن من الفقر”، وهو تعبير أعمق من مجرد كثرة المال.

يقول الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام): «من أتى قبر الحسين في السنة ثلاث مرات أمن من الفقر». واللافت هنا تحديد العدد: ثلاث مرات. هذا التحديد لا يُفهم كرقم جامد فحسب، بل كإشارة إلى الاستمرارية والتجدد؛ أي أن الارتباط بالإمام الحسين (عليه السلام) ينبغي أن يتكرر خلال العام، بحيث لا تنقطع هذه الصلة، فيبقى أثرها حيّاً ومتجدداً في النفس.

أما “الأمن من الفقر”، فليس بالضرورة أن يُفسّر على نحوٍ مادي ضيق، كأن الزائر سيصبح غنياً بالضرورة، بل المقصود حالة أوسع: أن يُؤمّن من الانكسار الذي يصاحب الفقر، ومن الضيق الذي يثقل الروح قبل الجيب. فقد يملك الإنسان القليل، لكنه يعيش غنى النفس، وراحة القلب، وسعة الرضا، وهذا بحد ذاته نوع من الغنى الحقيقي.

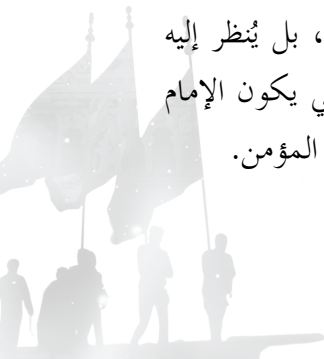


ثم إن الزيارة في جوهرها تعيد تشكيل علاقة الإنسان بالمال؛ فمن يقف عند الإمام الحسين (عليه السلام)، ويستحضر تضحيته بكل شيء في سبيل الحق، يعيد تقييم ما يملك، فلا يعود المال مركز حياته، بل وسيلة. وهذا التحول الداخلي يحرره من عبودية الحاجة، فيكون “آمنًا من الفقر” حتى لو لم تتغير الأرقام في يده.

ومن جهة أخرى، فإن الرواية تنسجم مع سنن إلهية عامة، حيث يرتبط الإنفاق في سبيل الله، والحركة في طريق أوليائه، بسعة في الرزق وبركة فيه. فالسفر للزيارة، وما يصاحبه من بذل، يدخل في هذا الباب، فيكون سببًا لفتح أبواب لم تكن في الحسبان، أو لدوام النعمة واستقرارها.

والتعبير بـ “الأمن” له دلالة خاصة؛ فهو لا يتحدث عن إزالة الفقر فقط، بل عن الطمأنينة تجاهه. كأن الإنسان الذي يرتبط بالإمام الحسين (عليه السلام) لا يعيش قلق الفقد، ولا خوف الضيق، لأنه صار متصلًا بمصدر أعلى من الحسابات الظاهرة.

إنها دعوة لأن لا يُختزل مفهوم الفقر والغنى في الأرقام، بل يُنظر إليه من زاوية أعمق: زاوية العلاقة بالله سبحانه وتعالى، والتي يكون الإمام الحسين (عليه السلام) أحد أبرز جسورها الحيّة في حياة المؤمن.





الحديث الرابع والعشرون

عن داود بن فرقد قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): { ما لمن زار الحسين (عليه السلام) في كلِّ شهر من الثواب؟ قال: ثواب مئة ألف شهيد، ومثل شهداء بدر }.

هذه الرواية تنتمي إلى طائفة النصوص التي تتعمّد رفع سقف التعبير، لا لتقديم أرقامٍ حسابية جامدة، بل لتصوير عظمة الأثر الذي تتركه زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) حين تتحول إلى سلوكٍ دائم ومتجدد.

يسأل داود بن فرقد عن ثواب من يزور الإمام الحسين (عليه السلام) «في كل شهر»، وهذا القيد مهم؛ لأنه ينقل الزيارة من كونها حدثاً عابراً إلى حالة ملازمة، أشبه بإيقاعٍ روحي يتكرر مع الزمن، فيبقي القلب على اتصالٍ دائم بكربلاء، لا يسمح للغفلة أن تستقر طويلاً.

فيأتي الجواب مدهشاً: «ثواب مئة ألف شهيد، ومثل شهداء بدر». هنا ينبغي أن نتوقف عند دلالة “الشهادة” في هذا السياق. فالشهداء خصوصاً شهداء بدر يمثلون الصفوة الأولى التي ثبتت مع رسول الله صلى الله عليه وآله، في لحظةٍ فارقة كان فيها بقاء الرسالة مهدداً. استحضار هذا النموذج في الرواية ليس اعتباطياً، بل يراد به الإشارة إلى أن الزيارة المنتظمة للإمام الحسين (عليه السلام) تضع الإنسان من حيث الأثر المعنوي في خط أولئك الذين نصرّوا الدين في أصعب مراحلهم.



أما العدد «مئة ألف»، فهو من أساليب البيان التي تُستخدم لإبراز السعة والعظمة، لا لمجرد الإحصاء. كأن الرواية تقول: إن هذا العمل، إذا صدر عن وعيٍ واستمرار، يفتح للإنسان أبوابًا من القرب لا تُقاس بمقاييسنا المعتادة.

والسر في ذلك يعود إلى طبيعة الإمام الحسين (عليه السلام) نفسه؛ فهو ليس مجرد شخصية تاريخية، بل هو عنوان لذروة التضحية في سبيل الحق. فمن يداوم على زيارته، إنما يداوم على استحضار هذا المعنى، فيترى عليه، ويتشرب به، ويتحوّل تدريجيًا إلى إنسانٍ أقرب إلى روح الشهادة، وإن لم يحمل السيف أو يُقتل في ساحة قتال.

ومن زاوية أخرى، فإن “الزيارة الشهرية” تعني إعادة الشحن المستمر؛ فالقلب يضعف، والهمة تفتر، لكن هذا التكرار يعيد الإنسان كل مرة إلى مركز النور، فيستعيد وضوحه، ويصحح مساره. ومع هذا التراكم، يصبح الأثر عظيمًا إلى الحد الذي عبّرت عنه الرواية بهذه الأرقام الكبيرة.

كما أن ذكر «شهداء بدر» بالخصوص يحمل دلالة نوعية، لا كمية فقط؛ فهم ليسوا أي شهداء، بل هم الذين كانوا في بداية الطريق، حيث الامتحان أشد، والعدد أقل، والخطر أكبر. فالتشبيه بهم يعني أن الزيارة المنتظمة تُنشئ في الإنسان روح الثبات في اللحظات الصعبة، لا مجرد العاطفة العابرة.





إنها دعوة لأن تتحول زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) إلى عادة روحية راسخة، لا ينقطع معها الخيط بين الإنسان وبين كربلاء، حتى يصبح هذا الارتباط جزءاً من تكوينه، يرفعه إلى مقاماتٍ عبّرت عنها الرواية بلغة الشهادة وعظمتها.





الحديث الخامس والعشرون

عن أبي عبد الله (عليه السلام) في حديث قال: {ومن زار قبر الحسين (عليه السلام) عارفاً بحقه كتب الله له ثواب ألف حجة مقبولة، وغفر له ماتقّدم من ذنبه وما تأخر}.
له ماتقّدم من ذنبه وما تأخر}.

هذا الحديث الشريف الوارد عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام في فضل زيارة قبر الإمام الحسين بن علي عليهما السلام من النصوص التي تفتح أمام المتأمل باباً واسعاً لفهم منزلة الزيارة في الوعي الديني والعقائدي، فهي ليست حركة جسدية يقطع فيها الإنسان مسافةً إلى قبر، ولا مجرد ممارسة وجدانية عاطفية، بل هي فعل عبادي ومعرفي وروحي متكامل، يحمل في داخله أبعاداً من المعرفة، والانتماء، والولاء، والتزكية، وإعادة بناء الإنسان.

فقوله (عليه السلام): «ومن زار قبر الحسين عارفاً بحقه» هو مفتاح الحديث كلّ، بل هو الشرط الذي يفسّر ما بعده من الثواب العظيم. فالزيارة هنا لم تُعلّق على مجرد الوصول، لأن الوصول قد يتحقق من أي إنسان، مؤمناً كان أو غير مؤمن، محبّاً أو باحثاً أو حتى سائحاً. لكن الإمام صلوات الله عليه لا يتحدث عن مطلق الزيارة، وإنما عن زيارة مخصوصة مشروطة بالمعرفة.





والمعرفة هنا ليست معرفة اسمية أو تاريخية، كأن يعرف الزائر أن هذا قبر الإمام الحسين بن علي عليه السلام، أو يعرف تاريخ واقعة معركة كربلاء، فهذه معرفة سطحية قد يشترك فيها كثيرون. إنما المقصود بـ«عارفاً بحقه» أن يدرك الإنسان من هو الإمام الحسين عليه السلام في ميزان الله سبحانه وتعالى، وما هو موقعه في مشروع الهداية الإلهية.

أن يعرف حق الإمام الحسين عليه السلام يعني أن يعرف أنه لم يكن رجلاً ثائراً بالمعنى السياسي الضيق، ولا شخصية تاريخية انتهى دورها في القرن الأول الهجري، بل إماماً مفترض الطاعة، وامتداداً لرسالة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله، وحاملاً لمشروع الإصلاح في الأمة. أن يعرف الزائر أن الإمام الحسين عليه السلام خرج لا طلباً لسلطة، بل دفاعاً عن جوهر الدين، وعن العدالة، وعن الكرامة الإنسانية، وعن بقاء الإسلام حيّاً غير مشوّه.

وحين يصل الإنسان إلى هذا المستوى من الإدراك، تصبح زيارته موقعاً وجودياً، لا مجرد حضور مكاني. فهو حين يقف عند القبر الشريف، كأنه يقول بلسان حاله: أنا أفهم مشروعك، وأعلن انتمائي إلى خطك، وأتبرأ من خط الظلم والانحراف الذي قاتلك.

من هنا نفهم لماذا رُتّب هذا الثواب العظيم.





فقوله: «كتب الله له ثواب ألف حجة مقبولة» ليس المقصود به مجرد المقارنة الرقمية الحسائية، وكأن المسألة جدول حسنات جامد. الرقم هنا يكشف عن ضخامة الأثر المعنوي لهذه الزيارة. فالحج في أصله رحلة توحيد وتجرد وانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى، يخرج الإنسان فيها من عاداته، ويلبس لباس الفقر، ويعلن عبوديته الخالصة.

لكن زيارة الإمام الحسين عليه السلام مع المعرفة بحقه . تجمع إلى معنى العبودية معنى الوعي الرسالي. ففي الحج يعلن الإنسان: لبيك اللهم لبيك. وفي زيارة الإمام الحسين عليه السلام يعلن إضافة إلى ذلك: لبيك يا مشروع الحق، لبيك يا رمز التضحية، لبيك يا خط الإمامة والعدل.

فكأن الزيارة الواعية ليست عبادة فردية فقط، بل عبادة تحمل مضموناً حضارياً وأخلاقياً وسياسياً وروحياً. ولهذا استحققت هذا الثواب الاستثنائي.

ثم يأتي المقطع الأكثر إثارة للتأمل: «وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر».

هذا التعبير لا ينبغي أن يُفهم فهماً ساذجاً، كأن الزيارة تمنح الإنسان رخصة مفتوحة للمعصية، أو تمحو الذنوب بلا تحوّل داخلي. فالمغفرة في منطق النصوص الدينية مرتبطة بتحول الإنسان، لا بمجرد أداء شكلي.



إن زيارة الإمام الحسين عليه السلام الحقيقية تصنع هزة في داخل الإنسان. فحين يقف الزائر أمام قبر رجل قدّم أبناءه وأصحابه ونفسه قرباناً لله سبحانه وتعالى، وسقى الأرض بدمه كي لا يموت الحق، يشعر الإنسان بضالة شهواته، وتفاهة أنانيته، وحقارة ذنوبه أمام هذا المشهد العظيم.

هناك نوع من التطهير الوجداني يحدث في أعماق الزائر. إنه يعيد ترتيب أولوياته. يراجع نفسه. يستحي من الاستمرار في الخطأ وهو يعلن ولاءه للإمام الحسين عليه السلام.

ولهذا تكون المغفرة نتيجة طبيعية لهذه الولادة الروحية الجديدة. فالإنسان الذي خرج من الزيارة غير الإنسان الذي دخلها.

إنه يعود أخفّ روحاً، أصفى قلباً، أكثر استعداداً للتوبة، وأشدّ ارتباطاً بالله.

أما قوله: «ما تقدم وما تأخر» فهو تعبير عن شمول الرحمة الإلهية واتساعها لمن دخل في هذا المسار بصدق. أي أن هذه الزيارة تفتح للإنسان باباً واسعاً من العناية الإلهية المستمرة، ما دام محافظاً على مقتضيات هذه المعرفة وهذا الولاء.

فالحديث في جوهره يريد أن يقول: إن الإمام الحسين عليه السلام ليس مجرد مزار، بل مدرسة لإعادة صناعة الإنسان.





من زاره عارفًا بحقه، لم يزر قبرًا صامتًا، بل دخل في حوار مع معنى
التضحية، والحق، والإيمان، والصبر، والثبات.

ولذلك لم يكن الجزاء عاديًا، لأن الفعل نفسه ليس عاديًا.

إنها رحلة إلى قبر، نعم، لكنها في الحقيقة رحلة إلى الذات؛ رحلة يعود
منها الإنسان وهو أكثر وعيًا بمعنى الدين، وأكثر فهمًا لقيمة الموقف،
وأكثر استعدادًا لأن يعيش حياته على نهج الإمام الحسين عليه السلام.

فزيارة الأمام الحسين عليه السلام ليست نهاية الطريق، بل بدايته. ومن
عرف حق الإمام الحسين عليه السلام حقًا، لا يمكن أن يبقى بعد
الزيارة كما كان قبلها.





الحديث السادس والعشرون

عن ابن عباس، عن النبي (ص) أنه أخبره بقتل الحسين (عليه السلام) إلى أن قال: { من زاره عارفاً بحقه كتب الله له ثواب ألف حجة وألف عمرة، ألا ومن زاره فقد زارني، ومن زارني فكأثما زار الله، وحق على الله أن لا يعذبه بالنار، ألا وإن الإجابة تحت قبته، والشفاء في تربته، والأئمة من ولده }.

هذا الحديث المروي عن عبد الله بن عباس، عن محمد بن عبد الله، في شأن الإمام الحسين بن علي عليهما السلام، ليس مجرد خبر عن فضل زيارة، بل هو نصّ تأسيسي يكشف عن موقع الإمام الحسين عليه السلام في البنية العميقة للدين، وعن العلاقة العضوية بين النبوة والإمامة، بين الأصل والامتداد، بين الرسالة والتجسيد الحي لها.

حين يبدأ الحديث بالإخبار عن القتل، فهو لا يفتح سرداً تاريخياً، بل يؤسس لوعي مسبق بالمأساة. كأن النبي صلى الله عليه وآله لا يريد للأمة أن تتفاجأ بوقوع الفاجعة في معركة كربلاء، بل يريد أن يزرع في وعيها أن ما سيجري ليس حادثة عابرة، بل مفصل يختبر صدق الانتماء إلى هذا الدين. إن الإخبار هنا ليس نقلاً للمستقبل، بل تحميل للمسؤولية: من يعرف، لا يُعذر إن انحرف.





ثم يأتي قوله: «من زاره عارفًا بحقه»، ليعيد التأكيد على تلك الحقيقة المركزية: أن كل ما سيأتي من عطاءٍ إلهي، إنما ينبع من هذه المعرفة. فالإمام الحسين عليه السلام لا يُزار بوصفه قتيلاً مظلومًا فحسب، بل بوصفه إمامًا قائمًا بوظيفة إلهية. معرفته تعني إدراك أن دمه لم يُسفك في سياق صراعٍ شخصي، بل في سياق صيانة الدين من التحريف، وإحياء روح الرسالة التي جاء بها جدّه.

وعند هذا المستوى من الفهم، تصبح الزيارة انخراطًا في مشروع، لا مجرد تعاطف مع مأساة.

ثم يرتقي البيان إلى مستوى آخر: «كتب الله له ثواب ألف حجة وألف عمرة».

هنا يتضاعف المعنى الذي ورد في الرواية السابقة، ولكن بإضافة «العمرة» إلى «الحج»، وكأن النص يريد أن يقول: إن هذه الزيارة تختزل معاني العبودية المستمرة (العمرة) ومعاني الذروة الروحية الجامعة (الحج). فهي عبادة تجمع الامتداد والذروة معًا، الاستمرار والانفجار الروحي في لحظة واحدة.

لكن الذروة الحقيقية في الحديث تتجلى في قوله: «ألا ومن زاره فقد زارني، ومن زارني فكأنما زار الله».





هذا التسلسل ليس مجازيًا بسيطًا، بل هو بناء عقدي دقيق. فالنبي صلى الله عليه وآله لا يجعل للإمام الحسين عليه السلام بديلاً عنه، بل امتداداً له. وزيارة الإمام الحسين عليه السلام ليست التفافاً على مقام النبوة، بل وصولاً إليه عبر بابه الحقيقي.

لأن الأمام الحسين عليه السلام هو الامتداد الصادق للنبي المصطفى صلى الله عليه وآله، في القيم، في الموقف، في الرسالة.

فمن وقف عند الإمام الحسين عليه السلام، وقد وعى حقه، إنما وقف عند الحقيقة المحمدية المتجسدة. ومن هنا كانت زيارته زيارةً للنبي الإكرم صلى الله عليه وآله، لا بمعنى الانتقال المكاني، بل بمعنى الاتصال الروحي والمعرفي.

أما قوله: «ومن زارني فكأنما زار الله»، فهو لا يُفهم على ظاهره الحسي، فالله منزّه عن المكان، وإنما يُفهم في إطار القرب المعنوي. أي أن من بلغ في اتصاله بالنبي صلى الله عليه وآله هذا المستوى من الصدق، فقد بلغ مقام القرب من الله سبحانه وتعالى، لأن النبي صلى الله عليه وآله هو الدليل عليه، والباب إليه، والمظهر الأكمل لطاعته.

ثم تأتي النتيجة: «وحق على الله أن لا يعذّبه بالنار».





وهنا ينبغي التوقف بعمق. ف«الحق على الله» ليس إلزامًا من خارج، بل هو تعبير عن وعدٍ إلهي ثابت، يجري وفق سنن الهداية. أي أن من بلغ هذه الدرجة من الوعي، وهذا المستوى من الارتباط الصادق بالإمام الحسين عليه السلام، لا يبقى إنسانًا عاديًا في سلوكه ومساره، بل يتحول إلى إنسانٍ آخر، لا تنسجم النار مع حقيقته الجديدة.

فالجنة والنار ليستا فقط جزاءً مفروضًا، بل هما امتداد لحقيقة الإنسان. ومن تغيرت حقيقته، تغير مصيره.

ثم ينتقل الحديث إلى أبعاد أخرى من بركات الإمام الحسين عليه السلام: «ألا وإن الإجابة تحت قبته».

هنا يتحول المكان من جغرافيا إلى حضورٍ إلهي خاص. «القبة» ليست مجرد بناء معماري، بل رمز لموضع تجلٍّ للرحمة الإلهية. كأن هناك نقطة في الأرض تتكثف فيها قابلية الدعاء للإجابة، لأن هذا المكان ارتوى بدمٍ قدّم كل شيء لله.

فالذي يقف هناك، لا يقف في فراغ، بل في ساحة مشبعة بمعنى الإخلاص والتضحية، وهذا ما يجعل الدعاء أقرب إلى القبول، لأن البيئة الروحية نفسها مهیئة لذلك.





ثم يقول: «والشفاء في تربته».

وهذا البعد يفتح بابًا آخر، حيث تتحول تربة الإمام الحسين عليه السلام إلى عنصر يحمل أثر تلك التضحية. ليس الأمر مادةً فيزيائية فحسب، بل أثرٌ معنوي انعكس حتى على المادة. وكأن الدم الذي سُفِكَ هناك لم يحيِ القيم فقط، بل أودع في الأرض سرًّا من أسرار الرحمة.

فالشفاء هنا لا يُختزل في البعد الجسدي، وإن شمله، بل يمتد إلى الشفاء الروحي، من أمراض القلوب، من القسوة، من الغفلة، من الانكسار الداخلي.

وأخيرًا يختم الحديث بقوله: «والأئمة من ولده».

وهذا هو الامتداد الطبيعي لكل ما سبق. فالإمام الحسين عليه السلام ليس نهاية خط، بل بداية سلسلة من الهداة الذين يحملون مشروعه. وكأن الدم الذي أريق في كربلاء لم يُنه المسيرة، بل ضمن استمرارها في نسلٍ يحمل نفس النور، ونفس الوظيفة، ونفس المسؤولية.





فالحديث في مجموعه يرسم خريطة متكاملة:
مأساة معلومة مسبقاً،
وزيارة مشروطة بالمعرفة،
وثوابٌ يكشف عن عظمة الفعل،
واتصالٌ روحي يصل إلى النبي صلى الله عليه وآله ثم إلى الله سبحانه
وتعالى،
وأمانٌ من النار نتيجة التحول الداخلي،
ومكانٌ تتجلى فيه الإجابة،
وتربةٌ تحمل الشفاء،
وامتدادٌ في خط الإمامة.

إنه ليس حديث فضلٍ فقط، بل حديث هوية: من هو الإمام الحسين
عليه السلام في الدين؟ وما معنى أن تنتمي إليه؟ وماذا يحدث للإنسان
إذا دخل في هذا الانتماء بصدق؟

ومن يقرأ هذا الحديث بوعي، يدرك أن زيارة الإمام الحسين عليه
السلام ليست محطة عاطفية، بل مشروع تحولٍ كامل... يبدأ بخطوة
نحو القبر، لكنه لا ينتهي إلا بإعادة تشكيل القلب والعقل والحياة
كلها.





الحديث السابع والعشرون

عن عبد الله بن ميمون، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قلت له: { ما لمن زار قبر الحسين عليه السلام عارفاً بحقه غير مستكبر ولا مستنكف؟ قال: يكتب له ألف حجة مقبولة وألف عمرة مقبولة، وإن كان شقيّاً كتب سعيداً ولم يزل يخوض في رحمة الله }.

حين يفتح الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام هذا الباب بسؤالٍ يبدو في ظاهره طلباً لبيان الثواب، فإنّه في عمقه إنما يدعو السامع إلى رحلةٍ داخل النفس قبل أن تكون رحلةً إلى قبر الإمام الحسين عليه السلام. فالسؤال ليس: كم ينال الزائر؟ بل: من هو هذا الزائر الذي يستحق هذا الفيض؟

يقول السائل: ما لمن زار قبر الحسين عارفاً بحقه غير مستكبر ولا مستنكف؟

وهنا تتشكل ملامح الطريق... ليس طريقاً ترايياً ينتهي عند ضريح، بل طريقاً باطنياً يبدأ من لحظة صدقٍ مع الذات.

أن يكون «عارفاً بحقه»... كأنك لا تتوجه إلى جسدٍ غيّه التراب، بل إلى معنى لا يزال حياً، نابضاً في وجدان الرسالة. أن تعرف الإمام الحسين عليه السلام، يعني أن تدرك أن هذا الذي سكن كربلاء لم يكن حدثاً عابراً في التاريخ، بل كان ميزاناً فاصلاً بين حقٍ أراد أن يبقى، وباطلٍ أراد أن يتزيّن بثياب الدين.



أن تعرفه، يعني أن ترى فيه الامتداد الصافي لرسالة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله، وأن تفهم أن دمه لم يُسْفَك إلا ليقى هذا الدين نقياً كما أنزل.

لكن المعرفة وحدها لا تكفي... كم من عارفٍ لم ينتفع بعلمه، لأن بينه وبين الحقيقة حجاباً اسمه «الذات».

ولهذا يأتي القيد الثاني: «غير مستكبر». فلاستكبار ليس جهلاً، بل موقف. أن تعرف الحق، ثم ترى نفسك أكبر من أن تخضع له، أرفع من أن تنتمي إليه، أسمى من أن تذوب في خطّه. هو أن تقف أمام الإمام الحسين عليه السلام، لكنك في داخلك لا تزال متمسكاً بأنك، برؤيتك، بمصالحك، بقياساتك الخاصة.

ثم يضيف: «ولا مستنكف». وكأن الإمام صلوات الله وسلامه عليه يلتفت إلى لونٍ آخر من الحجب... ليس تعالياً صريحاً، بل انكماشاً خفياً. أن لا ترفض الحق، لكنك لا تقبله أيضاً. أن تقف على الحافة، لا تدخل ولا تنسحب. نوعٌ من البرود الداخلي، من التردد، من الإحجام عن الانخراط الكامل.

فإذا اجتمعت المعرفة، وسقط الاستكبار، وزال الاستنكاف... حينها فقط يولد «الزائر».





وعند هذه اللحظة، لا يعود الحديث عن ثوابٍ تقليدي، بل عن حدثٍ كبير.

«يكتب له ألف حجة مقبولة وألف عمرة مقبولة»...

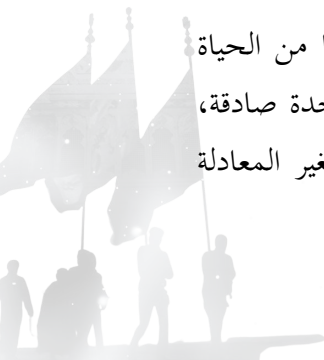
كأن الإمام عليه السلام لا يقيس العمل بعدده، بل بعمقه. فالحج رحلة خروج من الذات، والعمرة تكرار لهذا الخروج. لكن زيارة الإمام الحسين عليه السلام بهذه الروح تختصر الطريق، لأنك لا تخرج من ذاتك عبر الطواف حول حجر، بل عبر الوقوف أمام دمٍ قال لله: خذ حتى ترضى.

هناك، عند القبر، لا يبقى للإنسان ما يتكئ عليه. يرى التضحية في أقصى صورها، فينكسر شيءٌ في داخله... ذلك الشيء الذي كان يمنعه من الخضوع الحقيقي.

ثم تأتي العبارة التي تُزلزل المعنى كله:
«وإن كان شقيًّا كُتِبَ سعيدًا».

أي تحوّل هذا؟

أن يكون الإنسان قد سار في دروبٍ مظلمة، اعتاد نمطاً من الحياة بعيداً عن الله سبحانه وتعالى، ثم تأتي لحظة... لحظة واحدة صادقة، يقف فيها عند الإمام الحسين عليه السلام كما ينبغي، فتتغير المعادلة كلها.





ليس لأن الكلمات قيلت، ولا لأن المسافة قُطعت، بل لأن الداخل تبدّل. لأن الإنسان في تلك اللحظة لم يعد هو نفسه. شيءٌ ما انكسر، وشيءٌ آخر وُلد.

وهنا لا يكون «الشقاء» قدرًا مغلقًا، بل مسارًا يمكن أن يُعاد رسمه.

ثم يختم الإمام صلوات الله عليه الصورة بعبارَةٍ تفيض حياة:

«ولم يزل يخوض في رحمة الله».

ليس «دخل الرحمة» ثم خرج، ولا «نال منها نصيبًا» ثم انتهى الأمر... بل «يخوض».

كأن الرحمة بحر، وهذا الإنسان قد أُلقي فيه، أو أُلقي البحر فيه.

يتحرك فيها، يعيش بها، تحيط به من كل جانب.

تتغير نظرتَه، تلين قسوته، يرقّ قلبه، يستحي من الله سبحانه وتعالى، ويأنس به.

وهكذا تتحول الزيارة...

من خطوةٍ نحو قبر، إلى غمرٍ في رحمة.

من معرفةٍ في الذهن، إلى انكسارٍ في القلب.

من عملٍ محدود، إلى حياةٍ جديدة.

فليس السؤال بعد هذا: ماذا ينال الزائر؟

بل: من الذي خرج من تلك الزيارة؟

إنه لم يعد ذلك الذي جاء...

بل إنسانٌ آخر، كُتب في سجلٍ جديد، وبدأ يسير في طريقٍ عنوانه:

الرحمة التي لا تنتهي.





الحديث الثامن والعشرون

عن ابن بكير، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قلت له: إنّ قلبي ينازعني زيارة قبر أبيك، وإذا خرجت وقلبي وجل مشفق حتى أرجع خوفاً من السلطان والسعاة وأصحاب المصالح، فقال: { يا ابن بكير أما تحب أن يراك الله فينا خائفاً؟ أما تعلم أنه من خاف لخوفنا أظله الله في ظلّ عرشه؟. وكان يحدثه الحسين (عليه السلام) تحت العرش، وآمنه الله من أفراع يوم القيامة، يفزع الناس ولا يفزع، فإن فزع وقرّته الملائكة وسكنت قلبه بالبشارة }.

في هذا النصّ، يفتح الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام نافذةً على بُعد آخر من أبعاد الارتباط بالإمام الحسين عليه السلام؛ بُعد لا يقوم على الطمأنينة الظاهرة، بل على الخوف... ولكن أيّ خوف؟ ليس خوفاً يُضعف، بل خوفاً يكشف صدق الانتماء.

يبدأ المشهد بقلبٍ متردّد، لا لأنه لا يحب، بل لأنه يحبّ حدّ القلق. يقول السائل: إنّ قلبي ينازعني زيارة قبر أبيك... كأن داخله ساحة صراع: شوقٌ يشدّه نحو كربلاء، وخوفٌ يقيّده عند حدود السلامة. ليس خوفاً من الطريق، بل من السلطة، من العيون التي تترصد، من «السعاة وأصحاب المصالح» الذين يحوّلون الحبّ إلى تهمة، والزيارة إلى مخاطرة.





إنها صورة زمنٍ كانت فيه زيارة الإمام الحسين عليه السلام فعلَ تحدٍّ، لا طقسًا آمنًا. كان الزائر يمشي وهو يلتفت، لا لأنه شاكّ في وجهته، بل لأنه يدرك ثمنها.

وهنا يأتي جواب الإمام صلوات الله عليه... لا ليزيل الخوف، بل ليعيد تعريفه.

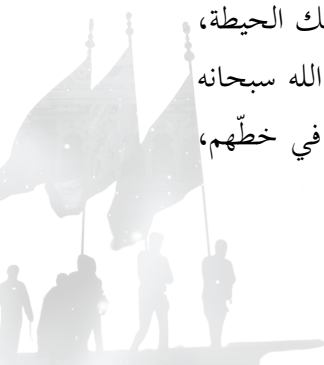
«يا ابن بكير، أما تحب أن يراك الله فينا خائفًا؟»

إنه قلبٌ للمفهوم. فالمطلوب ليس أن يزول الخوف، بل أن يُعاد توجيهه. أن يتحول من حالة ضعف إلى علامة صدق. كأن الإمام صلوات الله عليه يقول: هذا الوجل الذي تعيشه ليس نقصًا، بل دليل حياة. لأنك تخاف لأجلنا، لا لأجل نفسك فقط. تخاف لأنك اخترت طريقًا تعرف أنه ليس بلا ثمن.

ثم يفتح له أفقًا آخر:

«أما تعلم أنه من خاف لخوفنا أظله الله في ظلّ عرشه؟»

هنا يتحول الخوف إلى جسر. ذلك الارتجاف الداخلي، تلك الحيلة، تلك النظرات المتلפתة... كلّها تُكتب في ميزان القرب من الله سبحانه وتعالى. لأنك لم تخف على دنيائك، بل خفت وأنت تسير في خطّهم، في طريقٍ يحمل اسمهم.





وظلّ العرش ليس مجرد صورة، بل تعبير عن الأمان الأعلى. كأن من عاش القلق في الدنيا لأجلهم، يُعطى في الآخرة طمأنينةً لا يشوبها خوف.

ثم ترتقي الصورة إلى مستوى يكاد يلامس الغيب:
«وكان يحدثه الإمام الحسين عليه السلام تحت العرش».

أي منزلة هذه؟
أن لا تكون الزيارة فقط وقوفًا عند قبر، بل لقاءً يمتدّ إلى ما بعد الموت، إلى عوالم القرب. كأن العلاقة بالإمام الحسين عليه السلام لا تنتهي عند حدود الأرض، بل تُستكمل في فضاءٍ أوسع، حيث يصبح الحديث معه مقامًا، لا مجرد ذكرى.

ثم تأتي الطمأنينة الكبرى:
«وآمنه الله من أفراع يوم القيامة، يفرع الناس ولا يفرع».

يومٌ تتزلزل فيه القلوب، وتضطرب فيه النفوس، ويهرب الإنسان من كل شيء... لكن هذا الذي خاف في الدنيا لأجل الإمام الحسين عليه السلام، لا يعرف ذلك الفرع. لأنه ذاق الخوف هناك، فاستُبدل له هنا أمنًا.





وكان المعادلة واضحة:

خوفٌ في طريقهم هنا... أمانٌ في حضرة الله سبحانه وتعالى هناك.
ثم يضيف الإمام صلوات الله عليه لمسةً أخيرة، حانية، مطمئنة:
«فإن فزع، وقرته الملائكة وسكنت قلبه بالبشارة».

حتى لو مرّت عليه لحظة ارتباك، لحظة بشرية عابرة، فإن العناية الإلهية
تتدخل. الملائكة لا تتركه، بل تحتضن خوفه، تحوّلته إلى سكينه،
تبشّره، ترفع عنه ثقل اللحظة.

إنه إنسان لم يكن خاليًا من الخوف، لكنه وجّه خوفه الوجهة
الصحيحة... فصار خوفه عبادة، و صار قلقه طريقًا إلى الطمأنينة.

وهكذا يعيد هذا الحديث صياغة المفاهيم:

ليس الشجاع من لا يخاف، بل من يخاف في الموضع الصحيح.
وليس الأمن لمن عاش بلا تهديد، بل لمن اختار الحق رغم التهديد.
زيارة الإمام الحسين عليه السلام هنا ليست مجرد انتقالٍ في المكان،
بل موقفٌ يُختبر فيه القلب:
هل تمشي إليه ولو خفت؟
هل تختاره ولو كلّفك ذلك قلقًا؟

فإن فعلت... لم يعد خوفك عليك، بل صار لك.

وصار طريقك، وإن كان محفوفًا بالمخاوف، طريقًا ينتهي إلى ظلّ
العرش، وإلى قلبٍ لا يعرف الفزع بعد ذلك أبدًا



الحديث التاسع والعشرون

عن أبي بصير، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: { من أحب أن يكون سكنه في الجنة ومأواه الجنة فلا يدع زيارة المظلوم. فقلت: ومن هو؟ قال: الحسين ابن علي (ع) فمن أتاه شوقاً إليه وحباً لرسول الله وحباً لفاطمة وحباً لأُمير المؤمنين: أقعده الله على موائد الجنة يأكل معهم والناس في الحساب }.

حين يُلقِي الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام هذه الكلمات، لا يبدو أنه يقدِّم توصيةً عابرة بعملٍ مستحب، بل يرسم طريقاً واضح المعالم لمن أراد أن يعرف أين يضع قلبه، وإلى أين يوجّه خطاه. إنّه لا يتحدث عن «عملٍ» يُضاف إلى قائمة الأعمال، بل عن علاقةٍ تُبنى، وعن انتماءٍ يُختار.

«من أحب أن يكون سكنه في الجنة ومأواه الجنة فلا يدع زيارة المظلوم»... هنا يبدأ الخطاب من الغاية الكبرى، من السؤال الذي يختبئ في أعماق كل إنسان: أين المصير؟ أين الاستقرار النهائي؟ لكن الإمام صلوات الله عليه لا يجيب بعباداتٍ متفرقة، بل يدلّ على بابٍ واحدٍ جامع... «زيارة المظلوم».

كأن الجنة ليست فقط نتيجة أعمال متراكمة، بل ثمرة موقفٍ واضح من الظلم والعدل. فمن أراد أن يسكن دار الكرامة، فعليه أن يحدّد موقعه في معادلة الحق.



وحين يسأل السائل: ومن هو؟

لا يترك الإمام عليه السلام الباب مفتوحًا للتأويل، بل يحدّد المصداق الأوضح، الأصفى، الذي تجمّعت فيه كل معاني المظلومية: «الإمام الحسين عليه السلام».

ليس لأنه الوحيد الذي ظلم، بل لأنه المظلوم الذي صار ظلمه معيارًا يُقاس به كل ظلم، والحق الذي استُهدف ليُطفأ، فصار بدمه أكثر إشعاعًا.

ثم ينتقل الإمام صلوات الله عليه من «الفعل» إلى «الدافع»...
«فمن أتاه شوقًا إليه...»

وهنا يتغيّر المشهد. لم تعد الزيارة مجرد امتثال، بل تحوّلت إلى انجذاب. الشوق ليس قرارًا عقليًا باردًا، بل حركة قلبٍ لا يهدأ. أن تشتاق للإمام الحسين عليه السلام، يعني أن في داخلك صلةً حيّةً به، أن اسمه ليس ذكرى، بل حضور.

ثم يضيف:

«وحبًّا لرسول الله» النبي الأكرم صلى الله عليه وآله،

«وحبًّا لفاطمة» فاطمة الزهراء عليه السلام،

«وحبًّا لأُمير المؤمنين» علي بن أبي طالب عليه السلام.





وكان الإمام صلوات الله عليه يريد أن يقول: إن زيارة الإمام الحسين عليه السلام ليست فعلاً منفصلاً، بل هي عقدة شبكة من المحبة، تمتد إلى أصل الرسالة. فمن أحب الإمام الحسين عليه السلام حقاً، فإنما يحبه لأنه امتداد لأولئك، ولأنه يجسد قيمهم، ويختصر تاريخهم.

فالزيارة هنا تصبح إعلان ولأى شامل، لا لشخصٍ منفرد، بل لخطٍ كامل.

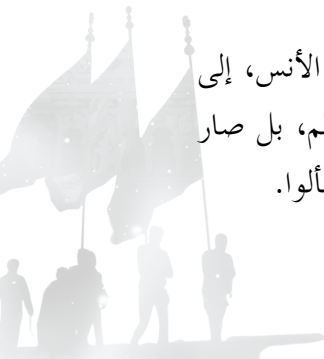
وعند هذه النقطة، يبلغ الحديث ذروته في الصورة التي يرسمها: «أقعد الله على موائد الجنة، يأكل معهم والناس في الحساب».

أيُّ تكريمٍ هذا؟

الناس في ذلك اليوم مشغولون بأنفسهم، غارقون في حسابٍ دقيق، في قلق الانتظار، في رهبة المصير... وهذا الإنسان في مكانٍ آخر، في حالةٍ أخرى.

ليس واقعاً في طابور الحساب، بل جالسٌ على «موائد الجنة».

والجلوس هنا ليس مجرد راحة، بل إشارة إلى القرب، إلى الأُنس، إلى الضيافة الخاصة. كأن هذا الزائر لم يعد غريباً في ذلك العالم، بل صار من أهل البيت صلوات الله عليهم الذين يُستقبلون قبل أن يُسألوا.





و«يأكل معهم»... عبارة تختصر المسافة بين العبد والكرامة. ليس مجرد دخولٍ إلى الجنة، بل مشاركة في نعيمها منذ اللحظة الأولى، وكأن الحساب قد طُوي عنه، أو لم يعد هو المعبر الوحيد.

إنها نتيجة ذلك الحبّ الذي تحوّل إلى موقف، وتلك الزيارة التي لم تكن عادة، بل تعبيرًا عن انتماء.

وهكذا، يعيد الحديث ترتيب الأولويات:
ليست القضية كم عملت... بل مع من كنت.
ليس كم جمعت من الطاعات... بل إلى أي خطٍ انتميت.

فمن اختار الإمام الحسين عليه السلام، شوقًا، وحبًا، ووعيًا...
لم يختر زيارة قبرٍ فحسب،
بل اختار موقعه في الآخرة...
موقعًا لا يبدأ بالحساب، بل يبدأ بالضيافة





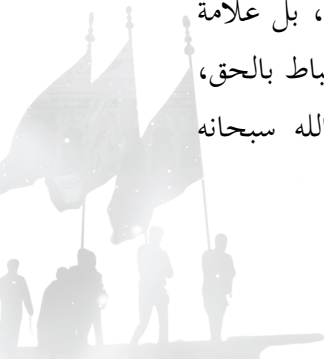
الحديث الثلاثون

عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: { من أراد الله به الخير قذف في قلبه حبّ الحسين وحبّ زيارته، ومن أراد الله به السوء، قذف في قلبه بغض الحسين (عليه السلام) وبغض وزيارته }.

حين ينطق الإمام الصادق عليه السلام بهذا البيان، فإنّه لا يحدث عن مجرد عاطفة عابرة تسكن القلب، بل يكشف عن قانونٍ دقيقٍ في باطن الهداية... قانونٍ تُقرأ فيه مصائر الإنسان من خلال ما يميل إليه قلبه، وما ينفر منه.

«من أراد الله به الخير قذف في قلبه حبّ الحسين وحبّ زيارته»... تعبیر «قذف» هنا ليس عادياً، فهو لا يدلّ على إدخالٍ تدريجي، بل على إلقاءٍ مفاجئ، كأن النور يلقى في القلب إلقاءً، فيستقرّ فيه بلا استئذان. ليس لأن القلب لم يكن مهياً، بل لأنه صار مستحقاً لهذا الفيض.

فحبّ الإمام الحسين عليه السلام ليس مجرد ميل وجداني، بل علامة اصطفاء... إشارة إلى أن في داخل هذا الإنسان قابليّةً للارتباط بالحق، واستعداداً لأن يفتح على خطّ يمثّل ذروة الصدق مع الله سبحانه وتعالى.





إنه حبّ لا يأتي من فراغ... بل من انسجامٍ خفي بين طبيعة القلب وبين حقيقة الإمام الحسين عليه السلام. فالإمام الحسين عليه السلام ليس شخصاً يُحبّ لذاته المجردة، بل لأنه تجسيدٌ للقيم التي يريدّها الله سبحانه وتعالى أن تبقى حيّة: الصدق، والتضحية، والعدل، والوفاء.

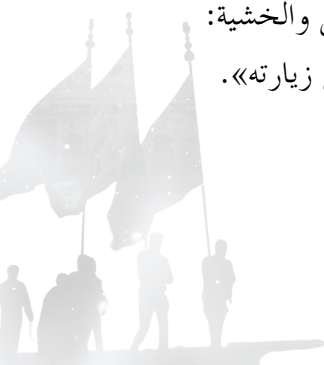
فإذا أُلقي هذا الحب في قلب إنسان، فكأنما أُعطي مفتاحاً... مفتاحاً لطريق يقوده، خطوةً بعد خطوة، نحو الله سبحانه وتعالى.

ثم يضيف الإمام صلوات الله عليه : «وَحَبِّ زيارته».

وكان الحبّ إذا كان صادقاً، لا يبقى ساكناً. يتحوّل إلى حركة، إلى شوق، إلى رغبة في الاقتراب. فليس كل من أحبّ في لسانه أحبّ في قلبه، لكن من أحبّ حقاً، انجذب، وسار، وطلب اللقاء.

فالزيارة هنا ليست عملاً منفصلاً عن الحب، بل امتداده الطبيعي. القلب يتحرّك بالجسد، والشوق يتحوّل إلى خطوات.

ثم تأتي الجهة الأخرى من الصورة... الجهة التي تثير التأمل والخشية: «ومن أراد الله به السوء قذف في قلبه بغض الحسين وبغض زيارته».





ليس الحديث هنا عن إنكارٍ فكري فقط، بل عن حالة قلبية: «بغض». أن ينقبض القلب حين يُذكر الإمام الحسين عليه السلام، أن يشعر بثقلٍ تجاه اسمه، أن ينفر من زيارته، أو يستهين بها، أو يجد في نفسه حاجزًا يمنعه من الاقتراب.

وهذا البغض، في منطق الحديث، ليس سببًا مستقلًا، بل نتيجة... نتيجة انسدادٍ داخلي، نتيجة انحرافٍ جعل القلب لا ينسجم مع هذا النور، بل يتأذى منه.

فالقلب حين يتعد عن الحق، لا يكتفي بعدم قبوله، بل يبدأ بالنفور منه.

وهنا لا بد من فهم دقيق:

«إرادة الله بالخير أو السوء» لا تعني الجبر، ولا تعني أن الإنسان يُدفع قسرًا إلى أحد الطريقين، بل تعني أن الله سبحانه وتعالى، بعلمه بعدل القلوب، يفيض عليها بما يناسب اتجاهها. فمن فتح قلبه للحق، زاده الله نورًا، ومن أعرض، تُرك لما اختار، فانغلق أكثر.

فحبّ الإمام الحسين عليه السلام... ليس بداية الطريق فقط، بل هو في الوقت نفسه ثمرةً مسارٍ داخلي، ودليلٌ عليه.





وهكذا يصبح القلب مرآة تكشف موقع الإنسان دون أن يتكلم:
إذا وجد في نفسه ميلاً إلى الإمام الحسين عليه السلام ، شوقاً إلى
ذكره، رغبةً في زيارته... فليعلم أن باب الخير قد فُتِحَ له، وأن في
داخله نوراً يريد أن يكبر.

وإذا وجد عكس ذلك... فليتوقف، لا لليأس، بل للمراجعة، لأن هذا
النفور ليس أمراً عابراً، بل إشارة تحتاج إلى إصلاح.

إن الحديث، في عمقه، لا يقسّم الناس إلى محبٍّ ومبغضٍ فحسب، بل
يدعو كل إنسان أن يسأل نفسه:
ماذا في قلبي تجاه الإمام الحسين عليه السلام ؟

لأن الجواب على هذا السؤال... ليس وصفاً لعاطفة،
بل كشفٌ عن طريق





الحديث الحادي والثلاثون

قال أبو عبد الله (عليه السلام) يقول: { من أتى قبر الحسين تشوقاً إليه كتبه الله من الآمنين يوم القيامة، وأعطى كتابه بيمينه، وكان تحت لواء الحسين بن علي حتى يدخل الجنة، فيسكنه في درجته أن الله سميع عليم }.

حين يحدث الإمام الصادق صلوات الله وسلامه عليه بهذا البيان، فإنه لا يرسم صورة ثوابٍ مجرّد، بل يفتح للروح مشهداً ممتداً من الدنيا إلى الآخرة، يبدأ بخفقة قلبٍ، وينتهي بمقامٍ في الجنة.

«من أتى قبر الحسين تشوقاً إليه...»

البداية هنا ليست «الإتيان» بقدر ما هي «التشوق». كأن الإمام عليه السلام يريد أن يقول: الطريق لا يُقاس بخطوات القدم، بل بحرارة القلب. قد يزور كثيرون، لكن الذي يأتي شوقاً هو الذي يحمل في داخله انجذاباً لا تفسّره العادة، ولا تفرضه المجاملة، بل يصدر من عمق وجداني يشعر أن بينه وبين الإمام الحسين عليه السلام رابطةً حيّة.

هذا الشوق ليس أمراً عابراً... إنّه علامة حياة القلب. القلب الذي لم يمت تحت ركام الانشغال، ولم تجفّ فيه ينابيع الارتباط بالحق. فحين يشتاقي إلى الإمام الحسين عليه السلام، إنما يشتاقي إلى المعنى الذي يمثّله، إلى التضحية، إلى الصدق، إلى الوقوف مع الله سبحانه وتعالى مهما كان الثمن.



ومن هذه البداية الصغيرة في ظاهرها، يولد مصيرٌ عظيم:

«كتبه الله من الآمنين يوم القيامة».

ذلك اليوم الذي تتزلزل فيه النفوس، وتضيق فيه الصدور، ويقف الإنسان عاريًا من كل ما كان يظنه سندًا... في ذلك اليوم، يُكتب هذا الزائر في سجلّ «الآمنين».

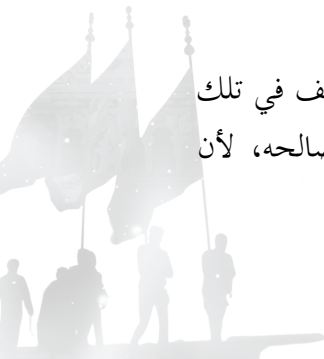
وليس الأمن هنا مجرد نجاة من العذاب، بل حالة سكونٍ عميقة، طمأنينة تسري في الكيان، كأن القلب الذي اضطرب شوقًا في الدنيا، استقرّ هناك استقرارًا لا يعكّره خوف.

ثم تتقدّم الصورة خطوة أخرى:

«وأعطي كتابه بيمينه».

وهذه ليست مجرد إشارة رمزية، بل إعلان فوزٍ واضح. فالإنسان يوم القيامة ينتظر مصيره في لحظة تسليم كتابه... هل يُعطاه بيمينه أم بشماله؟ لحظة تختصر حياته كلها.

وهذا الذي جاء إلى الإمام الحسين عليه السلام شوقًا، لا يقف في تلك الحيرة... يُعطى كتابه بيمينه، وكأن مصيره قد حُسم لصالحه، لأن اتجاهه في الدنيا كان واضحًا.





ثم يرتقي المشهد إلى بُعدٍ آخر من القرب والانتماء:

«وكان تحت لواء الحسين بن علي...»

اللواء ليس مجرد راية، بل عنوان الانتماء. يوم تتفرّق فيه الناس إلى رايات، كلّ يُدعى بإمامه، يقف هذا الإنسان تحت لواء الإمام الحسين عليه السلام.

أي أنّ علاقته بالإمام الحسين عليه السلام لم تكن زيارةً عابرة، بل تحوّلت إلى هوية. صار منسوباً إليه، محسوباً عليه، كأنما يقول له الموقف الإلهي: أنت لم تزر الإمام الحسين عليه السلام فقط... أنت صرت من خطّه.

ثم لا يقف الأمر عند هذا الحد:

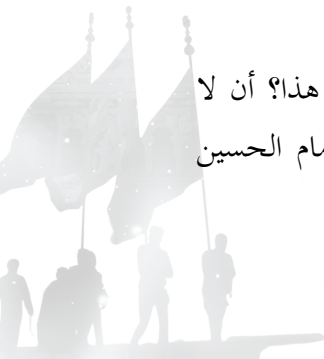
«حتى يدخل الجنة».

كأن هذا اللواء ليس موقفاً عابراً، بل طريقٌ يقوده، خطوةً بعد خطوة، حتى يبلغ الغاية.

لكن الذروة في الخاتمة:

«فيسكنه في درجته».

ليس مجرد دخول الجنة، بل السكن في درجته. أي قربٌ هذا؟ أن لا يكون الزائر في طبقة بعيدة، بل في مقامٍ يرتبط بمقام الإمام الحسين عليه السلام نفسه.





وهنا ينكشف السرّ:

أن الشوق الصادق لا يبقى شعورًا، بل يتحوّل إلى مصير.
وأن من انجذب إلى الإمام الحسين عليه السلام في الدنيا، لا يُترك
بعيدًا عنه في الآخرة.

ويختم الإمام صلوات الله عليه بقوله: «إنّ الله سميع عليم»...
كأنّه يدرك أن هذا الشوق، وإن خفي عن الناس، فهو مسموع عند الله
سبحانه وتعالى، معلوم لديه. تلك اللحظات التي يحنّ فيها القلب،
تلك الرغبة التي تدفع الإنسان نحو كربلاء، ذلك الاضطراب
الداخلي... كلّ محفوظ، مرصود، يُبنى عليه هذا الجزاء العظيم.

وهكذا، تتحوّل الزيارة من فعلٍ ظاهرٍ إلى قصةٍ كاملة:

تبدأ بشوقٍ في القلب،
فُتُكْتُبُ أُمْنًا في الآخرة،
و تُترجم فوزًا في الحساب،
وتنتهي قربًا لا يُوصف.

فليس السؤال: هل زرت؟

بل: هل اشتقت؟

لأن الشوق... هو الذي يكتب النهاية





الحديث الثاني والثلاثون

عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: { والله إنّ الله يباهي بزائر الحسين (ع) والوافد إليه الملائكة المقربين وحملة عرشه، فيقول لهم: أما ترون زوّار قبر الحسين أتوه شوقاً إليه وإلى فاطمة، وعزّتي وجلالي وعظمتي لأوجبنّ لهم كرامتي، ولأحبّنهم لمحبتني }.

حين يقسم الإمام الصادق صلوات الله وسلامه عليه بقوله: «والله»، فإنّنا لسنا أمام خيرٍ يُروى، بل أمام حقيقةٍ يُراد لها أن تستقرّ في القلب بلا تردّد. إنّّه يفتح باباً على مشهدٍ غيبيّ، يتجاوز حدود الأرض، ليكشف ما يجري في عوالم القرب الإلهي حين يتحرّك إنسانٌ بسيط في ظاهر حاله، قاصداً قبر الإمام الحسين عليه السلام.

«إنّ الله يُباهي بزائر الحسين...»

المباهاة هنا ليست كأَيّ مباهاةٍ بشرية، بل هي إظهارُ هذا العبد في مقام الكرامة أمام الملائكة الأعلى. كأن هذا الزائر، الذي قد لا يُلتفت إليه في الأرض، يُذكر اسمه في السماء، ويُشار إليه في حضرةٍ لا يحضرها إلا الصفوة.

ثم تتسع دائرة الشهود:

«والوافد إليه الملائكة المقربون وحملة عرشه».





ليست ملائكةً عاديين، بل «المقربون»، أولئك الذين يعيشون في دوائر القرب، و«حملة العرش»، الذين ارتبط ذكرهم بأعظم مظاهر القدرة والهيبة الإلهية. كأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعرض هذا المشهد أمام أعلى مراتب الوجود الملائكي، ليُريهم سرًّا من أسرار هذا الزائر.

ثم يأتي النداء الإلهي:

«أما ترون زوّار قبر الحسين...»

ليس سؤالاً للاستفهام، بل توجيه نظر... كأن الحقّ تعالى يقول لهم: انظروا جيّدًا، تأملوا هذا المشهد الذي قد يبدو صغيرًا في الأرض، لكنه عظيمٌ عندنا.

«أتوه شوقًا إليه وإلى فاطمة»

فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها.

هنا يكشف الإمام صلوات الله عليه عن سرّ هذا الفعل: ليس مجرد زيارة، بل شوق. والشوق لا يُصطنع... هو حركة قلبٍ صادق. هؤلاء لم يأتوا بدافع عادة، ولا طلبًا لسمعة، بل لأن في قلوبهم جذوةً حيّة، تربطهم بالإمام الحسين عليه السلام، وتمتدّ إلى أمّه فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليها، إلى ذلك البيت الذي اخترن أنقى معاني الطهر والوفاء.





إنّهم لا يزورون شخصًا فحسب، بل يزورون تاريخًا من الألم الإلهي،
من المظلومية التي كانت في سبيل بقاء الحق.

ثم يرتفع الخطاب إلى ذروته، حيث يقترن الوعد بالقسم الإلهي:

«وعزّتي وجلالي وعظمتي لأوجِبَنَّ لهم كرامتي».

هذه ليست مجرد بشارة، بل عهدٌ مؤكد. الله سبحانه وتعالى يقسم
بعزّته، بجلاله، بعظّمته... وهي أقسام تكشف عن عظمة ما سيُعطى.
«لأوجِبَنَّ لهم كرامتي»... أي أنّ الكرامة ليست احتمالًا، بل استحقاقًا
صار ثابتًا، نتيجة هذا الشوق الصادق.

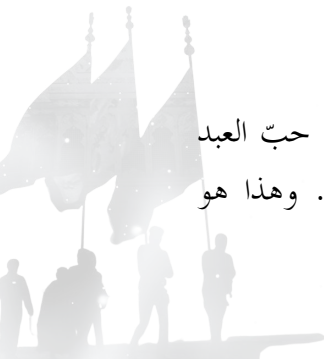
أيّ كرامة هذه؟

كرامة تتناسب مع من باهى الله به ملائكته... كرامة لا تُفاس
بالمقاييس المعتادة، بل تُمنح بما يليق بهذا القرب.

ثم تأتي العبارة التي تختصر كل شيء:

«ولأحبّبتهم لمحبتني».

هنا تنكشف الحقيقة الأعماق... أن القضية لم تعد فقط في حبّ العبد
للإمام الحسين عليه السلام، بل في حبّ الله لهذا العبد. وهذا هو
الذروة.





فحبّ الله جل وعلا ليس جزاءً عاديًّا، بل هو أعظم ما يمكن أن يُمنح
لإنسان. إذا أحبّ الله عبدًا، تغيّر كل شيء: نظره، حاله، مساره،
مصيره.

لكن لماذا؟

«لمحبتني»... أي لأنهم أحبّوا من أحبّ الله، وتعلّقوا بمن جعله الله
مظهرًا لرضاه، فانجذبوا إلى ما يحبّه الله، فأحبّهم الله لذلك.

وهكذا، يتبيّن أن زيارة الإمام الحسين عليه السلام، حين تكون شوقًا
صادقًا، ليست حركةً من العبد نحو الإمام فحسب، بل هي حركةً من
العبد نحو الله... عبر الباب الذي فتحه الله سبحانه وتعالى.

إنها دائرة حبّ:

حبّ في القلب،

يحرّك الخطي،

فيُرفع إلى السماء،

فيتحوّل إلى مباهاة،

ثم إلى كرامة،

ثم إلى حبٍّ إلهي.

ومن دخل هذه الدائرة... لم يعد إنسانًا عاديًّا،
بل صار اسمه يُذكر هناك... حيث لا يُذكر إلا من صدق





الحديث الثالث والثلاثون

قال أبو عبد الله (عليه السلام): { من زار قبر الحسين (عليه السلام) لله وفي الله أعتقه الله من النار، وآمنه يوم الفزع الأكبر، ولم يسأل الله حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا أعطاه }.

حين يتحدث الإمام جعفر الصادق صلوات الله عليه عن زيارة قبر الإمام الحسين عليه السلام بهذه العبارة الموجزة: «من زار قبر الحسين لله وفي الله...»، فإنه لا يضع وصفاً لعملٍ خارجي بقدر ما يفتح نافذة على قصةٍ داخلية تبدأ في القلب قبل أن تصل إلى الطريق.

تبدأ الحكاية من إنسانٍ ينهض من مكانه، لا تحرّكه عادةً اجتماعية، ولا تقوده رغبة في مدحٍ أو ذكرٍ بين الناس، بل شيء أعمق من ذلك بكثير... دافعٌ خفيّ اسمه «الله». يمشي وهو يشعر أن خطاه ليست له، وأن وجهته ليست دنيوية، بل وجهةٌ تتجاوز الأرض كلها. كأن في داخله نداءً صامتاً يقول له: امضي حيث يُذكر الإمام الحسين عليه السلام، واذكره كما يُراد له أن يُذكر.

وفي الطريق، لا يكون مجرد زائر عابر، بل يكون في حالة انكشاف داخلي، كأنه يجرد قلبه من كل ما ليس لله. لا يبحث عن صورة، ولا عن موقف، ولا عن أثرٍ اجتماعي... بل يترك كل ذلك خلفه، ويمضي بـ«نية صافية» لا يراها أحد، لكنها هي التي تعطي لخطواته معناها الحقيقي.



وعند الوصول، لا يكون المشهد مجرد قبر يُزار، بل حضورٌ لمعنى أكبر من المكان. هناك، عند قبر الإمام الحسين عليه السلام، يقف الإنسان أمام فكرة التضحية المطلقة، أمام الدم الذي سُفك ليقبى الحق حيًّا، فينكمش داخله كل ترفٍ، وكل غفلة، وكل تعلّقٍ بالدنيا. ويبدأ شيء في داخله بالتححرر... كأن القيود التي كانت تُثقل روحه تتفكك واحدةً بعد أخرى.

وهنا تبدأ النتائج تتجلّى في حياته لا في اللحظة فقط، بل في المصير كله.

يُقال عنه إنه أُعتق من النار... وكأن حياته التي كانت مهددة بالضياع قد أُعيدت كتابتها. لم يعد الإنسان أسير شهواته القديمة، ولا أسير ماضيه الثقيل، بل صار في حالة تحررٍ داخلي، لأن قلبه قد اتجه اتجاهًا صادقًا نحو الله عبر الإمام الحسين عليه السلام.

ثم يمضي الزمن، لكن أثر تلك الزيارة لا يتوقف. ففي لحظةٍ لا تُقاس، يأتي يومٌ تنزل فيه الوجود، يوم الفرع الأكبر. الناس فيه مضطربون، كلٌّ يبحث عن أمانه، كلٌّ منشغل بنفسه. لكن هذا الإنسان الذي مشى يومًا إلى الإمام الحسين عليه السلام «لله وفي الله»، يجد نفسه في حالة سكونٍ مختلفة، كأن قلبه قد تدرب في الدنيا على الطمأنينة، فلم يعد يفاجئه الخوف في الآخرة.





ثم تمتد النعمة أبعد من النجاة والأمان... إلى باب الطلب نفسه.
فحين يرفع يديه، لا تُردّ حاجته. ليس لأنه يطلب كثيرًا، بل لأن ما
يطلبه صار نابغًا من قلبٍ تغيّر. قلبٌ خرج من الزيارة ليس كما دخل،
بل صار أنقى، وأقرب، وأكثر انسجامًا مع إرادة الله سبحانه وتعالى.

وهكذا تتكشف الصورة كاملة:
رحلة تبدأ بخطوةٍ خالصة لله،
تمرّ بقبر الإمام الحسين عليه السلام، حيث يتجلى معنى التضحية،
فتعود بقلبٍ مُتحرر من النار،
مطمئن في الفرع،
مفتوح في الدعاء،
غارق في عطاءٍ لا ينقطع.

إنها ليست مجرد زيارة...
بل مسار حياةٍ كامل يُعاد تشكيله،
حين يكون البدء فيه: «لله وفي الله»



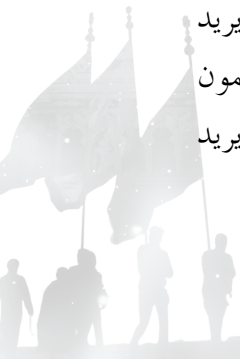


الحديث الرابع والثلاثون

عن الحسين بن علي بن ثوير بن أبي فاختة قال: قال لي أبو عبد الله (عليه السلام): { يا حسين من خرج من منزله يريد زيارة الحسين ابن علي بن أبي طالب عليهما السلام إن كان ماشيا كتب الله له بكل خطوة حسنة، وحط بها عنه سيئة، وإن كان راكبا كتب الله له بكل حافر حسنة، وحط عنه بها سيئة، حتى إذا صار بالحائر كتبه الله من الصالحين، وإذا قضى مناسكه كتبه الله من الفائزين، حتى إذا أراد الانصراف أتاه ملك فقال: له: أنا رسول الله ربك يقرئك السلام ويقول لك: استأنف فقد غفر لك ما مضى. }.

هذا النصّ الروائي لا يُقرأ قراءةً إخباريةً جافة، بل هو من النصوص التي تنفتح على أفقٍ تربويٍّ وعرفانيٍّ واسع، كأنّ الإمام (عليه السلام) لا يحدثك عن “رحلةٍ إلى كربلاء” بقدر ما يحدثك عن “رحلةٍ إلى الله عبر الإمام الحسين عليه السلام”. ومن هنا، فإنّ كلّ مفردة فيه مشحونة بدلالاتٍ تتجاوز ظاهرها إلى عمقٍ روحيٍّ متدرّج.

يبدأ الخطاب بنداءٍ شخصيٍّ: «يا حسين»، وهذا النداء ليس مجرد تعيينٍ للاسم، بل هو استحضارٌ للقلب، كأنّ الإمام (عليه السلام) يريد أن يُدخل السامع في حالة حضورٍ وجدانيٍّ قبل أن يحمله مضمون الرسالة. ثمّ يشرع في رسم معالم الطريق: «من خرج من منزله يريد زيارة الحسين...».





هنا تتأسس القاعدة الأولى: النية. فالخروج ليس حركةً جغرافيةً، بل انبعاثٌ قصديٌّ؛ إنّه انتقالٌ من عالم الاعتياد إلى أفق القصد، من سكن البيت إلى حركيّة الطلب. وكأنّ “المنزل” في هذا السياق يرمز إلى منطقة الألفة والركون، بينما تمثّل الزيارة خروجًا من الذات إلى المثال الأعلى الذي يجسّده الحسين (عليه السلام).

ثم تأتي المفارقة الجميلة بين المشي والركوب:
«إن كان ماشياً كتب الله له بكل خطوة حسنة... وإن كان راكباً كتب الله له بكل حافر حسنة...».

الإمام صلوات الله عليه هنا لا يُفاضل بين الوسيّلتين من حيث الأجر فقط، بل يكشف عن مبدأ أعمق: أنّ كلّ حركةٍ في سبيل الإمام الحسين عليه السلام هي حركةٌ محسوبة في ميزان الله سبحانه وتعالى، سواء صدرت من جهد الجسد المباشر (المشي) أو من وسائطه (الركوب). غير أنّ التفصيل بين “الخطوة” و”الحافر” يوحي بأنّ الارتباط بالإمام الحسين عليه السلام يُحوّل حتى الوسائل الماديّة إلى أدوات عبادة، فلا يبقى شيء خارج دائرة القرب.

ثم يتدرّج النصّ من الجزئيّ إلى الكلّي:
في البداية: حسنة تُكتب، وسيئة تُمحى.

لكن عند الوصول إلى الحائر، تتغيّر اللغة: «كتبه الله من الصالحين». وهنا نقلة نوعيّة عميقة؛ لم يعد الحديث عن تراكم أعمال، بل عن تحوّل في الهوية. كأنّ الزائر، بعد مسيرته المادية والروحية، لم يعد هو ذاته الأولى، بل أُعيد تصنيفه في سجلّ القرب الإلهي.





إنَّه انتقال من “فعل الخير” إلى “أن يكون من أهله”.

ثم يقول: «وإذا قضى مناسكه كتبه الله من الفائزين». والمناسك هنا ليست طقوساً شكلية، بل هي أعمال مشفوعة بالحضور القلبي: السلام، البكاء، الدعاء، التذكّر، والانكسار. وعند إتمامها، يصل الزائر إلى مرتبة “الفوز”، وهي في التعبير القرآني ذروة النجاة. وكأنّ الإمام الحسين (عليه السلام) صار ميزاناً للفوز، فمن أتمّ علاقته به على الوجه الصحيح، فقد لامس حقيقة النجاة.

لكن الذروة الحقيقية في الرواية تأتي في لحظة الانصراف، وهي لحظة غالباً ما يُظنّ أنّها نهاية الرحلة، بينما يكشف النصّ أنّها بداية أفقٍ جديد:

«حتى إذا أراد الانصراف أتاه ملك...».

ظهور الملك هنا ليس تفصيلاً عرضياً، بل هو إعلان عن انتقال التجربة من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، وكأنّ الزائر صار مؤهلاً لتلقّي الخطاب الإلهي المباشر.

ثم تأتي العبارة المدهشة:

«أنا رسول ربك... يقرئك السلام...».

الله سبحانه، الذي هو مصدر السلام، يُرسل سلامه إلى عبدٍ خرج لزيارة الإمام الحسين عليه السلام.





إنّها منزلة تكشف عن عمق الارتباط بين الإمام الحسين عليه السلام وبين رضا الله سبحانه وتعالى، حتى صار السائر إليه متلقياً لتحية إلهية. وهذه ليست مجرد كرامة، بل هي إشعارٌ بأنّ هذا الطريق هو طريق مرضاته تعالى.

وأخيراً، الخاتمة التي تختزل كلّ الرحلة:

«استأنف فقد غفر لك ما مضى».

هنا لا يُختم المشهد بمجرد مغفرة، بل بدعوة إلى “الاستئناف”، أي البدء من جديد. وكأنّ الزيارة ليست نهاية تطهر فقط، بل نقطة انطلاقٍ لحياةٍ أخرى. إنّها ولادة روحية، يُمحى فيها الماضي، ويُفتح فيها أفق المستقبل.

وعليه، فإنّ هذه الرواية ترسم مساراً متكاملًا:

خروجٌ بالنية سيرةٌ تُحتسب فيه الحركات وصولٌ يُبدّل الهوية أداءٌ يُحقّق الفوز خطابٌ إلهيٌّ ولادةٌ جديدة.

إنّها ليست دعوةً إلى زيارةٍ جسدية فحسب، بل إلى مشروع تحوّل وجودي، يكون الإمام الحسين (عليه السلام) فيه بوابة العبور من عالم الذنب والتشتت إلى عالم القرب والصفاء.





الحديث الخامس والثلاثون

عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنه قال : { من أتى قبر الحسين (عليه السلام) يوم عرفة بعثه الله تعالى يوم القيامة ثلج الفؤاد }.

كأنّ الإمام الصادق (عليه السلام) لا يلقي جملةً عابرة، بل يفتح نافذةً على مشهدٍ ممتدّ بين الدنيا والآخرة، يبدأ بخطوةٍ نحو قبر الإمام الحسين عليه السلام، وينتهي بحالٍ من السكينة يوم القيامة. تخيل الإنسان وهو يخرج في يوم عرفة... هذا اليوم الذي تضعّ فيه الأرواح بنداء التوبة، وتضيق فيه الصدور بما حملت من أثقال، فيبحث القلب عن موضعٍ يضع فيه انكساره. الناس هناك - في عرفات - يقفون بأجسادهم، لكنّ هذا الزائر يقف بقلبه عند الإمام الحسين عليه السلام، كأنّه أدرك أنّ كربلاء ليست مكانًا فحسب، بل هي معنى يُختصر فيه الطريق إلى الله سبحانه وتعالى.

يمشي، أو يُحمل، أو يصل بأيّ وسيلة... لكنّ المهم أنّه جاء، جاء وقلبه يحمل شيئًا من التعب، شيئًا من الأسئلة، وربما شيئًا من الذنوب التي أثقلت روحه. يقف عند القبر، لا كزائرٍ عابر، بل كمن وجد مرآةً يرى فيها نفسه. هنا دمة، وهناك تنهيدة، وهناك دعاء يخرج متقطّعا من صدرٍ يعرف أنّه بين يدي شاهدٍ على أعظم تضحية. في تلك اللحظات، لا يسمع وعدًا، ولا يرى جزاءً، ولا يُقال له شيء... كلّ ما يحدث هو أنّ شيئًا في داخله يبدأ بالتغيّر، بهدوء، بلا ضجيج.



كأن حرارة القلق التي كانت تشتعل في صدره بدأت تخفّ، وكأنّ ذلك الاضطراب الذي كان يلاحقه بدأ يلين.

تمضي الأيام... وتطوى الحياة... ويأتي ذلك اليوم الذي لا يشبه يوماً: يوم القيامة.

الوجوه شاحبة، والقلوب مضطربة، والخوف يسري في الأنفاس كالنار في الهشيم. كلّ إنسان يحمل ثقل ماضيه، وكلّ نفس تترقّب مصيرها.

وفي وسط هذا المشهد المهيّب، يُبعث هذا الزائر. لكنّه لا يُبعث كما يُبعث الآخرون.

يقوم... وقلبه ليس في حالة اضطراب. ينظر... وليس في داخله ذلك الوجل الذي يملأ صدور الناس. كأنّ في صدره نسمة باردة، سكوناً غريباً، طمأنينة لا تُفسّر بما حوله. ذلك هو "ثلج الفؤاد".

ليس لأنّ الموقف سهل، ولا لأنّ الحساب قد رُفع، بل لأنّ هذا القلب قد تعلّم في يوم عرفة، عند الإمام الحسين عليه السلام، كيف يهدأ بين يدي الله. تعلّم أن ينكسر دون أن ينهار، وأن يقترب دون أن يخاف، وأن يسلم أمره لمن بيده كلّ شيء.





فكأنّ تلك الوقفة هناك... لم تكن مجرد زيارة، بل كانت إعدادًا خفيًا لهذه اللحظة.

وكأنّ تلك الدمعة التي سقطت عند القبر... تحوّلت يوم القيامة إلى سكينَةٍ تسكن القلب.

وهكذا، تمتدّ الرحلة من كربلاء إلى القيامة، لا بخطوات الجسد، بل بتحوّل القلب... حتى يصل الإنسان إلى يوم الفزع الأكبر، وهو يحمل في داخله ما لا يُشترى ولا يُوهب إلا لمن عرف الطريق: قلبًا باردًا مطمئنًا، قلبًا "ثلج الفؤاد"





الحديث السادس والثلاثون

قال أبو عبد الله (عليه السلام): { من أتى قبر أبي عبد الله (عليه السلام) فقد وصل رسول الله (صلى الله عليه وآله) ووصلنا وحرمت غيبته وحرّم لحمه على النار، وأعطاه الله بكل درهم أنفقته عشرة آلاف مدينة له في كتاب محفوظ، وكان الله له من وراء حوائجه وحفظ في كل ما خلف، ولم يسأل الله شيئاً الا أعطاه وأجابه فيه، اما ان يعجله واما ان يؤخره له {.

ليست هذه الرواية مجرّد تعدادٍ لثوابٍ مترتبٍ على زيارةٍ، بل هي في عمقها رسمٌ لمسارٍ من الارتباط، يبدأ من خطوةٍ نحو قبر الإمام الحسين (عليه السلام)، وينتهي بدخول الإنسان في دائرة العناية الإلهية الشاملة، كأنّه انتقل من هامش الحياة إلى مركز الرعاية.

تخيّل هذا الإنسان... خرج من بيته، وربما لم يكن يدرك أنّه لا يتوجّه إلى قبرٍ فحسب، بل إلى صلةٍ تمتدّ إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وإلى أهل بيته صلوات الله عليهم جميعاً. يصل، يقف، يسلم... وفي ظاهر الأمر، هو يخاطب إماماً مضى، لكنّ الحقيقة - كما يكشفها الإمام الصادق (عليه السلام) - أنّه في تلك اللحظة قد "وصل".

«فقد وصل رسول الله... ووصلنا».





إنّها ليست زيارةً أحاديّة، بل لقاءً ممتدّ عبر الزمن، كأنّ هذا الزائر قد دخل في نسيج العلاقة الحيّة مع خطّ الرسالة كلّها، من الإمام الحسين عليه السلام إلى النبي الأعظم صلى الله عليه وآله، ومن الإمام صلوات الله عليه إلى أصل النبوة.

وفي هذا الاتصال، يحدث تحوّل خفيّ في مكانة الإنسان: «وحرمت غيبته».

كأنّ هذا الزائر لم يعد مجرد فردٍ عاديّ تُنتهك حرمة بالكلام، بل صار له من القداسة ما يجعل غيبته محرّمة، لأنّه انتسب بالفعل لا بالادّعاء إلى هذا الخطّ الطاهر. ثمّ تتصاعد العبارة: «وحرّم لحمه على النار».

وهنا لا يُراد ظاهر الجسد فقط، بل كناية عن النجاة، عن أنّ هذا الإنسان قد أُدخل في دائرة الأمان، لا لأنّه بلا ذنب، بل لأنّه طرق باباً عظيماً ففتح له.

ثمّ ينتقل النصّ من البعد المعنوي إلى تصويرٍ يكاد يكون كونيّاً: «وأعطاه الله بكل درهم أنفق عشرة آلاف مدينة له في كتاب محفوظ».

إنّها لغة تتجاوز الحسابات المألوفة، فالدرهم هنا لا يُقاس بقيمته السوقية، بل بنيته وما يحمله من صدق التوجّه. يتحوّل الإنفاق إلى بناءٍ، لا في عالم زائل، بل في “كتابٍ محفوظ”، أي في سجلٍّ لا يعتريه الفناء ولا النسيان. وكأنّ كلّ ما بذله هذا الزائر يُعاد تشكيله في عالمٍ أبقي، على هيئة مُلكٍ لا يُقاس.



لكنّ الأجمل من العطاء هو الرعاية المستمرة:

«وكان الله له من وراء حوائجه».

تعبيرٌ يحمل معنى العناية الاستباقية؛ ليس فقط أنّ الله سبحانه وتعالى يقضي حوائجه إذا طلب، بل كأنّه يتولّى شأنها من خلفه، يهيئها، يدبّرها، يرفع عنه ما لا يعلم قبل أن يسأل عنه. إنّها نقلة من “الدعاء عند الحاجة” إلى “الرعاية قبل الشعور بالحاجة”.

ثمّ يقول:

«وحُفَظ في كل ما خلف».

أي أنّ البركة لا تقف عند شخصه، بل تمتدّ إلى ما تركه وراءه: أهله، ماله، شأنه. كأنّ هذه الزيارة تصنع دائرة أمان لا تحيط به وحده، بل بكلّ ما يرتبط به.

وأخيراً، يبلغ النصّ ذروته في باب الدعاء:

«ولم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه... إمّا أن يعجّله أو يؤخّره له».

وهنا تتجلّى حكمة العطاء الإلهي؛ فالإجابة ليست دائماً على صورة التعجيل، لأنّ الله سبحانه وتعالى لا يعطي وفق رغبة اللحظة فقط، بل وفق مصلحة العبد في مسار عمره كلّ. فربّ دعاءٍ يُعجّل فيراه الإنسان نعمة، وربّ دعاءٍ يؤخّر فيكون في تأخيرهِ النجاة.





وهكذا، إذا أعدنا النظر في الرواية بوصفها مسارًا سرديًا، نجد أنها تبدأ بخطوة زيارة، ثم تتحوّل إلى صلةٍ بالنبي صلى الله عليه وآله، ثم إلى صيانةٍ للكرامة، ثم إلى أمانٍ من النار، ثم إلى مُلكٍ محفوظ، ثم إلى رعايةٍ إلهية، ثم إلى استجابة دعاء...

إنّها ليست رحلةً إلى قبر، بل ارتقاءً في طبقات القرب، حتى يصبح الإنسان في موضعٍ تُدار فيه شؤونه بعناية، وتُحفظ فيه حرمة، ويُفتح له باب الإجابة. وكأنّ الإمام الحسين (عليه السلام) هنا ليس مقصداً فحسب، بل بابٌ واسعٌ يدخل منه الإنسان إلى رحاب العناية الإلهية التي لا تُحدّ.





الحديث السابع والثلاثون

عن عبد الله بن مسكان قال: شهدت أبا عبد الله (عليه السلام) وقد أتاه قوم من أهل خراسان فسألوه عن إتيان قبر الحسين (عليه السلام) وما فيه من الفضل؟ فقال: { حدثني أبي عن جدي انه كان يقول: من زاره يريد به وجه الله أخرجه الله من ذنوبه كمولود ولدته امه وشيعته الملائكة في مسيره فرفرفت على رأسه قد صفوا بأجنتهم عليه حتى يرجع إلى أهله وسئلت الملائكة المغفرة له من ربه وغشيت الرحمة من أعنان السماء ونادته الملائكة طبت وطاب من زرت وحفظ في ماله وأهله }.

كأنّ المشهد يبدأ من مجلس هادئ عند الإمام الصادق (عليه السلام)، حيث يفد قوّم من خراسان، يحملون في قلوبهم سؤالاً يتجاوز حدود الفقه الظاهري إلى شوقٍ خفيٍّ لمعرفة سرّ هذا الطريق: ما الذي يحدث حقّاً لمن يأتي قبر الإمام الحسين عليه السلام؟ ليس السؤال عن “الحكم”، بل عن “الحقيقة” التي تختبئ خلف هذه الخطوة.

يُصغي الإمام صلوات الله عليه إليهم، ثمّ لا يجيبهم من عنده مباشرة، بل يفتح لهم نافذةً على سلسلةٍ نورانيّةٍ تمتدّ: «حدثني أبي عن جدّي...». وكأنّ الجواب لا يُعطى بوصفه رأياً، بل يُستدعى بوصفه ميراثاً حيّاً متصلاً بجذور النبوّة، ليُقال لهم: إنّ ما ستسمعونه ليس مجرد كلام، بل خلاصة تجربةٍ ممتدّة في عمق الرسالة.



ثم يبدأ السرد:

«من زاره يريد به وجه الله...».

هنا تُوضع القاعدة الأولى، لا على مستوى الفعل، بل على مستوى القصد. ليس كلّ من وصل فقد بلغ، بل من حمل في قلبه إرادة “وجه الله”. كأنّ الطريق إلى الإمام الحسين عليه السلام لا يُفتح بالجسد وحده، بل بنية تُجرّد الإنسان من شوائب الرياء والعادة.

وحين تتحقّق هذه النية، يقع التحوّل الأول:

«أخرجه الله من ذنوبه كمولود ولدته أمّه».

إنّ مشهد ولادة، لا مغفرة فحسب. فالإنسان لا يعود كما كان مع بعض التنظيف، بل يُعاد تكوينه، يُنزع عنه ثقل الماضي، ويُردّ إلى حالة الصفاء الأولى. كأنّ الزيارة هنا ليست إزالة للذنوب، بل إعادة خلق للذات.

لكنّ الرحلة لا تتوقّف عند هذا الحدّ؛ فبمجرّد أن يتحرّك هذا الإنسان في طريقه، يحدث أمرٌ لا يُرى بالعين، ولكنّ الرواية تكشفه:

«وشيعته الملائكة في مسيره... فرفرت على رأسه...».

تخيّل هذا الطريق الذي يسير فيه الزائر؛ يبدو للناس طريقاً عادياً، لكنّه في الحقيقة موكبٌ غيبيّ. الملائكة تحفّه، تظلّله، تبسط أجنتها فوقه. ليس تكريماً خارجياً فحسب، بل حماية واحتضان، كأنّ هذا السائر لم يعد يمشي وحده، بل صار في معية سماوية.





ويمتدّ هذا الاحتفاء حتى بعد أن يصل ويعود:

«حتى يرجع إلى أهله».

أي أنّ العناية لا تنقطع بانتهاء الزيارة، بل ترافقه في الذهاب والإياب، وكأنّ الرحلة كلّها من لحظة الخروج إلى لحظة الرجوع محاطة بعناية خاصة.

ثمّ يكشف النصّ عن حوارٍ خفيّ في السماء:

«وسألت الملائكة المغفرة له من ربّه».

هنا لا يكتفي الله بأن يغفر، بل يجعل ملائكته في موقع الداعين له. وكأنّ هذا الزائر صار موضع عنايةٍ حتى في عالم الغيب، يُذكر اسمه في دعاء الملائكة، وتُرفع له طلبات المغفرة من كائناتٍ لا تعصي الله.

وفي لحظةٍ أخرى، يتنزّل عليه شيءٌ لا يلمس ولكن يُحسّ:

«وغشيتّه الرحمة من أعنان السماء».

الرحمة هنا ليست مفهوماً مجرداً، بل حالةٌ تحيط به، تغمره، كأنّها غيمةٌ لطفٍ تنزل من فوق، فتكسو روحه بسكينةٍ لا يعرف مصدرها إلا من ذاقها.

ثمّ يأتي النداء:

«طِبت وطاب من زرت».

إنّ خطاب تكريم، كأنّ الملائكة تخاطبه: أنت أصبحت طيباً بهذه الزيارة، وهذا الذي زرتّه هو منبع الطيب كلّ. إنّها شهادةٌ مزدوجة: تزكية للزائر، وتعظيم للمزور.



ولا تنتهي الرواية عند البعد الروحي فقط، بل تمتدّ إلى حياة الإنسان العمليّة:

«وخُفظ في ماله وأهله».

كأنّ أثر هذه الرحلة يعود معه إلى بيته، إلى تفاصيل حياته، فيجد - من حيث يشعر أو لا يشعر - عنايةً تحيط بما يحبّ ويخشى عليه.

وهكذا، إذا تأملنا الرواية في نسقها السردّي، نجد أنّها تبدأ بنية خالصة، ثمّ تتحوّل إلى ولادة جديدة، ثمّ إلى مسيرٍ تحقّق الملائكة، ثمّ إلى دعاء غيبيّ، ثمّ إلى رحمة نازلة، ثمّ إلى خطاب تكريم، ثمّ إلى حفظٍ في الحياة...

إنّها ليست رحلةً إلى مكان، بل انتقالٌ في مراتب القرب، حيث يُعاد تشكيل الإنسان من الداخل، ويُحاط من الخارج بعناية لا تُرى، حتى يعود إلى أهله، وقد عاد بشيءٍ لم يكن يملكه من قبل: قلبٌ مغسول، وروحٌ مغمورة، ووجودٌ صار أخفّ لأنّه اقترب من الإمام الحسين (عليه السلام) قاصداً وجه الله.





الحديث الثامن والثلاثون

عن جابر الجعفي، قال: دخلت على جعفر بن محمد (عليهما السلام) في يوم عاشوراء، فقال لي: { هؤلاء زوار الله وحق على المزور ان يكرم الزائر، من بات عند قبر الحسين (عليه السلام) ليلة عاشوراء لقي الله يوم القيامة ملطخا بدمه كأنما قتل معه في عرصته، وبات عنده كان كمن استشهد بين يديه }.

كأنّ المشهد يُفتح على يومٍ مثقّلٍ بالذاكرة... يوم عاشوراء، حيث لا يكون الزمن مجرّد ساعاتٍ تمضي، بل جرحًا مفتوحًا في وجدان الأمة. يدخل جابر الجعفي على الإمام جعفر بن محمد (عليهما السلام)، فيجد أنّ هذا اليوم ليس يومًا عاديًا في حضرة الإمام، بل هو يومٌ تُستحضر فيه كربلاء بكلّ تفاصيلها، وكأنّها تقع الآن، لا في التاريخ.

ينظر الإمام صلوات الله عليه إلى الزائرين، لا بعينٍ ترى أشخاصًا جاءوا إلى مكان، بل بعينٍ تكشف حقيقتهم في ميزان السماء، فيقول: «هؤلاء زوّار الله...».

عبارة تهزّ المفهوم من أساسه؛ فالناس يظنون أنّهم زوّار قبر الإمام الحسين عليه السلام، لكنّ الإمام ينقلهم إلى مستوى آخر: أنتم في الحقيقة زوّار الله. كأنّ الإمام الحسين (عليه السلام) صار بابًا يُزار منه الله، ومقصّدًا تتجلّى فيه معاني القرب الإلهي.





ثمَّ يُتَّبَعُهَا بِقَاعِدَةٍ تَلِيْقُ بِهَذَا التَّشْرِيفِ:

«وَحَقٌّ عَلَى الْمَزُورِ أَنْ يَكْرَمَ الزَّائِرُ».

إِذَا كَانَ الْمَزُورُ هُوَ اللَّهُ، فَإِنَّ الْإِكْرَامَ هُنَا لَيْسَ عَطَاءً عَادِيًّا، بَلْ فَيْضٌ يَلِيْقُ بِكَرَمِ الْإِلَهِ. وَكَأَنَّ الْإِمَامَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَرِيدُ أَنْ يَقُولَ: لَا تَظَنُّوا أَنَّ هَذِهِ الْخُطْوَةَ تَمَرُّ بِلاَ جَوَابٍ، فَثَمَّةٌ إِكْرَامٍ يَنْتَظِرُكُمْ، وَلَكِنْ عَلَى مُسْتَوًى يَلِيْقُ بِمَنْ تَزُورُونَ.

ثمَّ يَنْتَقِلُ الْحَدِيثُ مِنْ هَذَا الْإِطَارِ الْعَامِ إِلَى صُورَةٍ أَكْثَرَ خُصُوصِيَّةً وَعُمَقًا:

«مَنْ بَاتَ عِنْدَ قَبْرِ الْحُسَيْنِ لَيْلَةَ عَاشُورَاءَ...».

الْلَيْلَةُ هُنَا لَيْسَتْ مَجْرَدُ زَمَنِ لِلْمَبِيتِ، بَلْ هِيَ لَحْظَةٌ تَمَاهٍ مَعَ الْحَدَثِ. إِنَّهَا اللَّيْلَةُ الَّتِي سَبَقَتْ الْفَاجِعَةُ، اللَّيْلَةُ الَّتِي كَانَ فِيهَا الْإِمَامُ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَصْحَابُهُ سَلَامَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بَيْنَ دَعَاءٍ وَاسْتِعْدَادٍ، بَيْنَ عِبَادَةٍ وَتَهَيُّؤٍ لِلشَّهَادَةِ. فَمَنْ بَيَّتَ هُنَاكَ، كَأَنَّهُ يَدْخُلُ فِي نَسِيجِ تِلْكَ اللَّحْظَاتِ، لَا يَوْصِفُهُ مَتَفَرِّجًا، بَلْ يَوْصِفُهُ حَاضِرًا بِالْقَلْبِ.

ثمَّ تَأْتِي الصُّورَةُ الْمَذْهَلَةُ:

«لَقِيَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَلْطَطًّا بِدَمِهِ كَأَنَّمَا قُتِلَ مَعَهُ فِي عَرِصَةِ كَرْبَلَاءَ».

إِنَّهُ تَصْوِيرٌ يَتَجَاوَزُ الظَّاهِرَ؛ فَالزَّائِرُ لَمْ يُقْتَلْ حَقِيقَةً، لَكِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَكَأَنَّهُ يَحْمِلُ أَثَرَ الدَّمِ، أَثَرَ الشَّهَادَةِ. وَكَأَنَّ هَذِهِ اللَّيْلَةَ صَنَعَتْ فِي دَاخِلِهِ انْتِمَاءً عَمِيقًا، حَتَّى صَارَ فِي مِيزَانِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْمَوْقِفِ، لَا مِنْ الْبَعِيدِينَ عَنْهُ.





تخيّل هذا الإنسان يوم القيامة... الناس يُبعثون بآثار أعمالهم، وهذا يُبعث وعليه أثر الدم الحسيني، لا بوصفه جرمًا، بل بوصفه وسام قرب، علامة انتساب إلى معسكر الحقّ. إنّه ليس مجرد ناجٍ، بل شاهدٌ على موقف، منتّم إلى قضية.

ثمّ يختصر الإمام صلوات الله عليه المعنى كلّ في عبارةٍ مكثّفة:
«وبات عنده كان كمن استشهد بين يديه».

هنا يبلغ الخطاب ذروته؛ فالمبيت - إذا اقترن بالحضور القلبي - لا يبقى مبيتًا، بل يتحوّل إلى معايشةٍ للشهادة. ليس لأنّ الإنسان قُتل، بل لأنّه عاش المعنى الذي من أجله قُتل الإمام الحسين (عليه السلام).

وهنا تتجلّى حقيقة عميقة:

أنّ القرب من الإمام الحسين عليه السلام لا يُقاس بالمسافة، بل بدرجة الانخراط في قضيتّه. فمن حضر بقلبه، وذاب في معنى التضحية، ووعى سرّ ذلك الدم، صار في ميزان الله كأنّه جزء من تلك الواقعة.

وهكذا، ترسم الرواية مسارًا سرديًّا يبدأ بدخولٍ في يوم عاشوراء، ثمّ إعادة تعريف الزائر، ثمّ وعد بالإكرام، ثمّ انتقال إلى ليلةٍ مفصلية، ثمّ بعثٍ مميّز يوم القيامة، ثمّ ختمٍ بمقام الشهادة...

إنّها دعوةٌ لا إلى مجرد الحضور، بل إلى أن يتحوّل الحضور إلى انتماء، وأن تتحوّل الذكرى إلى معايشة، حتى يصبح الإنسان ولو بعد القرون واحدًا من أولئك الذين وقفوا في كربلاء، لا بأجسادهم، بل بقلوبهم التي صدقت ما عاهدت الله عليه



الحديث التاسع والثلاثون

عن أبي عبد الله (عليه السلام)، قال: {من سره أن يكون على موائد النور يوم القيامة فليكن من زوار الحسين بن علي (عليهما السلام)}.

يرسم الإمام الصادق صلوات الله وسلامه عليه مشهداً من مشاهد الآخرة، ثم يفتح له باباً من الدنيا. لا يبدأ بالحديث عن الزيارة، بل عن غاية بعيدة تشد القلب:

«من سرّه أن يكون على موائد النور يوم القيامة...».

تتوقّف النفس هنا قبل أن تُكمل الجملة...
ما هذه “الموائد”؟ وما هذا “النور”؟

إنّها ليست موائد طعامٍ بالمعنى المادّي، بل موائد قرب، موائد كرامة، حيث يُدعى الإنسان ليكون في مقامٍ من الضياء، في حضرةٍ يغمرها الصفاء، بعيداً عن ظلمات الخوف والاضطراب التي تكتنف ذلك اليوم. كأنّها صورةٌ لاصطفاءٍ خاص، حيث لا يكون الإنسان واقفاً في زحام الحساب، بل جالساً في مقام الأُنس.

ثمّ يأتي الجواب الذي يربط هذا المشهد بتلك الخطوة البسيطة في ظاهرها:

«فليكن من زوّار الحسين بن علي».

وهنا تبدأ الحكاية...





إنساناً في هذه الدنيا، تحيط به مشاغلها، وتثقله عاداته، لكنّ في داخله شوقاً لا يعرف له تفسيراً كاملاً. يسمع باسم الحسين، فيتحرّك فيه شيء، كأنّ هذا الاسم يحمل نداءً خفياً. يقرّر أن يزور... لا لأنّها عادة اجتماعيّة، بل لأنّه يشعر أنّ هناك معنى ينتظره.

يسير... أو يُنقل... يصل... يقف أمام القبر...
في تلك اللحظة، لا يرى بعينه إلا مكاناً، لكنّ قلبه يبدأ برؤية ما هو أبعد. يشعر بخشوع لا يشبه غيره، بانكسار فيه طمأنينة، بدمعة تحمل راحة غريبة. كأنّه جلس دون أن يدري على أول عتبة من تلك "الموائد".

تمرّ الأيام... وربما ينسى بعض التفاصيل، لكنّ الأثر يبقى في داخله، كأنّ تلك الزيارة تركت فيه نوراً صغيراً، يهدأ به عند القلق، ويستقيم به عند الانحراف.

ثمّ يأتي يوم القيامة...
الناس في مواقفهم، بين قائمٍ ينتظر، وخائفٍ يترقب، ونفسٍ تبحث عن نجاة.

وفي ذلك المشهد، يُدعى هذا الإنسان... لا إلى الوقوف، بل إلى مقامٍ آخر.





يُقَرَّب...

يجد نفسه في موضعٍ ليس فيه ذلك الاضطراب، بل سَكِينَةٌ ممتدّة، ونورٌ يحيط به من كلّ جانب. كأنّه انتقل من ساحة الحساب إلى مجلس القرب. هناك، حيث “موائد النور”... حيث الكرامة لا تُقاس، وحيث يشعر الإنسان أنّه لم يعد غريبًا، بل صار في حضرةٍ يعرفها قلبه منذ تلك اللحظة التي وقف فيها عند الإمام الحسين عليه السلام.

وهنا يفهم المعنى...

أنّ تلك الخطوة في الدنيا لم تكن صغيرة، وأنّ تلك الدفعة لم تذهب سدى، وأنّ الزيارة لم تكن انتقالًا في المكان، بل كانت بداية انتقالٍ في المقام.

إنّها دعوةٌ هادئة، ولكنّها عميقة:

إن أردت أن يكون لك موضعٌ في نور الآخرة، فابحث عنه من الآن...

وابداً من هناك، من عند الإمام الحسين عليه السلام، حيث تتحوّل الخطوة إلى نور، والزيارة إلى مقام، والقلب إلى أهلٍ للجلوس على موائد لا يجلس عليها إلا من عرف الطريق.





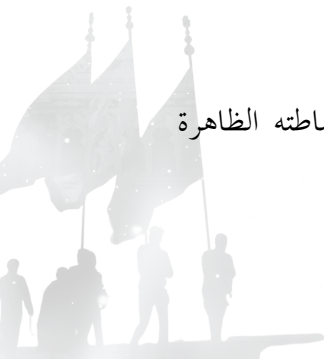
الحديث الأربعون

عن أبي عبد الله (عليه السلام)، قال: { من أراد أن يكون في كرامة الله يوم القيامة وفي شفاعة محمد (صلى الله عليه وآله)، فليكن للحسين زائراً ينال من الله الفضل والكرامة وحسن الثواب، ولا يسأله عن ذنب عمله في حياة الدنيا، ولو كانت ذنوبه عدد رمل عالج وجمال تهامة وزبد البحر، ان الحسين (عليه السلام) قتل مظلوما مضطهدا نفسه عطشاناً هو وأهل بيته وأصحابه. }

يفتح باباً واسعاً نحو أفقٍ من الرجاء، يبدأ من أمنية عميقة في قلب كل إنسان:
«من أراد أن يكون في كرامة الله يوم القيامة... وفي شفاعة محمد (صلى الله عليه وآله)...».

هنا يتوقف القلب لحظة...
فأي كرامة أعظم من أن يكون الإنسان في موضع إكرام الله؟ وأي أمان أرسخ من أن يدخل تحت شفاعة النبي صلى الله عليه وآله؟ إنه حديث عن أعلى ما يمكن أن يبلغه الأمل، في يوم تتضاءل فيه كل الأماني إلا النجاة.

ثم يأتي الطريق، لا معقداً ولا بعيداً، بل واضحاً في بساطته الظاهرة وعظيم في عمقه:
«فليكن للحسين زائراً...».





ومن هنا تبدأ الحكاية...

إنسانٌ يحمل في داخله ثقل الحياة، ذنوبًا يعرفها، وأخرى ربما نسيها،
وأثقالًا لا يجد لها مخرجًا. يسمع هذا النداء، فيشعر أنّ الطريق لم
يُغلق، وأنّ باب الرجاء ما زال مفتوحًا. يقرّر أن يزور الإمام الحسين
عليه السلام، لا كمن يؤدّي عادة، بل كمن يبحث عن ملاذ.

يصل... يقف...

هناك، عند القبر الشريف، لا يتكلّم كثيرًا، لأنّ القلب هو الذي يتكلّم.
تتراحم في داخله مشاعر الندم، والرجاء، والانكسار. كأنّه يقف أمام
شاهدٍ على أعظم مظلوميّة، فيستحي أن يبقى على ما هو عليه.

وفي تلك اللحظة، دون أن يشعر، يبدأ التحوّل...

ثمّ يقول الإمام عليه السلام :

«ينال من الله الفضل والكرامة وحسن الثواب».

لكنّ العبارة لا تتوقّف هنا، بل تتجاوز كلّ توقّع:

«ولا يُسأله عن ذنبٍ عمله في حياة الدنيا...».

يبلغ الخطاب ذروته...

ليس مجرد مغفرةٍ بعد سؤال، بل تتجاوز عن أصل السؤال. كأنّ هذا
الإنسان يُستقبل يوم القيامة، لا بوصفه متّهمًا يُستجوب، بل بوصفه
عبدًا أقبل يومًا بقلبه إلى بابٍ عظيم، ففتح له ما لا يُفتح لغيره.



ويؤكد الإمام صلوات الله عليه المعنى بأقصى صور المبالغة التي تُحاكي واقع الذنوب:

«ولو كانت ذنوبه عدد رمل عالج، وجبال تهامة، وزبد البحر...». صورٌ تتراكم فيها الكثرة: رمالٌ لا تُحصى، جبالٌ شاهقة، وزبدٌ لا يُمسك...

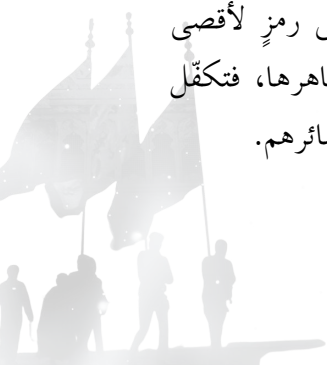
وكأنه يقول: مهما بلغ الثقل، فإنَّ باب الإمام الحسين عليه السلام أوسع.

لكنَّ الرواية لا تترك هذا الفضل بلا تفسير، بل تكشف سرّه في خاتمتها:

«إنَّ الحسين قُتل مظلومًا، مضطهدًا، عطشانًا هو وأهل بيته وأصحابه».

هنا تنقلب الرواية من وعدٍ إلى مفتاح فهم... كأنَّ هذا الفيض كلّه مرتبط بتلك المظلوميّة العظمى، بذلك الدم الذي سُفك عطشانًا، بتلك النفوس التي قُدِّمت في سبيل الله دون أن تُنصف في الأرض.

فمن يأتي إلى الإمام الحسين عليه السلام، إنّما يأتي إلى رمزٍ لأقصى درجات الإخلاص والتضحية، إلى قضيةٍ لم تُنصر في ظاهرها، فتكفل الله بأن يجعل نصرتها ممتدّة في قلوب الزائرين، وفي مصائرهم.





وهكذا، تمتد الحكاية...

من إنسانٍ مثقلٍ بالذنوب، إلى زائرٍ منكسرٍ، إلى عبدٍ مشمولٍ
بالكرامة، إلى موقفٍ يوم القيامة لا يُسأل فيه عمّا مضى، بل يُؤخذ إلى
رحاب الشفاعة.

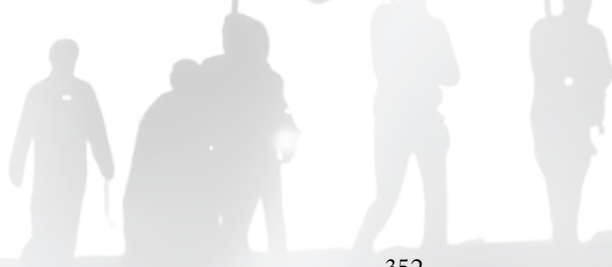
إنّها ليست دعوةً إلى زيارةٍ فحسب، بل دعوةً إلى أن يجد الإنسان بابًا
لا يُغلق، مهما أثقلت ذنوبه...

بابًا كُتب على عتبته بدم الإمام الحسين عليه السلام:
أَنْ من أقبل صادقًا، ووقف بقلبه، فإنّ الله يُبدّل خوفه أمانًا، وثقله
خفةً، وماضيه عفوًا، ويُدخله في كرامةٍ لا تُفاس.





جائزہ کتاب





خاتمة الكتاب

وهنا... عند هذه الصفحات التي بلغت خاتمتها، لا ينتهي الحديث عن الإمام الحسين عليه السلام، بل يبدأ على نحوٍ آخر؛ يبدأ من داخل القارئ، لا من سطور الكتاب. فما كُتب هنا ليس إلا محاولةً محدودةً للاقتراب من بحرٍ لا تُدرك له ضفاف، وإشاراتٍ خجولة نحو مقام تعجز العبارات عن الإحاطة به.

إنّ هذا الكتاب لا يدّعي أنّه أحاط بحقّ الإمام صلوات الله عليه، ولا أنّه كشف تمام السرّ في زيارته، بل هو أقرب ما يكون إلى فتح نافذةٍ صغيرة في جدارٍ واسع، ليدخل منها نورٌ يدعو إلى التأمل. فالإمام الحسين عليه السلام ليس موضوعاً يُستوفى، ولا فكرةً تُختصر، بل هو حقيقةٌ ممتدة، تتجدّد مع كلّ قلبٍ يقترب، ومع كلّ عقلٍ يحاول أن يفهم.

ومن هنا، فإنّ هذه الخاتمة ليست إغلاقاً، بل دعوة... دعوةً إلى أن يتحوّل ما قرئ إلى عصفٍ ذهنيٍّ حيٍّ، وإلى مراجعةٍ صادقة، وإلى تساؤلٍ لا يهدأ: من هو الإمام الحسين عليه السلام في وعينا؟ وما معنى أن نزوره؟ وأيّ مقامٍ ندّعيه ونحن نقف على بابه؟ لعلّنا، عبر هذا التفكير، نكتشف أنّ الزيارة ليست حركة أقدامٍ فحسب، بل ارتقاء وعي، وأنّ السير إلى الإمام الحسين عليه السلام هو في حقيقته سيرٌ من ظاهر العلاقة إلى عمقها، من الاسم إلى المعنى، ومن العادة إلى المعرفة.



وإذا كان إدراكنا قاصرًا، فإنّ صدق الطلب يفتح آفاقًا لا يفتحها الادّعاء. وما هذا الكتاب إلا محاولة لأن يوقظ فينا هذا الطلب، وأن يدفعنا لنقف موقف المتأمل، لا موقف المكتفي، وموقف الباحث، لا موقف المدّعي.

فليكن هذا العمل بدايةً لا نهاية، ومنطلقًا لا محطة، نعود إليه لا لنكتفي بما فيه، بل لننطلق منه إلى ما وراءه...

علنا، بهذا التفكّر المستمر، نُكتب يومًا - بفضل الله - من زوّار الإمام الحسين عليه السلام، لا بالخطى وحدها، بل بالوعي... ومن الزائرين، لا بالحضور فحسب، بل بالمعرفة...

ومن العارفين بحقه، لا بإحاطتنا به - وهيئات - بل بصدق سعيها نحوه، ضمن حدود إدراكنا، وتحت ظلال رحمته التي وسعت كلّ قاصِرٍ صادق.

وهكذا يبقى الإمام الحسين عليه السلام بابًا مفتوحًا، لا يُغلق، وطريقًا ممتدًا، لا ينتهي...

ومن أراد الوصول، فليبدأ من هنا... من التفكّر.

والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على نبيه محمد وآله الطيبين الطاهرين





مکتوب الکتاب





محتوى الكتاب

اهداء.....	٢
مقدمة عامة.....	٦
مقدمة كتاب.....	١١
تمهيد.....	١٧
المحور الأول: مدخل إلى زيارة الأربعين.....	٢٣
المحور الثاني: القضية والرسالة.....	٤١
المحور الثالث: نص الرواية وتحليلها.....	٥٦
المحور الرابع: ما هو “الحق” الذي يجب معرفته؟.....	٧٦
المحور الخامس: الفرق في زيارة عارفاً بحقه.....	٨٩
المحور السادس: البعد الروحي لزيارة الأربعين.....	١٠٤
المحور السابع: الأبعاد الاجتماعية والإنسانية.....	١١٩
المحور الثامن: قراءة معاصرة للرواية.....	١٣٦
المحور التاسع: ثمرات الزيارة.....	١٥٥
المحور العاشر: خاتمة تأملية.....	١٧١
الخاتمة.....	١٨٤
الزيارة في الروايات: قراءة منهجية.....	١٨٨
أربعون حديثاً في فضل الزيارة.....	٢٠٦
خاتمة الكتاب.....	٣٤٨

